هيبة اينوبلي

بنت عتيق

من ولد في تونس حر يمنع بيعه أو شراؤه

نقوش عربية 2022

العنوان: بنت عتيق، من ولد في تونس حر يمنع بيعه أو شراؤه
المؤلف: هيبة اينوبلي
الطبعة الأولى تونس 2022
الترقيم الدولي للكتاب: 978-9938-07-668-4
جميع الحقوق محفوظة للناشر دار نقوش عربية
الشقة عددA3- بالطابق الأول من العمارة الكائنة عدد 5 شارع 20 مارس 1956 باب سعدون 1005
www.editionsarabesques.com
البريد الإلكتروني: editionsarabesques.tunis@gmail.com

أفرك بقوّة، أدعك جسدي بحفنة من الّطحين الأبيض بكل طاقتي، أرغب في التخلّص من لوني الأسود بتعويذة ما، أتمنّى أن تتحقق نبوءة إلهيّة ويتحول جسدي إلى اللّون الأبيض.

يتبدّد من بين يديّ الطّحين فأمد كفيّ الصغيرين نحو الكيس وأحمل القليل منه لأدهن وجهي وشعري، أشعر أنّ جسدي لم ينضج بعد فقد يتحوّل إلى اللون الأبيض.

كنت جالسة في المطبخ أعبث بكل أغراضه وإذ بيد عملاقة تسحبني من شعري وتجرّني على الأرض ثم تهزّني بشكل دائري فيصيبني الدّوار وأصرخ مستنجدة. تضع كفّها القوي على فمي تكتم صرخاتي، تعضّني بوحشية وتنهال عليّ صفعا ثم تسحبني بعنف نحو حوض الماء الموجود في الخارج وتسكب الماء على جسدي وتستمر في دعك الطّحين والتخلّص منه وأنا أغصّ بالبكاء وتخنقني أنفاسي، أشعر بأنّ حلمي تبدّد مع تخلّصها من رغبتي الشديدة بأن تحدث معجزة وأصبح بيضاء.

لقد كانت أمي تفعل بي كل ذلك.

أمي نوة!

سأبدأ مذ كنت خادمة صغيرة وأنا لم أتجاوز الخامسة من العمر.

لم أكن أعلم أنه بإمكان طفل في العاشرة أن يكون لئيما وخبيثا، هؤلاء الأطفال كالشّياطين، سيكون قدرهم أن يكبروا وبداخلهم مارد سيلتهم الجميع بحقارته.

كان محمّد علي، ابن أخت لالة يامنة، طفلا معتوها ينقصه الكثير من التهذيب والاحترام، ما إن يحل بالقصر حتى يحوله لزوبعة فيبعثر كل أشيائه ويصدف أن يلهو بمرايا غرفة الجلوس فيهشمها، ويظلّ يزور نوه في المطبخ يطلب منها كأسا من الزرير المخلوط بأطيب أنواع الفواكه الجافّة ثم يختفي تحت الدّرج يلعق مثل فأر صغير ما علق بأصابعه و ما أن يبصر يوسف يقفز نحوه لإخافته دافعا إيّاه نحو الجدار أو نافورة الماء ويضحك منفجرا كفقاعه صابون.

كان وجوده يؤذي الجميع وما أن تختلي تركية بالسيّد يوسف حتّى توبّخه وترجوه أن يعيده إلى تستور، لكنه يشيح بعينيه بعيدا عنها ويقول لها في ضجر: "إنه طفل! حاولي أن تجاريه! أتريدين أن يقولوا في القرية الحاجّ يوسف طرد طفلا صغيرا! استغفري ربّك تركية واتركيه يلعب.."

تصمت وتنشغل بترتيب ملابسه ووضعها في الخزانة الخشبيّة الّتي تلتهم كل ركن في غرفة نومها الفخمة وتنزوي على حافّة سريرها وتقول له بكل ثقة: "سي يوسف هذا الموسم أريد أن أشتري صياغة اللّيرة وبعض حليّ الشيشخان، لقد رأيت لالة فاطمة زوجة سي محمّد تلبس واحدة ثقيلة وغالية." فيبتسم الحاج يوسف ويقول لها: "لقد تمّ ! سأشتريهما لك!"

تبتسم تركيّة وتضع قدميه على راحة فخذيها وتشرع في تدليكهما وهي تروي له تفاصيل البيت في غيابه وتقدّم له تقريرا حول دراسة يوسف ووضع حلق الوادي وما حدث من أسرار البيوت في غيابه والّتي تتناقلها النسوة بينهنّ خلال زيارتهنّ القليلة لبعضهنّ وقت ضجرهنّ.

يكون الصّيف متعبا لنوّه بسبب عدد الوافدين علينا طمعا في الاستجمام وزيارة البحر.

يختفي الجميع في القيلولة داخل غرفهم وتظلّ نوّه جالسة القرفصاء في المطبخ جامعة رجليها بذراعيها وقد غطّت في نوم عميق لتستفيق أحيانا مرتعبة من صراخ تركيّة وهي تطلب الماء من شدة العطش.

كنّا مثل عفاريت ما بعد الظّهيرة لا ننام أبدا، يجتمع الأطفال في غرفة الضّيوف الواسعة يلعبون ويتشاجرون وحدث ذات يوم أن اقتربت منهم في الغرفة وجلست في ركن وقد تشعّث شعري ووقفت خصلاته متلبّدة ومخيفة، استرعى شكلي الغريب انتباه محمّد عليّ الذي صرخ مشدوها: "عبيّثة" فتوقّف الأطفال عن اللعب موجّهين بصرهم نحوي ثمّ انفجروا ضاحكين وواصل سخريته قائلا: "وصيفة! وصيفة مخيفة!

إنها سوداء مثل العنكبوت!"

بدأوا يسخرون مني، فاقترب يوسف وصرخ في وجوههم وأمرهم بأن يبتعدوا عنّي ثمّ قال لي: "اهربي! الآن اركضي!"

تعثّرت وأنا أحاول الرّكض بسروالي المبتل وشعري المنكوش يسبقني في الرّكض خارجا نحو المطبخ لأشتكي سخريتهم بي لنوّه ولكن وجدتها هناك تغطّ في نوم عميق حيث بدا لي كأنّها في سبات طويل لن تستفيق منه أبدا.

توجّهت نحو العلية بحثا عن سطل دهان أبيض كنت أعلم مسبقا ومنذ أسابيع انقضت أن عمّال البناء قد تركوه على أمل العودة لاستعادته لاحقا ودون تردد سكبته على جسدي ثمّ تَوَجَّهْت بكل ثقة نحو غرفة الجلوس وانبريت أمامهم بعفويّة وبساطة قائلة بصوت ثابت: "فلنلعب مع بعضنا الآن أنا بيضاء مثلكم!"

توقفوا عن لهوهم ونظروا لي بعيون زائغة ثم صرخوا جميعهم صراخا هزّ أرجاء القصر قائلين: "عبيثة، عبيثة !"

هبّ الجميع نحونا، وتفرّق الأطفال في الأرجاء يقفزون فزعين وقد تعالى بكاؤهم.

جاءت تركيّة تتعثّر في ملابس نومها الحريريّة وهي تتعوّذ من الشيطان وما إن شاهدتني حتّى انطلقت من حنجرتها صرخة مدوية هزّت جدران البيت ودفعت الجميع للصمت والسكون ونادت في مقت نوّه.

جاءت أمّي متعثّرة، مرتبكة، ما إن أدارت عيناها ناحيتي حتى توجّهت قبالتي وأمسكتني من شعري المشعثّ وسحبتني خارجا نحو النّافورة، سكبت الماء على جسدي، أمسكت سوطا على جانب السلم وهوت به ضربا على جسدي ولم تتوقّف إلاّ على دموع يوسف وهو يترجى تركيّة أن تمنعها من فعل ذلك.

ومع إلحاح يوسف أمرت تركيّة أمّي أن تحملني إلى السّقيفة وتعاقبني طوال الصّيف هناك فهي لا تريد أن تراني أبدا.

عمّ الهدوء أرجاء القصر عصرا.

كنت مختفية كعادتي تحت الطّاولة وقد جمعت رجلي نحوي وأخفيت رأسي هناك مثل نعامة وأنا أبكي وفجأة سمعت صوت محمّد عليّ وهو يناديني "بووع" "بوووع"، أغمضت عيني وبدأت أصلّي وأدعو الله أن يخلّصني منه، كان يتأرجح ببطنه المكوّر مثل دبّ صغير نحو الغرفة ويناديني يا سوداء!

أغمضت عيني ووضعت يدي على أذني حتّى لا تبلغني سخريته المقيتة وفجأة سقط من على الدّرج وأخذ يصرخ طالبا النّجدة.

أحسست بالهدوء وكأنّ ملاكي الحارس الّذي يحمي الأطفال التعساء مثلي ثأر لدموعي.

ظل محمّد عليّ يصرخ ألما وصرخت تركيّة مخاطبة النّسوة: أحضرن العربة سنتوجّهن نحو المستشفى لقد كسر الصبي.

عاد الجميع في المساء وقد وضع محمّد عليّ جبيرة على رجله حتّى ركبته وأخرى بذراعه، بدا وكأنّه ابتلع لسانه واختفى في غرفة أمّه مسجونا.

بقيت في العلية وحيدة لا يزورني أحد لمدّة يومين إلا نوّه الّتي تقدم لي الأكل وتغادر في صمت.

كنت أتفرّس وجهها وقد سلبت منه جميع تعابيره باحثة عن شفقة الأم فيها لكني أجدها دوما متصلّبة وقاسية.

خلال اليوم الثّالث سمعت جلبة خلف الستائر وكنت كعادتي مختفية تحت الطّاولة الدائريّة أراقب المارّين من الغرفة بخوف وحذر، مرّت لحظات وعيناي مثبّتتان كسهم نحو السّتائر أستمع لخشخشة ما وكأنّ جرذا ضخما يقضم الطعام،

أغمضت عيني ودفعت السّتائر جانبا وفتحت عيني دفعة واحدة لأجد فتاة بدينة تأكل قطعة تفّاح بشراهة، توقفت فجأة وقد غصّ حلقها وجحظت عيناها واستفرغت البقايا العالقة به وقالت لي متمتمه": أنت مخيفة لماذا تحملقين بي مثل سحلية عظيمة!"

كانت مكتنزة وبطنها بارز كأنها دمية محشوّة بالصّوف على الرغم من صغر سنّها، تداركت دهشتي وأجبتها بكل فصاحة: "وأنت جدّ سمينة!!"

توقّفت البنت لدقائق تستسيغ وقاحتي غير المألوفة وسألتني في حيرة: "ما الحلّ إذا؟"

أجبتها بكل ثقة: يجب أن تتوقفي عن الأكل أو ستنفجرين يوما ما مثل البالون.

ضحكنا لثواني ونحن نتفحّص عيوب بعضنا ببراءة الطّفولة وصدقها ثمّ قالت لي: "أنت جميلة لكن شعرك مخيف جدا!!"

أمسكت شعري بأطراف أناملي أحاول أن أخفيه بين كفيّ فتردّدت قليلا ثمّ قالت لي: "ما رأيك لو تخلصت من كومة القشّ فوق رأسك ستكونين أجمل". فتساءلت مستغربة: "كيف لي ذلك؟؟" فتابعت بثقة رهيبة سنقصه.

اختفت لبضع دقائق وجاءت تحمل مقصّا بين يديها وشرعت في قص شعري بطريقة فوضوية يمينا ويسارا بحيث لم يَتَسَاوَ الجانبان أبدا.

بدا شعري بشعا أكثر من قبل، انفجرت باكية فربّتت بثقة على كتفي محاولة تهدئتي ثم انغمست لدقائق تقصّ بقيّة شعري لأصبح صبيا لطيفا.

كنت أنظر لنفسي بشغف وتنفّست من أعماقي وكأنّي أتخلّص من عاهة جسديّة رافقت قلبي لسنوات وعلى الرغم من خسارة كومة القشّ تلك فوق رأسي إِلَّا أن تفصيلا بسيطا جدا جعلني أبدو أجمل وقد خفّف من اشمئزازي من نفسي قليلا.

مع غروب الشّمس صعدت نوّه وبيدها صينيّة الطّعام لتجدني حليقة الشّعر واقفة في ركن أرتجف خوفا من العقاب الّذي ستنزله بي وما إن رأتني حتّى انفجرت باكية وجلست على الأرض لدقائق تستردّ شهقاتها وتمسح دموعها بكمّ فستانها الأسود ثمّ غادرت من دون أن تقول أيّ كلمة.

لساعات معدودة كنت أستمع لخفقات قلبي وأنتظر أن تباغتني نوّه بسوط الجلد كعقاب لي، لكنها لم تأت تلك اللّيلة ونمت هادئة حتى الصّباح أين وجدت صينيّة أكل وملابس جديدة.

لم تعاقبني نوّه هذه المرّة وأخال أنّها أيقنت بأنّ شعري الحليق جعلني أبدو أكثر لطفا ومنذ ذلك اليوم أصبحت هي من تقوم بحلقه وتهذيبه ولم يعد أيّ من الأطفال يسخر منّي.

تمضي السّنوات رتيبة وكنّا نقضي بعض أيام الصّيف في تونس ومن ثمّ نتوجّه نحو تستور لبداية موسم الحصاد، كنت أحبّ تستور لأنه يتسنّى لي رؤية أبي واللّعب بحريّة في أرجاء الحقل والتخلّص من متابعة تركيّة لي وينشغل عنّي الجميع للقيام بمهامهم.

كنت أعشق مطاردة ظلّ الأشياء من حولي ،أشعر بأنّ الظّلال هي وسيلة التعبير الوحيدة التي تعتمدها الكائنات لتبوح بالأشياء المكتومة التي لم تكن قادرة على إفشائها والبوح بها علنا.

ظلّ الملابس وهي تطير في الهواء وانعكاسها على الأرض يصوّر لي خيالات عدّة وكأنها ظلال ساحرات في السّماء، ظلّ الأرجوحة وسط الأشجار منعكسة كأنّها زورق يطفو على سطح بحر، ظلّ أوراق الشجر كأنّها موسيقى منبعثة من أعماق جذعها، ظلّ أواني الأكل وقد تسللت بقايا أشعة الشمس المتعبة من قيظ حر صيف شهر تموز فعانقت أكواب الماء وفناجين القهوة وسحبتها هناك بظلالها تنعكس في كامل المطبخ كأنها قرية أقزام خرافية.

كان المكان يجسّد حرّيتي الكاملة ،الحقل وأنا أركض بداخله ،السّنابل وهي تلتهمني لأضيع في تفاصيلها وتمنع عنّي سخريتهم ،ألعب وحيدة بكلّ سعادة وأكتفي بنفسي وطاقتي، أركّز على أعماقي وأنطلق في خيالاتي.

كان عقلي يلتهم كل التّفاصيل وينفتح كفوهة عميقة نحو الشّمس والكون، بدأ عقلي يتوق إلى المعرفة الكاملة ويتساءل عن حقيقة الأشياء من حولي. بدأت أحفظ كلّ الكلمات التركيّة التي تنطقها السيّدة تركيّة.

أسجّل بذاكرتي الكثير، كانت ذاكرتي مثل الجحيم تلتهم نيران المعرفة كل ما يدور من حولي وما يقال في نقاشاتهم التاريخيّة الكثيرة.

مع نهاية الحصاد علمت أنّنا على وشك العودة إلى حلق الواد.

في آخر أسبوع لنا في تستور، تجتمع النّسوة وتعدّ الكسكسي بمختلف أنواع الخضروات، يبدأن بدندنة أغاني تراثيّة وهنّ يقطعن البطاطا والبصل ويحضرن الطّنجرة الضخمة ويضعن الكسكسي في طنجرة أخرى وتقودهن أكثر النّساء خبرة وطاقة وهي خالتي فضّة الأخت الكبرى للحاج يوسف، امرأة دؤوبة على العمل، ثاقبة البصر تمسك بزمام الأمور، ترفع ذراع جبتها إلى الأعلى، جبّة من القطن الناعم ذات لون عنّابي وتجمع شعرها تحت منديل في شكل تقريطة بدوية.

تحرّك يديها بحرفيّة عالية فهي تقوم بأكثر من مهمّة، تحرّك القدر و تقوم بقلي الفلفل وتفقّد الكسكسي، وتقول بهدوء: "كل طعام يجب أن يعدّ على مهل إنّ الطبخ أيضاً يعتبر فنّا من الفنون وعلى معدّه أن يتقنه، لكلّ شيء لمسته وذوقه."، تمسح بذراعها على جبينها ثمّ تحاول تعديل منديلها، كل هذا يحدث منسجما مع أساورها الذهبيّة المتراصّة في يديها مصدرة صوتا كرنين الأجراس.

فضّة، امرأة مكتنزة، مدورة وبيضاء ذات عينين خضراوين عميقتين ووجنتين متورّدتين وأنف أفطس ورديّ.

كانت امرأة عاشقة لبخار طبخها وتتحكّم في كلّ ما يدور هناك بطرفي عينها وتعلم بخبرتها متى ينضج الفلفل فتسحبه خارجا وتغطيه ليحافظ على حرارته وتضع الحمص والتوابل في القدر وتبدأ في تحريك مائة قطعة من اللّحم بحرفيّة ثم تضيف حبّات الحمص.

كانت سيّدة الهنشير بدون منازع، امرأة قمح وشعير تحت إمرتها ما يفوق العشرون امرأة كلهن يأتمرن لها وينفّذن جميع توصياتها بدقة وسرعة وأمّي نوّه تقف بقربها تثرثر، الجميع يثق في نجاعة الأمثال الشعبيّة التي تطلقها أمّي بين الفينة والأخرى، نوّه تؤمن بشيء واحد وهو أنّ أجدادنا عاشوا عمرا أكثر منا لهذا هم أعمق نظرة وحكمة ممّا نحن عليه اليوم، هي تصدّق كل ما يقولون وترى أنّ تجاربهم تنفع كل زمان ومكان.

نحن الأطفال نجتمع حول النّسوة نلعب ونحدث حماقات لا تطاق فتضجرن من صراخنا ويطردننا خارجا نحو الفناء وتتخلصن من ضجيجنا وشجارنا وتقدمن لكلّ منا خبزا في انتظار العشاء.

هناك من بعيد تعبق رائحة مرق الكسكسي ويغرق الهنشير في روائح الأكل اللّذيذة التي تستبيح صبرنا.

مع الغروب تصبح الأراضي الممتدّة كأنّها عروس نائمة، يبدأ الرّجال في نشر الطّاولات والكراسي ويجتمع الكثير منهم أمام مفترق بداية الهنشير ونهاية فناء البيت، جلبة كأنه حفل زفاف.

تتعالى الضِّحْكات والضَّجيج والرَّائحة، كُلُّ شَيْء يَنبَعِث بِوحْشِيَّة نحو حَوَاسنَا ويجْعلنَا يقظين وتنْتَشر المصابيح البيْضاء فِي كُلِّ شِبْر مِن المكَان كأنَّهَا ظِلَال شُمُوع ويبْدأ الرِّجَال فِي تَوزِيع أَطبَاق الأكْل ولَا نَتوقَّف عن اَلبُكاء حَتَّى يُقدِّموا لَنَا أطْباقنَا فَنغُوص فِي تَفاصِيل ذَاكِرة طُفولتنَا اَلشهِية ويَنتَهِي الاحْتفال فِي ساعات مُتَأخرَة مِن اللَّيْل .

تؤكّد لي ذاكرتي أنّي كنت أبلغ السّابعة من العمر، لم أكن طفلة غبية، لكنّ الخيال والمغامرة كانا يدفعانني لاكتشاف كلّ الأشياء الغريبة.

كان القيظ شديدا وَلَكِنِّي كنت أزحف كدودة شقيّة خلف يوسف الذي كان يحثّني أن لا أتوقف أبدا، يلتصق بركبتي بقايا القشّ والحصى وتلفحني الحرارة في رئتي وأشعر بالعطش فأستنجد به قائلة: "أرجوك توقف" ! فينهرني قائلا: لا وقت لدينا إن استيقظت تركية عاقبتنا. "أصمت خوفا من بطشها وأبتلع ريقي وما علق بلساني من تراب وأتابع زحفي نحو القِن لنتفاجأ هناك بعشر دجاجات يحتضن الكثير من البيض.

نقف وننفض ما علق بأجسادنا من أتربة ويركض يوسف نحوها ليحمل واحدة بيديه ويحتضنها بقوة ويمنعها من التحرّك ثم يقول لي: لتجلسي على البيض لعله يتحول إلى ذهب! هذا ما قرأته في الرواية!

الخيال، الكلمات، الحلم جعلني أتمسّك باكتشاف سحر المعجزات فتوجّهت بخطى واثقة نحو البيض وجلست بهدوء فوقه.

مرّت بضع دقائق ونحن نتنفّس بصعوبة ويخنقنا الحرّ ورائحة الدّجاج، حاولنا أن نتفقّد البيض هل تحوّل إلى قطع من الذّهب لكن خاب ظنّنا فالوقت لم يكن كافيا ليتحوّل البيض إلى سبائك ذهبية.

بلغنا صوت تركيّة وهي تنادي يوسف في إلحاح وبحث مستمر، التفت نحوي وقال لي بشيء من الإصرار: "لا تبرحين مكانك حتى يصبح البيض ذهبا".

غادر يوسف خارجا وسمعته يبتعد مع أمه ليتركني لساعات مختنقة داخل قنّ الدجاج.

بدأت أفقد قوّتي واختفت ثقتي في ذلك الطّفل المدلّل الّذي ذهب ولم يعد.

قد أكون بالنسبة له مجرّد خادمة سوداء لا قيمة لها ولكن كنت أعتقد أنّه صديقي الوحيد في ذلك البيت.

أصابني الدّوار وبدأت أفقد وعيي تدريجيا حتى سقطت أرضا.

مع بداية الغروب فتحت عيني لأشاهد ظلال أناس فوق رأسي وما أن بلغني صوت أبي حتّى حبست أنفاسي وغبت عن الوعي لأستفيق بعد يومين وبقلبي حذر نحو حقيقة صداقتي بيوسف الّذي تركني أموت ولم يأبه لخوفي ووحدتي.

تستور كانت مورد رزقنا جميعا، تجود بقمحها وشعيرها، تمنحنا زيت الزّيتون، تتفانى في إسعادنا، تجعلنا أسيادا بمدينة تونس.

تستور منذ طفولتي مثّلت لي الأرض، تدور سعادتي حول حقولها وتنمو مخيّلتي في رحاب فضائها. كنّا في الصّيف نقضي حوالي شهرين لنحصد سنابلنا، نجهّز مؤونتنا ونشارك أخبارنا مع أناس بسطاء يشبهوننا.

كان الحاج يوسف متزوّجا من لالّة يامنة، امرأة هادئة وبسيطة لدرجة البلاهة، أنجبت للحاجّ بنتين ثمّ لم تنجب بعدها أبدا.

كانت أكبر بناته تشبه أمّها كثيرا في بساطتها وطيبتها، فلا تسمع لها صوتا غير همهمات تنمّ عن موافقتها لأيّ أمر يطلب منها بكلّ إذعان وانصياع رهيبين، كانت خجولة جدّا وكان اسمها بيّة، أمّا الصّغرى فكانت مختلفة، تشبه أباها لحدّ كبير، كان ما يربطهما هو الغطرسة والتكبّر.

اسمها نورة المتجبرة!

يوسف هو آخر أبناء الحاجّ، أنجبه من زوجته تركيّة، كان صبيا مدلّلا، شارد النّظرات، يحملق بي أغلب الوقت، أشعر أحيانا أنه أبله، كنت أقاسمه لعبه في طفولتنا وعندما كبرنا أصبحت أقاسمه دروسه وتفوّقت عليه كثيرا.

كان يطلب منّي بأن أقوم بكلّ واجباته الدّراسية بدلا عنه.

يوسف صبيّ أشقر، جميل، لطيف بيد أن هدوءه وسكون عينيه يشعرانني بعدم الرّاحة، كان رفيقي لسنوات وكنت أعرف الكثير عن تفاصيله ولا يتعدّى كونه فَتًى مُرتبكًا، ضعيفًا وَمَهْزُوزًا أمام بطش أبيه وسيطرة أمه ومع بداية مراهقتي تعلّمت أن يكون يوسف مصدرا أساسيا لكتبي.

كنت أسرق بعض كتبه أو يقرضني البعض منها وأنغمس في قراءتها لسنوات، كان يوسف بالنسبة لي تلك البوّابة التي أقفز من خلالها نحو العالم الّذي أريد أن أعيشه في خيالاتي وكنت أثق في كتمانه لسرّنا فلو علمت تركية بأنّي عبقريّة لأخذتني نحو تستور لتجعل مني خادمة للالّة يامنة.

يوسف كان سجّاني وتعلمت منذ طفولتي كيف أجعل من سجّاني خادما لرغباتي. كان فتى أبله ولكنه كان يحبّني ويشفق عليّ كثيرا وهذا ما جعلني أكون لئيمة معه واستغل غباءه لأحلم.

كان صعبا أن تمتلك امرأة تقرأ، أن تهزم أو تحطم طفلة تعلّمت أن تتجاوز مقتها لجسدها نحو تعزيز ثقتها بنفسها وبداية بناء شخصيتها وحلمها بنيل حرّيتها الكاملة هو هدفها في هذه الحياة.

خادمة في دار منامة لم يكن قدر سأختاره طواعيّة هم من افتعلوا ذلك في أقدارنا وخلقوا الطبقيّة وقسموا الأعراق وصاغوا القوانين وتقاسموا شقاءنا وبدؤوا يشيّدون ثرواتهم على حساب أمانينا.

كنت لعنة تكبر بدار منامة، ألتهم الكتب، أكبر، أنضج، أعلم أنّي أذكى منهم جميعا وسأجد خلاصي بطريقة ما. امرأة مثقّفة لا تهزم البتة فنور عقلها يضيء وجهها وكبرياؤها متأتّ من كمية معرفتها.

في المقابل وجه نوّه الخالي من التعابير وحزن محيّاها الرّهيب كان يرمي بظلاله على روحي ويدفعني للانزواء وحيدة في عالمي أكثر صمتا وأقل كلاما أو مشاركة، كنت أنفّذ أوامرها حتى أتجنّب تأفّفها الدائم وأتفادى أن نتواجد تحت سقف واحد، بي رغبة

شديدة ألاّ أراها، أكره تعابير الانكسار والضعف بخطوط شقائها، تبدو لي وكأنّها في سجن طويل وكأنّها مجبرة على العيش، لم أشعر أبدا وأنا أتفحّصها أنها راضية بحياتها أو ممتنة لتركيّة فهي تعلم أنّه لا شيء يستحق أن نعيش من أجله غير أركان القصر وذلك العشاء الفاخر الّذي نحظى ببقاياه بعد أن يوزّع ليلته تلك على أهل الدار.

كانت أمّي تتجرد من أيامها وتنكفئ ببؤس في مطبخها الشبيه بقرية مقفرة تعوي كلابها في عتمة اللّيل المخيف.

كنّا نعيش شبه مستعبدين في ذلك القصر ومنحنين خوفا إن رفعنا صوتنا يوما ما بالرّفض طردنا حيث البادية وحيث لا شيء فعليا لدينا أو نملكه.

بلغت الثّامنة، بدأت أفهم الكثير من الحقائق ويتجلّى أمامي واقعي واضحا وبدا لي بأنّ حياة مريرة وشاقّة تنتظرني، أتذكّر أوامر تركية التّي لا تنتهي ومبالغتها في إذلالي، كانت كثيرة التذمّر والشّكوى، تجلس في غرفتها لساعات، تقضي معظم الوقت أمام مرآتها، وتفتح صندوقا مليئا بالخواتم الذهبيّة وحلقات الأذن، تضع منهم الكثير في أصابعها، وبعدها تبدأ في استعراضهم أمامنا، فمع كلّ كلمة تشيح بيدها آمرة وتشير لما تريده بكامل كفّها، تقضي دقائق وهي تصف الأمر بحركات استعراضيّة بيديها، كنت أتيه في لمعان الخواتم وجمالها، كان بعضها منقوش ورود وثعابين، وبعضها يحتوي على فصوص ملوّنة تزينها بعض الأحجار الكريمة، الشفّافة والبرّاقة وقد تمّ قصّ الفصّ في شكل أسطوانيّ أو دائريّ بأحجام متوسّطة وصغيرة، كانت تمتلك خواتم تسحر العقل وتعبث بحاجتنا وفقرنا، ويظّل أحدهم عالقا بمخيّلتي، كان خاتما أزرق من العقيق الطبيعيّ النّادر، وكلمة نادر أوحت لي بأنّها تمتلك شيئا سحريّا وغير موجود أبدا على هذه الأرض، كنت أرغب أن أمتلك واحدا مثله، أضعه في سبّابتي حتّى يتوسّط كامل كفّي وما أن أرفع يدي آمرة تركيّة بأن تكفّ عن إزعاجي فيشعّ بقوّة ويلمع في سماء الغرفة البائسة.

تغادر تركيّة البيت برفقة أمّي لزيارة إحدى الأعراس القريبة، بقيت بمفردي في البيت، أعبث بأغراض غرفتها مثلما أفعل في كلّ المرّات التّي ترحل بها، غرفتها مخبأ لكل نادر وثمين من الملابس، الأقمشة والحليّ.

صادفت على الطّاولة خاتمها الأزرق منسيّا بين أغراضها المبعثرة بفوضى، رفعته بين أصابعي وتركته ينزلق في جمال ليجد مكانه في سبّابتي ورفعت يدي فوق، كان لونه يشقّ قلبي لقطعتين، اغرورقت عيني بالدّموع، هناك أشياء رائعة في هذه الحياة ليس بقدرة الخدم الحصول عليها أو امتلاكها.

كان الخاتم أكبر منّي، نزعته وأخفيته بين كفي وذهبت نحو أصيص الورود خارجا ودفنته تحت التّراب متمنّية أن تنبت وردة تحمل بين بتلاتها خاتما من العقيق الأزرق يناسب سبابتي الصّغيرة، فالفقراء يزرعون أحلامهم ويرفعون أيديهم بالصّلاة لعلّ ما رغبوا فيه ينمو كحبّات توت أو أشجار ياسمين.

لم أكن أعتقد أنّ ما أقدمت عليه يسمّى سرقة ولكن كنت واثقة بأنّني أنتظر أن تنصفني السّماء وتنمو رغباتي من بين أصص الورود فالله سيحقّق أحلام الفقراء من الأطفال دائما.

قطع خلوتي وأحلامي صوت يوسف وهو يتساءل باستغراب: لما تصلّين أمام أصيص الورود؟

قفزت مرتعبة وبدا عليّ الارتباك جليّا، تراجعت عشر خطوات للوراء مبتعدة عنه واختفيت دون أيّ تبريرات محتملة لصلاتي بين بتلات الورود.

إثر مرور يومين، لاحظت تركيّة اختفاء خاتمها النّفيس، وساهمت موجة غضبها وصراخها في إرباك سلام القصر، تمّ تفتيش كل شبر من البيت، جميع الغرف، أغراضنا، كان الحّاج يهدّد بالتنكيل بالسّارق، ثمّ يؤكد على تركيّة بأنها ربّما أضاعته في حفلة الزّفاف التّي ذهبت إليها، فتنفي بكلّ حدّة أنّها لم تلبسه أبدا وأنّه هديّة قيّمة من جدّتها وإن لم تجده ستغادر تونس، كنّا في حيرة رهيبة، بدا وكأنّ الخاتم تبخّر، سألني

الحاجّ مرارا: هل صادفته يا نجمة وأخذته لتلعب به! فأنظر نحوه بكلّ شجاعة وسذاجة وأجيبه بثقة لا نظير لها: أبدا سيّدي! ثمّ يقترب من يوسف ويعيد عليه نفس السّؤال ولكن لا أحد منّا حقا يعلم أين تبخّر ذلك الخاتم.

نمضي ما بعد الظّهيرة واجمين وبكاء تركيّة يهزّ سلام القصر وسكونه.

اختفت في غرفتها برفقة أمّي يحاولان يائستين أن يجدا خاتم العقيق الأزرق، وانشغلت أنا في الزّاوية ألهو وأترقّب نموّ الورود وبداخلها خاتمي الجديد، وهكذا سأعيد لتركيّة خاتمها الأصليّ وننتهي من نحيبها المستمرّ.

لم أكن أبالي بما يحدث حقا ومع حلول المساء رأيت الجميع مبتسمين وهادئين وسئلت أمّي عن سبب هذه السّعادة الفجائية فقالت لي: لقد وجدنا الخاتم بين شقي الطّاولة والمرآة، كان مندسا هناك ولم نره بسهولة حتى وجده يوسف وأعاده لها.

الأطفال يا نجمة يحظون دائما بصحّة جيّدة وبصرهم أقوى منّا.

رمقت يوسف بحقد وأردت أن أركله بقوّة وأهشّم أسنانه لأتخلّص من ابتسامته البلهاء. عدت لغرفتي باكية.

بعد مرور عدّة أسابيع فاجأني يوسف بهديّة صغيرة كانت عبارة عن خاتم من الفضّة به زخارف شبيهة بنجمة صغيرة وقال لي: يوما ما ستحظين بما هو أجمل من هذا وسيكون ملكك، الأحلام لا تتحقّق بالصّلوات فقط يا نجمة، بعض الأحلام تحتاج منّا أن نعمل جاهدين لننالها أو نسعى لها بشدة لعلّ القدر يمنحها لنا بحجم رغبتنا بها، لا تحزني فيوسف معك.

تناسيت مع السنوات أن أحلم وبدأت أعيش واقعي وتأقلمت مع ما فرض عليّ قسرا لخدمتهم والعمل على راحة يوسف.

كنت منذ طفولتي أكتشف العالم على حقيقته وأرى حجم الظّلم الّذي يرسمونه لنا، من أبشع أنواع العبوديّة أن يقرّروا عنك ما يجب أن تقرّره أنت وتختاره لحياتك حقا.

أشدّ أنواع التّعذيب النّفسي أن لا يسألك أحدهم هل أنت بخير؟ ويعاملونك على أنّك شيء، وتنفّذ طلباتهم دون أيّ اعتراض، ويوما ما سأثأر لكلّ هذا الألم والقهر.

في الثانية عشر هدأت وتصالحت مع نفسي، حاولت أن أتقبّل لوني وشكلي، ترسّخت في رأسي فكرة الملاك المنقذ، أيقنت بأنّ الله ينتقم لكلّ الألم الّذي يسببونه في قلبي، هم لا ينظرون لروحي، لا يعرفون المدن التي أشيّدها في خيالي، لا يصدّقون عدد النّاس الّذين أصادفهم في سفري، لا يعلم أحد أنّي أتحدث مع الحيوانات وأصبح لديّ جناحان أطير بهما بين الحقول والأشجار وأحيانا كثيرة أسافر ببساط سحري نحو مصر أو الهند.

كان العالم تنخره الحروب وأنا كنت قد خلقت لنفسي حياة موازية في هذه الأرض.

بدأ إيماني يتّخذ منحى واضحا في عقلي، كنت أتعرّض للازدراء والكره من قبل معلّم يوسف السيّد جيوفاني.

كان عجوز إِيطَالِيّ شرس، يتعمّد إذلالي، يدفعني أرضا وفي بضع اللّحظات الثّائرة ينعتني بـ"السوداء".

هذا الكره خلّف الحقد والقسوة بقلبي وتركني أدعو الله أن يريحني منه.

كان ذلك العجوز هو سبب كَرَاهِيَتِي للجميع، تعزّزت ثقتي بنفسي وأصبح العالم يدور حول وجودي. أحببت نفسي بطريقة نرجسيّة.

كان الشّخص الوحيد الذي أحبّني بصدق هو أنا وبكلّ تقدير وامتنان لكلّ ما وهبه لي الله من فطنة وعلم لأضمّد نزيف الجرح الغائر بكرامتي، دأبت على النظر لنفسي في المرآة كلّ ليلة مردّدة آلاف المرّات:

أنت فتاة رائعة! جمالك هو كل الطّاقة الكامنة بداخلك. لن يكسرك بشر إن أحببت نفسك. لم أنتظر كثيرا، كل شيء ينبع من داخلك بصدق يتحقق في الكون.

مات العجوز بسكتة قلبيّة، تخلّصت منه وأيقنت أنّ الله يحب السود كثيرا.

إن الله يحبني، يزيح من حياتي كل أولئك المشكّكين في كوني بشرا، أولئك الّذين سخروا منّي وأوهموا عقلي بأنّي خادمة لا غير.

كان بدار منامة مكتبة قيّمة، موصدة في وجوه الجميع، يمنع أيّا كان من أن يدخلها أو يُنَظِّفهَا غير تركيّة وتلك كانت أوامر الحاجّ الصارمة.

كنّا أنا ويوسف، نجد الفرصة لندخل متخفيين ونتفحّص المخطوطات القيّمة وكتب الدّين المختلفة وتقع أيدينا على كتاب الإنجيل وكتب الحروب الّتي قادها المسيحيّون خلال سنوات كثيرة.

كان ممتعا أن نعلم أنّ في هذه الأرض ما يستحقّ حقا المعرفة، أن تقرأ حياة أولئك الّذين رحلوا كان بمثابة إحياء لرفاتهم وتخليد لذكراهم عبر الزّمن.

هم رحلوا لكنّ وجعهم باق ببقاء الإنسانيّة.

ما آمنوا به لسنوات خلفوه وراءهم ورحلوا حيث الحقيقة الّتي لا يعلمها أحد إن كان الله موجودا أم لا.

كانت تلك رحلتهم الأخيرة ليعرفوا أيّ الفرص أضاعوا بعيدا عنه.

لا تكترث الحرب لنا، لا يسألنا زعماؤها أنحن بخير، هل تأذينا حقا وتغيّرنا في أعماقنا، الحرب تبعث فينا الخوف والانصياع.

أنا أعيش آخر سنواتها في تونس ومع بوادر نهايتها رأيت أنّها سخيفة وأسباب اندلاعها لا تعمل لصالحنا كأبناء هذا الوطن.

لم تغيّر فينا شيئا ولكن كلّ ما استوعبته أنّ مجموعة من الدّول يحكمها الكثير من المهووسين يؤمنون بأنّهم وحدهم القادرون على قيادة العالم والتحكّم بمصير الشعوب وتغيير خارطة البلدان وإخبارنا بما نفعل وبما ليس موجبا علينا فعله.

الحرب نوع من العبوديّة العظيمة الّتي يهيأ لنا في مرحلة ما أنّ المستعمر أذكى منا وأعلم منّا بأمور دولتنا.

فكرة أنّ الجميع على خطأ وأن المنقذ أو السيّد الوحيد الأحقّ بمصالحنا هو الوحيد على حقّ وما عدا ذلك فهو ضرب من الهمجيّة البربريّة.

مصيرنا مقرّر من أسيادنا، اللّون الأسود لخدمة البيض، جميع السود أقلّ ثراء وتقدّما.

الأسود مقرّر مصيره منذ عصور، في أيّ كتاب تاريخيّ تقرؤه تجد أنّنا كنا عبيدا، من النادر أن تجد رجل أسود حكم الأوطان أو غزا إنكلترا أو حارب على رأس جيش عتيد.

مصيرنا تقرّر من بعض البشر مثلنا، هم من قرّروا مكاننا في أيّ وضع يجب أن نحيا، ثمّ يأتي الاستعمار نحو بلدان ويتمّ إقناعهم أنّ سيادتهم عرجاء وأنّهم لن يعرفوا كيف يقرّرون مصيرهم وأنّهم عاجزون على التحكّم في ثرواتهم.

العنصريّة والحرب وجهان متشابهان وهذا ما جعل الحاجّ يوسف يقرّر مصيري ومصير أبنائي لكوني لا أصلح لشيء إلّا لخدمتهم ولكن لم يعتقد أبدا أن العلم حفر خندقا عميقا في ظلمات رأسي وظلمات الجهل المحيطة بي ودفع بصيرتي نحو رؤية الحقيقة.

كانت تركيّة تباغتنا أحيانا هناك فأختفي تحت الستائر الطويلة المنسدلة سريعا وأظل أستمع لها وهي توبّخ يوسف في رقّة وهدوء: "قرة عيني، لا يجب أن تعبث بأغراض والدك، عيب! عيب يا حبيبي!"

ثم يغادران لأتنفّس الصّعداء وما إن يختفي صوتهما من الممرّ، أتخفّى كشبح إلى أن فاجأنا ذات يوم الحاجّ ومع أزيز الباب انزلقت كعادتي بخفّة خلف الستائر وتواريت هناك أكتم أنفاسي، عمّ الهدوء لدقائق بعدها سمعت الحاجّ يجلس خلف مكتبه، يفتح درجا ما بمفتاح ويخرج شيئا بدا لي كأنّه صندوق، وضعه بهدوء على الطاولة ثم نفخ عليه ليزيل ما علّق به من غبار وقال: "اجلس يا بني!"، أخرج منه صورة قديمة بدت وكأنّها رسمت ببعض الفحم أراها ليوسف وسأله في تفرّس:" أتعرف من هذه؟"

أجاب يوسف: "كلاّ!"

تابع الحاجّ: "إنّها سلطانة، إنّها أم جدّي، تزوجت رجلا من أثرياء تستور، ورثت عنه كل أملاكه، بعد أن تخلّصت من أبنائه جميعا!"

تمتم يوسف: "كيف تخلصت منهم؟"

زفّر الحاج بوجع وقال: قتلتهم جميعا بمساعدة خادمها الأسود، تناقلوا عنها الكثير من الأخبار خاصّة سوء طبعها لكنّ جمالها كان سببا في أن لا يشكّ بها أيّ أحد، لقد كانت امرأة معتوهة ولكنها ملكت أراضي تستور بقبضة من نار، ملكت الكثير من العبيد. هذه الأرض عاش عليها المئات منهم، تمّ شراؤهم من سوق العبيد بتونس، وهم من أصول إفريقيّة، لقد جاؤوا إلى تونس مرورا بليبيا والجزائر.

جدّتك كانت عنيفة إلا مع عبيدها، إنّها تحبّهم جدّا وترأف بهم، وهم أيضا مستعدون للتضحية بحياتهم من أجلها ومع قدوم أحمد باي وسنّه لقانون منع العبوديّة بتونس، كادت تجنّ، لم تكن قادرة على التخلّي عن غطرستها وقوتها، لقد كانت تشعر أنّهم جزء من جبروتها وهيبتها.

كان عبيدها يمثّلون مملكتها، جاءت قرارات الباي سنة 1848 صارمة لتجعل لقوّتها حدّا وأجبرت أن تعتقهم غصبا عنها وظلّ بعضهم في خدمتها.

رفض أغلبهم تركها، كانت هي وأرضها كلّ ما يملكون، منحتهم لقب عتيق يوسف، لقب أينما ذهبوا عرفوا أنّهم كانوا ينتمون لها، لقلبها، لعائلتها.

بقي في خدمتنا بعد موتها القليل منهم، وبعد مرور مائة عام لم يبق منهم غير تيجاني ونوّه.

يوسف هؤلاء كانوا عبيدنا، كنا نملكهم، لا يجب أن تصادقهم أو ترأف بهم، أنت سيّد يا يوسف، يجب أن تكون قويّا وحاسما، يجب أن تكون لك قبضة الملوك حتّى تستمر في سخطك وجبروتك.

كنت أستمع له وقلبي يخفق، أكتم شهقتي بكفي وتنساب دموعي.

كان يوسف يسأله بفضول: "لكن سلطانة كانت تحبّهم ولم يتجرّأ أحد على خيانتها.

ضرب الحاجّ بكفيه على الطاولة وقال بقسوة: سلطانة خانتنا جميعا، لقد كان لها عشيق من بين العبيد، لقد أحبّته وأورثتنا عارها.

يوسف هؤلاء السود لا قلب لهم، لا شرف لهم، لا عقل لهم، هذا قدرهم، وتعلّم أن تكون ملكا على عروش تستور، هم خدمنا وسيظلّون كذلك حتى وإن أعتقتهم كلّ دول الأرض.

جمع الحاجّ كلّ الأوراق وأعاد الصّندوق إلى مخبئة وغادر.

قفزت خارجا، رمقت يوسف بازدراء وقلت له لست عبدا لأحد، يوما ما سأتخلّص من لقب عتيق يوسف!

كنت أخفي الدّموع بصعوبة، وتفضحني الكلمات المرتعشة، وعيني يوسف بائستين، حاول أن يخفّف عنّي لكن مقتي لهم جميعا مسح عن قلبي أي منطق أو رحمة، على هذه الأرض لا توجد أي مساواة حقيقيّة بين لونين أو جنسين أو عرقين.

أنا عشت سنوات أمقت لون جسدي الأسود، أكره أن أكون وصيفة وأعتقد أنها عقوبة إلهيّة لأحد أبناء آدم بأن أنجب أطفالا سودا.

هذه أنا بكلّ بساطة مراهقة في الثانية عشرة، أمقت حقيقتي وبشرتي لكن مع بلوغي حدثت تغيرات كثيرة في جسدي، بدا وكأني أنضج، لاحظت تغيرا واضحا في الكثير من المناطق من جسدي، أصبح لديّ خصر فاتن ومؤخرة مزهوّة ومختالة نحو الأعلى، وجهي مشرقا، عيوني استفاقت من تعبها، كنت أتحوّل إلى كائن رائع، شيء لذيذ كلون الحنطة أَو التّين الأسود، نهداي يشتدّان ويقفان في منتصف صدري كنمرين قويين يحرسان بوابة قلعة، نهدان بارزان يدفعان بالتفاصيل نحو الكمال، ذِرَاعَيَّ المرتخيين يصبحان قويين، بت أشبه نخلة باسقة في ربوع صحراء بابل.

لقد أصبحت فاتنة!

تفحّصت تركيّة فوجدتها شقراء جميلة ولكن تنقصها الرّوح الّتي تجعلها تتّقد، كنت أراها من قبل جميلة ولكن اليوم بعدما اختبرت انفجار الجسد أيقنت أنّها امرأة بيضاء عادية تفتقد لرائحة السحر وهذا السحر الرّهيب بدأت تفاصيله تتجلّى في وجهي وجسدي.

إنّ الأنوثة والجمال لا علاقة لهما باللّون أو العرق.

بدأت أكبر وأصبحت فاتنة وكنت أعي أن عيون يوسف تراقبني وأن تركيّة تخافني وهي على وشك التّصريح بأن ابنها يعشق خادمتها.

لم أكن أبالي بهما، كنت أريد أن أغادر دار منامه وأتحرّر منها وأحقّق ما أرنو إليه، أريد أن أعيش حياتي الأخرى التي تنمو كل ليلة في أحلامي.

مع بلوغي سنّ السادسة عشرة، ولجت عالم النّساء، قصصهم، اهتماماتهم.

هناك فرق كبير بين أن تقرأ عن الأنوثة وأن تعيشها في جسدك وروحك، تحوّلت إلى امرأة، إنّه شيء مثل السحر يعبث برغباتي ويدفعني للتجمّل.

أراقب تركيّة وهي تضع الكحل وتستعمل قلم حمرة بغطاء أخضر كان له ذات اللون ولكنّه يتحوّل بقدرة ساحر إلى لون ورديّ ما إن يلامس شفتيها، وتضع بودرة حمراء على وجنتيها، ولا تنسى عطرها الّذي جلبه له والدها من تركيا، كانت أغراضها توحي بأنها امرأة ثريّة وغرفتها تنم عن إغداق الحاجّ عليها بالملابس المستوردة أو ملابس الحرير الكثيرة.

كنت أتوق أن أمتلك القليل مما لديها، تشدّني الأشياء الجميلة، عيني تعبد الألوان وَتُصِيبُنِي بِالِارْتِبَاكِ.

كنت في أوقات زيارة تركيّة لصديقاتها، أفتح خزانة ملابسها، أندسّ بشراهة داخلها، أعبث بأغراضها في فضول، أرتدي حريرها، أجرّب أغراض نومها، إلى أن باغتني يوسف في أحد الأيّام وأنا في لباس نوم أسود شفاف، مزّق الصمت خجلي، كنت أَتَعَرَّق وأرتجف، خفت أن يشي بي لأمه فأنال عقابا شديدا.

كنت أسبح في ذلك الفستان الفاضح الذي يبرز ملامح جسدي بوضوح، برز نهداي من وراء الدانتيل الباريسي الشفاف ليستقرّا بين نظرات يوسف المشدوهة، خيّم السّكون، سمعت أنفاسه تتعالى، أربكني صوت خفقان قلبه، اقترب منّي، وضع أنفه على رقبتي، سحب نفسا عميقا ثمّ غادر.

كاد يغمى عليّ من الخوف والخجل، نزعت ملابس السيّدة واختفيت في غرفتي وتجنّبت عند مغادرتي رؤية يوسف في الردهة.

مع حلول الصّيف بدأنا نجهّز أنفسنا للسفر نحو تستور، جمعت تركية أغراضها بمساعدة أمّي فألقت الملابس القديمة المهترئة واحتفظت بالبقيّة.

مع نهاية الغروب ذهبت لأتخلّص من الأشياء القديمة في كيس أسود كبير وبينما كنت أعبث بالأغراض عثرت على قلم الحمرة الأخضر، كانت رغبتي به شديدة وشعرت أنّه هو من وجدني من بين الأشياء الملقاة، فتحته بحذر وتفحّصته من الدّاخل فوجدت نصفه موجودا، حشرته داخل حمّالة صدري وتابعت إلقاء الأغراض خارجا.

عدت إلى غرفتي، أخرجت مرآتي الصغيرة وضعت الحمرة على شَفَتَيَّ فمنحتني لونا ورديّا، راقني الأمر جدا واختبرت معنى أن أكون أنثى وأصبح قادرة على الاحتفاء بجسدي بأن أهبه لمسات من الجمال، كم هو ممتع أن نكبر، لم أعد طفلة هشّة وأنا جدّ سعيدة بجسدي فقد منحنى ثقة بأنّي رائعة.

رحلنا إلى تستور مصدر سعادتي، السفر إليها يعني أن أجري بين حقولها، أتخفّى وسط بساتينها، أتوه عن نوّة فلا أسمع أوامرها ،تضيع التفاصيل اليوميّة في أراضيها الشّاسعة.

لكن ذلك الصّيف كان مختلفا، كان موعدي مع القدر، فقد جلب الحاجّ يوسف عامل حصاد جديد اسمه إسماعيل، كان أسمر البشرة، طويلا، قويّ البنية، ثاقب النظرات، ما إن رمقني أمشي منتشية بين السنابل حتى بدأ بمتابعتي من بعيد والتدقيق في تفاصيلي.

أضحيت أراه في كل مكان أتواجد فيه، كنت أريد أن أهرب قليلا وأنفرد بنفسي لكن وجدته يتبعني كظلّي أينما ذهبت.

بدا وكأنه متيّم بي، أعلم أن هذا الفارس يبحث عنّي في أراضي تستور.

لم أنتظر كثيرا حتى سمعت أبي يسألني يومها: "إسماعيل يخطبك فهل أنت موافقة؟ أتمنى ذلك لتعيشي بقربي بعد هذه السنوات التي قضيتها في تونس بعيدا عني لكن بالنهاية الأمر يعود لك".

كانت أمّي تستمع لكلام أبي بانتباه فقالت بثقة: "كلّ عرف يميل لشجرته، إسماعيل رجل يشبهنا كثيرا و أجده مناسبا لنجمة".

هكذا تربّيني نوه بقوّة الأمثال الشعبيّة وفكر أجدادنا، هي تزرع في عقلي ما تريد فعلا أن أكون عليه، وأظلّ أستغرب من قوة تأثيرها عليّ وأنا التي ظننت أنّ مطالعتي

للكتب ستجعلني أكثر ثقافة وحرية لكن سريعا ما تبخّر وهم الكتب وأصبحت أمثالها أكثر تأثيرا على إرادتي.

كنت شبه واثقة من حقيقة أن أتزوّج رجلا يشبهني في لوني ويكون من أحفاد عرق نجوم، وهي ذات النّجمة السوداء التي أنجبتنا جميعا، كان ولاؤنا لعرقنا عظيما وكنت أعلم أنّ نهايتي يجب أن تكون مع رجل مثل إسماعيل، يشبه شقاؤه وجه أبي، يعمل بذراعيه، يهزّ الجبال ،يذيب الصخور، يضرب عمق الأرض ليبلغ مخازن الماء، رجلا حقيقيّا مصدر رزقه تعبه وحصاده.

وجهه كادح ومحترق من تعب يومه، عيونه خافتة وباهتة قد أحرقت الشمس توهّجها ونضجت تجاعيد جبينه وهو يصارع للبقاء حيّا ،ليستمر يجب أن يلتهم نفسه مثل الجزء الصلب من الشمعة حتى يضيء دربه ويأكل رزقا حلالا.

قررت أن أتزوج إسماعيل وانتهي من إزعاج تركية لي فهي ونوّه تخافان اقترابي من يوسف.

كان من الرائع أنّي صادفت يوسف في دروب حياتي وأنا ممتنة للقدر الذي جمعني به رغم أنّنا مختلفان، هناك هوّة سحيقة بيننا بسببها ربّما سيموت الحبّ ويتبدد الاحترام، كانت نظراته تهبني ثقة كبيرة في نفسي.

رحت أتساءل هل أنّ ثقافته وعلمه وكتبه كفيلة بأن تطعمه و تبقيه على قيد الحياة؟

لو رمينا جميعا في صحراء أو مكان مقفر لنجوت أنا وإسماعيل ومات هو من شدّة العطش والجوع.

الحقيقة جليّة، يوسف ابن القصر يأكل من عرقنا ويرتاح من شقائنا في الحر والبرد، هو مرتاح لأننا هنا نخدمه مثل ثيران حرث لا تهدأ!

بين يوسف وإسماعيل؟

أكيد إسماعيل!

ليس صوت العقل من يوجّهني لكنّها الحقيقة.

أنا لم أكن أهتم لكليهما، يوسف كان بالنسبة لي ذلك الثريّ الأبله أما إسماعيل فكان مجرّد عامل يحمل خلاصه وحرّيتي بين يديه.

سيصبح لي بيتي الخاص، سأخدم نفسي، لست مطالبة بخدمة أي أحد، وأيضا قد أدعوه للرّحيل لنجدد تاريخنا بعيدا عن أولئك الذين كتبوه غصبا عنّا.

وافقت على الزواج من إسماعيل وسيكون الحفل مباشرة بعد موسم الحصاد، ومع نهايته بدأنا نتجهّز للاحتفال.

كان إسماعيل فارسا شجاعا، يمتطي جواده بكل قوّته ويقفز بحركات بهلوانيّة من على صهوته.

يوم الاحتفال نجتمع في حلقات كبيرة، نعدّ العشاء، نجتمع حول الفرسان والبنادق تشيّد السماء بطلقات الانتصار وكنّا نتجمهر حول الفرسان وهم يؤدّون حركاتهم الخطرة بكل شجاعة .

كان حصان إسماعيل أشدهم بأسا وقوّة، يندفع كسيل عارم، يقفز عاليا كأنّه يطير به سعادة، الغبار خلفهما وكأنّه فارس في أعتى الحروب ضراوة، "عجاج" ينفض الأرض ويفترس المكان راكضا في كل اتّجاه.

كان يتحرك مثل سهم يشقّ الهنشير بسرعة، نظل واقفين ومشدوهين بجمال المنظر، تتعالى الزغاريد والأغاني وإذ بإسماعيل يطير عاليا نحو أبعد نجم في مدار الأرض ويسقط على الأرض وتلتوي رقبته ويستمر "عجاج" في اَلرَّكْض بعيدا جدا حتى اختفى بين السنابل وغاب عن أنظارنا.

يهبّ الجميع نحو إسماعيل ويخيّم صمت الموت على المكان، يهدأ الغبار تنقبض الأرض تتوقف النسوة عن التهليل ونرتقب جميعنا في وجوم خَبَرٍ يُطَمْئِنُنَا عَلَيْهِ.

وقفت هناك مشدوهة ،هادئة قلبي يعتصر بقوّة وجف حلقي، شَيْئًا رَهِيبًا أخبرني أنه لم يعد هنا بيننا، توقّف يوسف بين الرّجال فحص إسماعيل، قطب حاجبيه، وضع كفيه على رأسه بحزن وأخبر الجميع أنّه مات جراء تهشّم رقبته، اندفع الرجال يبكون وينتحبون والنّسوة يصرخن من الفاجعة ويقلن: "العين حق فقد فلقت الصخر !" وهيمن الحزن على الهنشير.

بقيت هادئة فقد صدمني خبر موته وهو شابّ قويّ، ساحر وفارس رائع. آلمني موته فقد تمنيت أن يكون زوجي بصلابته وشجاعته.

أحزنني ما حدث له لكني لم أبك، غمرني هدوء رهيب، بقيت عيني معلّقة بيوسف المرتبك، رأيته يرتجف خوفا، هذا الفتى الساذج يخيفه الموت، هكذا هم معظم الأثرياء يخافون من الموت دهسا تحت أقدام خيولهم التي ربّوها لسنوات.

لم أقرأ عن ثريّ واحد قاد حربا ضد مستعمر، إنّهم جبناء وهذا ما عليه يوسف في الحقيقة، رمقته بازدراء وغادرت المكان في اتجاه البيت لأتجاوز خسارتي في ضياع فرصة كادت تكون السّبيل لحريّتي.

أنا لا أكره إسماعيل!

أيضا لم أحبه يوما!

كان حبّي لنجمة قد اعماني على حبّ الرّجال، القسوة خلّفت في قلبي جحودا تجاه الجميع، صدقني لقد تألّمت جدا في هذه الحياة.

السوداء لا قلب لها ولكن سيعشقها الكثيرين!

أمر يوسف الرجال بحمل إسماعيل وطلب منّا مغادرة المكان. بدأت النسوة بالانسحاب وظلّ الرّجال صفّين يحاولون حمل إسماعيل فلم يقدروا وانتظروا إلى أن جاء أحدهم بعربة يجرها بغل عجوز ليضعوا جثّته هناك ويتبعوا العربة في بطئ وامتعاض.

كنت أراقب هدوء مضمار السّباق وانخفاض كومة التّراب اَلْمُتَكَتِّلَة في السماء وكان ذلك نهاية وقت العصر حيث انطلق خيط الشفق الأحمر منسحبا تحت خط الأفق في جهة الغرب للهنشير، شردت عيني وشلّت قدماي لم أعد أقوى على الحركة، وبقيت بمفردي أنازع مشاعري التي لم أفهمها، لقد آلمني موته جدا لكن لم تتفتت أحشائي من هول الصدمة أو يتسبّب رحيله في انفقاع مرّارتي بوحشيّة.

شعرت بالأسى من أجله، كان موته محزنا حقّا، إلا أنّ نجمة ما زلت تحاول أن تتحرّر من لقب عتيق، لو كان الأمر بيدي لعشت دون أيّ لقب، أريد أن أنتمي للحياة ولنفسي.

نجمة ابنة الحياة!

نجمة ابنة الأرض!

وإن لم يحالفني الحظّ فكيف الهروب من دار منامه.

لا أحتاج لرجل في حياتي، لو عاد الأمر لي لما تزوجت.

عبثا أحاول أن أصبح مثل نوّة في حكمتها وتقيدها بالعرف لكن عقلي لا يقبل.

أريد أن أجد نفسي..

أن أقابل نصفي الضائع..

أن أهدأ في حضني..

أهتم بي..

أحبني..

أفهمني..

ينتظرني الكثير حتّى أنظّم كل الفوضى بداخلي.

نحن نحتاج إلى رجل لنحب ونؤسّس عائلة لكنّي أجد نفسي تائهة فكيف لي أن أكوّن أسرة معها سأورث أطفالي حيرتي وخوفي.

ليست لديّ مشاعر!

لا أشعر بالحبّ تجاه أي أحد، لا حاجة لي برجل!

أحتاج لقبا أجتث به انتمائي لعائلة يوسف وأتخلص من فكرة كوني عتيق أحدهم، بعدها قد أحبّ أحدهم فالحبّ لا عمر له، لا لون ولا تاريخ محدّد، متى وكيف وأين سنقع في الحب.

لم أستطع أن أغادر المكان حتى دخول الغسق الأخير من اللّيل فدفعني الظّلام الشرس أن أتوارى عن الأنظار وأنتظر اَلْغَد ليدفنوا إسماعيل.

كانت ليلة كئيبة وحزينة ومع أول خيوط الفجر سمعنا طلقات مدوية هزت أرجاء الهنشير، اندفعنا خارجا فوجدنا الحاجّ قد أطلق النار على رأس عجاج حصان إسماعيل وأرداه قتيلا وقال مهددا: هذا مصير الخونة!

خر الحصان غارقا في دمائه وكان يومها من أقسى اَلْأَيَّام وأشدها حزنا في تستور.

ودّعنا إسماعيل وشيعنا جثمانه.

نحن نطوي صفحة أخرى حزينة، خسر بها الجميع أحد أمهر عمال الحصاد.

مرّت السنوات ولا جديد يذكر.

الحياة طبيعيّة، هادئة تتخلّلها لحظات من السعادة ثم تشوبها أوقات صعبة ولكن كلّ شيء يمضي نحو مساره المقدّر، تشعر كأنّ الأيّام تقودك بأصفاد مُكَبَّلَة نحو طريق مرسوم مسبقا في عوالم أخرى.

باتت الأيام متشابهة ولكن المهمّ بالنسبة لي أن نظلّ في صحّة جيّدة ونقاوم كل المصاعب اَلْمُتَخَفِّيَة التي تبحث عنّا ببطء في قدرنا المحتوم.

أمضينا حياتنا على هذا اَلنَّسَق، نقضي الشّتاء في تونس والصّيف في تستور، كنّا نغادر البحر ونتّجه نحو الحقول رغم حرارة الطقس.

طقس تستور الحار يعني نضج سنابلنا وفي نضجها بقاءنا، لم يخطر ببالي أبدا أن ذلك الصّيف سيغيّر ما في قلبي ويحدّد منعرج حياتي بحدّة لأصبح أكثر تَمَرُّدًا، لم يكن ينقصني العلم بل كنت أفتقر إلى الشّجاعة وعدم الاكتراث بما يخبّئه القدر.

خفي عليّ أنهما سببا النجاح الوحيدين، وهما ضرب من الحريّة التي يجب أن يمتلكها أي محارب حقيقي.

نتلقّى بداية الحصاد تعليمات مهمّة من الحاجّ منها أن نكون أكثر حذرا وأن لا نتحدّث مع الغرباء كما علينا أن نعرف جميع الوافدين علينا خوفا من السرقة، لكن من سوء حظنا في تلك السنة أن أبي قد ساعد أحد الصبية المحتاجين للعمل لإعالة أمه الأرملة وإخوته.

كان الفتى نحيفا، مرتعشا، قدم من قرية أخرى طمعا في الحصول على عمل يسد حاجتهم وجوعهم.

سمح له أبي بأن يبيت لعدّة أيام في الإسطبل بيد أنه ولسوء قدره تمت سرقة خراف الحاجّ وما عقد الأمور أنه وجد الصبيّ متخفيا هناك فباغتوه وأمسكوا به، لكن أبي شرح للحاج ما حصل وأخبره بحقيقة ذلك الصبيّ.

مع الضحى اجتمع الجميع حول الحاجّ الذي أخذ يصرخ ويحمل الجميع المسؤوليّة في ضياع قطيعه.

تسلّلت بهدوء وسط الحاضرين، وقف الجمع صامتين مكتفين بالاستماع لتحقيق الحاجّ مع أبي، وتوجّه له بالكلام قائلا : "كيف لك أن تثق به وتتركه يأكل وينام في الإسطبل؟"

فأجابه: "يا حاج ليست مشكلة ثقة، كانت حاله سيئة وكأنّه يحتضر، كان جسمه هزيلا وكأنّه يصارع الموت !"

أضاف الحاجّ: "لسنا مسلكا لعابري السبيل، لست وقفا خيريا لأطعم كل من يشكو الجوع !"

قال أبي في حزن: "يا حاجّ لو رأيته كنت فهمت قصدي، لقد كان كتلة من الموت والظّلام".

رد الحاجّ: "لم يكن ميّتا، كان لصا، ابن عاهرة، وأنت سمحت له أن يستغل انشغالنا بالحصاد ويسرقنا".

كان الحاجّ يرتعش من الغضب تحت جلبابه القطنيّ، عيناه شاردتين يصوبهما نحو الإسطبل الفارغ، والرّجال من حوله يحاولون تهدئته فقد خسر فوق العشرين رأسا من الغنم في ليلة واحدة.

كان منشغل البال ويشيح وجهه نحو السّماء هائما وبدا وكأنه يعدّ قيمة ما خسر.

يمشي مطأطأ الرأس في شكل دائريّ وهو يضمّ يديه تحت صدره، شابكا أصابعه في توتر وقهر.

كنت أشتمّ رائحة غضبه كأنّ قلبه يشوى على فوهة بركان وتوقف فجأة أمام أبي ورمى بشاشيته أرضا وصاح به قائلا: "خنت الأمانة يا تيجاني، لم يتبقّ إلاّ أن يأخذ نساءنا ويرحل".

رفع كفه عاليا أمام ذهولنا وتعلقت عيوننا بها وهي تهوي على وجه أبي بقوّة ويقطع صوت الصفعة أنفاسنا لتشهق بعض النسوة ويتوقّف الرّجال في حالة من الصدمة والغضب.

رأيت عيني أبي تهويان كنيزك، تشتعلان، تتحطّمان، وتقتلعان قلبي وتمزّقانه، سأظل أذكر وجع الصفعة ما حييت وسأتذكر الصّقيع الّذي أحسست به وتصلّبي وأنا أرى أبي مشدوها، مخطوفا من عقله ومكسورا، أحسست بيده تهزني من أمعائي وتضرب مرارتي تفقعها وتقول لي نحن لن ننتمي أبدا لدار يوسف كل ما يحدث مجرد كذبة تاريخيّة.

أنا أَتَفَتَّت وأتوقّف عن التّفكير، تمرّ ثوان جامدة كريهة وعيني أبي مغروستين في قلبي أراه يتحرّر من الأرض والتّعب، انكساره يمسح خطوط شقاء وجهه ويبسطها من هول الفاجعة، شعرت به في عظامي كأنه يتبدّد كصخرة ويهوي حيث الأعماق السحيقة، لم يتكلم البتّة مسح فاجعته في عيني وانكسر لأشلاء.

تمنيت لو كنت أنا من تلقّى الصفعة، آه لو كنت قادرة على مسك يد الحاجّ والتهامها قبل أن يسحبها من تحت برنسه ويرفعها ليمس بها كرامة أبي، كنت بائسة ومكسورة وتشتعل في قلبي نار وحشرجة جافّة في حلقي تريد أن تنفجر لكن نحن لا نملك قدرنا فقد سلّمناه لهم وكان كل ما نملك حقا هو شقاؤنا وعرقنا.

اعرف أن أبي غصّ بفاجعته وسوف تلتهمه حدّ الموت، لا أعتقد أنّه سيعود ذاك الرجل الّذي أحببت.

لفّنا الصّمت، لم يتكلم أحد، لم تحدث جلبة أو اعتراض كأنّ أبي مجرد شبح بائس وصفعة بدّدته كدخان في هواء الهنشير.

ما بعد عصر يوم غد، رأيت أبي حانيا يديه خلف ظهره مبتسما في ضمور ويتمايل في خفة بين السّنابل، بدا لي كأنّه في ظلّ أوجاعه يخفي رأسه هناك ويجتر وجع ليلته الفائتة، وذبلت نظرته كأنّ شيئا عميقا انطفأ بداخله، اختفى توهّجه وضمرت طاقته.

ذهب أبي عميقا إلى آخر نقطة من الجهة الغربيّة لتلتهمه أراض تستور، من بعيد بدا مجرّد شبح سلم نفسه لقدر الموت، إني أشمّ رائحة الموت، تلك الرّائحة العفنة المتراكمة.

لم يكن من المنطقيّ أن يفنى شيب رأسه في خدمة الحاجّ يوسف وينتهي بأن يصفع مثل خائن.

اختفى أبي عن ناظري كأنّه شبح مع خيوط الغروب المشتعلة.

أحسست أن الشّمس التهمته ورحلت به بعيدا وحرّرته من عبوديّة يومه، ذهب أبي بعيدا ولن يعود أبدا.

مرّ يومان على اختفائه كأنّ الأرض ابتلعته، بحثنا عنه لكن لم نجده ذلك ما دفعنا للاعتقاد بأنّه رحل بعيدا دون رجعة.

استمر النّاس في البحث عنه قاموا بتمشيط كامل المنطقة دون توقّف.

توجّهت إلى المكان الذي كان يفضل أبي البقاء فيه وبدأت أصلّي وأتابع بحذر مجيئ أحدهم ليطمئنني عليه.

ظهر الرجال من بعيد كخيط أسود متقاربين، بطيئين يمشون رويدا ومع اقترابهم رأيتهم يحملون على أكتافهم رجلا، هذا الشبح النّائم هو أبي، قطبت جبيني وأرخيت أهدابي ونزلت الدّموع هادئة.

كانوا يتقدّمون رويدا وكانت روحي تغادرني، كان الرجال كومة من الحزن والبؤس ووقفت نوّة بجانبي واضعة يداها على خصرها وفمها مفتوح واختفت تعابير وجهها، أزاحتني بيديها جانبا واقتربت منهم وهي تسير بخطوات متثاقلة وقد تحرّرت من برودها وعدم اكتراثها بنا.

حاول الرّجال التخفّي حتى لا نتعرّف على الشخص الذي يحملونه لأنّها جثة أبي.

كان شبيها بفزّاعة بائسة أتوا بها من قلب أرض السنابل بعد أن عبثت بها العواصف وألقته أرضا مثل أسمال بالية ومهملة لا صاحب لها.

بدت على وجوه الوافدين علامات الحزن والشّفقة، اقتربوا منّا أكثر وأردف أحدهم قائلا: "رحمه الله، وجدناه ملقى على حافة الوادي، وتابع رجل آخر: ليس لدينا وقت كاف لقد مرّ يومان على موته، يجب أن ندفنه مع حلول الفجر.

بعد ستّ ساعات سيتمّ دفنه، لا وقت لديّ أضيعه في البكاء والصراخ، استجمعت شجاعتي وهدأت، لا أريده أن يرحل وحيدا من غير أن يكون له ابن يودّعه في رحلة ذهابه الأخيرة، تبعت الرّجال ودموعي لا تكفّ عن الانهمار، أريد أن أكون بقربه فقد كنت كل عائلته وطفله الوحيد، أمّا نوّة فلم تتوقف عن لطم وجهها والبكاء بصوت عال حتى تردّد صداه في الأرجاء.

يا له من وجع!

بعد يومين من البحث المضني والأمل الزائف أراه اليوم جثة هامدة تنبعث منها رائحة كريهة ولكنّي مع ذلك كنت أقترب منه أكثر، إنها الرّائحة الأخيرة والصادقة التي حظيت بها في آخر وداع لأبي. مع بداية الفجر وضعه الرّجال في كفن أبيض وقبل صلاة الفجر صلوا عليه.

عند نهاية الشفق الأوّل كانت الأرض قد التهمته وقبع هناك داخل القبر وحيدا. اختفيت خلف شجيرات الزّيتون أراقب كلّ شيء في صمت ومع رحيل آخر الواقفين على قبره توجّهت نحوه وارتميت أنبش التّراب بِيَدِي، كانت فاجعة هزّت روحي، للموت هولا عظيما ليس فقط على صاحبه ولكن يؤثّر فينا جميعا، يدمي قلوبنا ويمزّق ذكرياتنا ويعبث بها ليترك رائحة من أحببنا عالقة في عقلنا.

هم رحلوا فعلا لكن أشياءهم، عرقهم، ضحكهم وصوتهم سيظل عالقا بممرّات الروح.

أتمنّى أن تكون مرتاحا حيث ما أنت الآن، اليوم تتحرّر من الأرض لقد أصبحت حرا، سوف يأتي ذلك اليوم الذي تنتقم فيه الأرض لبؤسك وتعوضنا الأيام عن قهرك، قد لا أستطيع زيارتك كثيرا ولكن لن أبكي أبدا، سوف أختزل وجعي في هذه الكلمات: غدا ستنتقم السّماء لنا!

غادرت المقبرة فارّة من رائحة الموت ولم أبك، رحل أبي وغدا ستشرق الشّمس كالعادة وتزهر الحقول ثمّ سيأتيها الشّتاء وتنهمر الأمطار... دورة الكون العاديّة.

غدا يأتي الآلاف للحياة مثل أبي، ليكونوا عبيدا للنّاس والأرض، سيكون عالمهم محدّدا وقصيرا وسيموتون، وبعد دفنهم سينساهم الجميع!

توجّهت نحو الغرفة والحزن يمزّق قلبي، أشعر وكأنّي جسد خاو لا روح فيه. لا أحد يكترث لحزني إنّهم مستعدّون لاستبدالنا بعبيد آخرين، فالمهمّ عندهم ضمان مصالحهم.

سأظلّ أهذي لأيّام وسنوات ولن أنسى أبدا رائحة عرق أبي، شاشيته الحمراء المعلّقة بمشبك خلف باب غرفتي، كل يوم سأشتم رائحة كفاحه وأواصل دعائي على المتجبّرين راجية الله أن تفتك بهم مصائب الحياة وتجلب لهم الكثير من العار والخزي.

ويوما ما سأتحرّر من لقب عتيق ومن دار منامة.

خلال الأسبوع المنقضي عاد الجميع لحياتهم العادية، جيء بعامل جديد يتولّى مهمة الحصاد.

حتّى الأرض تنكّرت لصاحبها لم تبكه عند رحيله ولم يصبها العقم، بل التهمته بلا رحمة فكيف نفنى من أجل شيء لا يحسّ بنا؟

كان الأجدر أن نتحرّر من كل ما يستعبدنا في هذه الحياة.

اليوم يقف مشرف جديد على حدود الهنشير والأرض معطاءة والسنابل تتمايل سعيدة يهتز سنبلها تحت الشمس ويغتسل بقيض صيف تموز ويراقص هواء الفجر وتشرئب بساقها باحثة عن حاصديها وهي لم تأبه يوما لرحيل أبي.

بقيت مستسلمة لوجعي لعدّة أيّام، وظلّت عيني معلقة بالشاشيّة الحمراء. تخلصت نوّة من جميع ملابسه واحتفظت أنا برائحة عرقه وتعبه، ستظلّ معي حيث ما أذهب وكلما اشتممتها دعوت من قلبي أن يهلك الله الحاجّ قهرا.

مع انتصاف الليل، أفقنا على صراخ الرجال وهرعت خارجا لأجد السّماء مشتعلة مثل فوهة الجحيم، كرات نار تلتهم كرات أصغر منها وتتأجّج في كل مكان وتزحف في توحش وإبادة جماعيّة لجميع حزم التبن، السّماء يعلوها لهيب أحمر بدأ يشتدّ لونه ويتغير من البياض إلى السواد معلنا نهاية أرض تستور وهنشير الحاج.

انتشر رماد الحصاد عاليا في أرجاء الأرض وانبعثت رائحة شواء الحبوب والحيوانات. كانت الكلاب تنبح والسّماء متوهّجة كالجمر، اللّهيب يغطّي سور الهنشير الطّويل.

وقف الحاجّ ماسكا رأسه وهو يتخبط كالغريق والنّيران تلتهم المكان دون رحمة وتتوجه كسيل مندفع نحو الإسطبل لتنفخ في كل شبر وتبتلع الأحصنة والدواب.

انطلق الرجال نحو البئر يحاولون إخماد الحريق وكأنّ لعنة حلّت بالمكان، النار تبدأ من أسفل التراب وتصعد نحو مشارف السّماء لتلتهم ما بينهما في عنف وشراسة وتلطخ الرّجال بالرّماد.

بدا اللّهيب كحيّة تنفث رمادها وتبصق في وجوه الجميع فلطختهم ببقايا التّراب المتفحم.

وقفت النّسوة يصرخن وينتحبن وبدأت أرض السنابل تتبخّر كحلم ويختفي الهنشير وتكوّمت بقايا التبن أكواما محترقة لتنفخ عليها أول رياح الفجر فيتوضّأ الجميع برمادها وتشرد العيون في غيظ وخوف ويتحوّل هنشير تستور إلى قطعة فحم كبيرة ينعكس بؤسها بين بؤبؤي الحاجّ يوسف الّذي جلس على الأرض يتخبط ويكسو وجهه الرّماد.

وقفت أشاهده وقلبي راض بما يحصل، حدّقت بيوسف الّذي تحولّ إلى عمود متفحّم وعيناه تلمعان من التعب والقهر بسبب ما حلّ بأملاك والده.

صدم الجميع من هول الفاجعة إلاّ أنا فقد رقص قلبي فرحا يحاكي حركات نيران الهنشير، وبدأ حزني يتبدّد.

استرقت النظر ليوسف، عيناه ترتعشان أمّا أنا فالابتسامة تعلو محياي، لقد ثأر لي الله من هؤلاء المتجبّرين.

غادرت المكان وأنا أضحك من أعماق قلبي وأعلم أنّ خسارتهم ستكون عميقة وستستمر لسنوات حتى يجمع الحاجّ قوته من جديد، ولكنّ السّماء أنصفت روح أبي وهذا كان بالنسبة لي أعظم ثأرا قد تحظى به خادمة سوداء.

قضينا سنوات صعبة ومريرة ولكنّها كانت بالنسبة لي من أعظم السّنوات على قلبي، كنت أستمع لصلواتي تتجسد بيننا وكان ذلك كافيا ليرحل الحزن عن روحي للأبد.

انغمست في القراءة أكثر، لم يغير ذلك من تفاصيل حياتي، لكنّها على الأقلّ كانت سبيلا أنسى عن طريقه واقعي، وأهرب بخيالي بعيدا وأستنجد بقصص جميع المعدمين الّذين سبقوني حتى أمسح وحدتي بدموعهم وتجاربهم، كنت أتعلّم من ألمهم لأتجاوز ألمي.

لست الوحيدة الّتي تعاني من الكره والتقليل من شأنها، هناك عدد لا يحصى ممن يشبهونني في جميع أنحاء العالم، الاختلاف الوحيد بيننا هي طريقة كل منّا في التعايش ورفضه لواقعه وكيف تخلّص من كل الألم الذي عانى منه.

هناك فرق سحيق بين من يقرأ فقط للمتعة ومن يقرأ ليتمرّد، كنت حائرة جدّا لأني لم أجد بوصلتي التي ترشدني للطّريق الصحيح.

هل كنت أقرأ استعدادا لتمرّدي أم اقرأ لتكون القراءة مثل الأفيون، تأخذني لعالم الأحلام بعيدا وأنسى من أنا لبضع ساعات.

لم أستطع أن أستجمع شجاعتي، وأيقنت أنّ المعرفة التي لا تجعلك تتطور وتتقدم هي مجرد مخدّر فخم تستعمله لتنسى ولكنّها لا تسمح لك بأن تذهب بعيدا بأمانيك.

اليوم سأبلغ العشرين، ما زلت سجينة بدار منامه، أراقب يوسف وهو يحلّق بعيدا عنّا، يغادر من الصباح حتى المساء للالتحاق بأصدقائه، كان يقضي الكثير من الوقت برفقتهم لديه أصدقاء من مختلف دول العالم، من فرنسا وإيطاليا... كان يستمتع بالتسكّع معهم، وعلي ما يبدو أنّها السنوات الأخيرة التي سيقضيها هؤلاء الأوروبيون في تونس.

بدأت بوادر الاستقلال تلوّح في الأرجاء وغدا هذا الوطن سيتحرر من العبودية.

لم يكن أيّ منّا يأبه لما يحدث خارجا ما دام خبزنا مخبوزا ومؤونتنا موجودة وَنَوة هنا تحوّل الطحين إلى حلويات لذيذة، لم نكن فعلا نقلق بسبب الحرب فهي لم تبلغ أبدا باب دارنا أو هنشيرنا.

منذ سنتين توقفنا على الذّهاب إلى تستور، خلال الصّيف تزورنا لالة يأمنه وابنتها، بعد زواج بيّة ونوره، كنا نستقبلهم جميعا ليستمتع أطفالهم بالبحر، ونحن

نقضي شهرا مثل الجحيم، لا تتوقف طلباتهم أبدا، لم أعد أجد وقتا لأختلي بكتبي، أنا في خدمتهم بكل طاقتي.

لقد تعبت حقا!

ذلك الصيف كانت بيّة على أبواب الولادة، ولم يتبق لها سوى شهرين ولكن تعكّرت صحتها وكان إلزام عليها أن تذهب للمشفى.

صراخها ملأ الأرجاء، إنها تتألّم كثيرا، أخذنا نركض بفوضى في أرجاء القصر بحثا عن حل.

ركضت خارجا محاولة أن أجد شخصا يملك سيّارة ليساعدنا في نقلها إلى المستشفى، شردت بعيني بعيدا هائمة والتوتر باد عليّ وصرخات بيه تمزّق أرجاء المكان.

كان صوتها يبلغ آخر الشارع ومع كل الضوضاء التي تحيط بنا انتبهت لوجود سيارة تتوقف أمامي، إنّه يوسف جاء مسرعا لنجدة أخته.

جثمت بمكاني لبضع دقائق وعيناي متشبّثتان بعيون خضراء، صافية مثل غابات الزان، عيون برّاقة مشعّة قد التهمت كل جمال السهول والهضاب وتفرّدت بنور إلهيّ وشعرت أني أستجمع قلبي في صلاة محرابها عينيه، نظر الشاب لي وشعر بارتباكي وسمعته يقول بكل انبهار كوني: tu es une beauté fatale.

لقد كان فرنسيّا!

شعرت بخجل شديد وأجبته بكل بثقة: شكرا لك، لأوّل مرة في حياتي يخبرني أحدهم بأنّي جميلة.

غادر الشّاب السيّارة واقترب مني قائلا: "أنت تتحدثين الفرنسيّة بطلاقة!" ومد يديه نحوي مصافحا ثمّ تابع بحماس: بالمناسبة اسمي ماثيو وأنا محام فرنسي، جئت لتونس في عمل مع اَلْجَيْش الفرنسي وأنا جدّ معجب ببلدك وبك!

هوت كلماته على قلبي كنيزك عبر دروب الفضاء واستقرّ بقلبي ليفجره لشظايا تراقص غروري وكبريائي.

كنت معلّقة بين عينيه وكلماته التي تمجّدني وتراني جميلة الجميلات، لم تكن لديّ رغبة بأن ينقطع ما بيننا من حوار حتّى وإن مات الجميع في الدّاخل لكن اندفاعهم خارجا وهم يحملون بيّة نحو السيّارة وصراخ يوسف في وجه صديقه آمرا إياه أن ينطلق نحو المشفى بدّد كل النّشوة التي أصابت عقلي.

رحل الجميع وبقيت واقفة، قلبي يخفق بقوّة وتتزايد ضرباته ويتحوّل لعصفور يغادر صدري نحو السماء.

عيناي ترقصان نجوما وورودا ما أن أردد كلماته في نفسي وكلما تذكّرت نظراته لي يحملني فضولي للتّفكير في معرفته أكثر.

بدأت السيّارة تختفي بين الشوارع وقد حملت معها كبرياء امرأة نحو السّماء وما عاد شيء قادر على إعادتي إلى الأرض.

حلّ المساء ثقيلا، فزمن الانتظار بدا طويلا لا نهاية له، كنّا صامتين في وجوم تام إلى أن بلغنا أزيز محرك سيّارة توقف أمام القصر وبكاء طفل صغير، هرعنا نحوهم وكان يوسف يحمل بين ذراعيه قبضة من لحم صغيرة محشورة وسط غطاء قطنيّ، تفحّصت الصغير وقلت له إنه جدّ جميل، ضحك يوسف وقال لي إنها فتاة وأسميتها حسناء! جمالها لا نظير له إنها رائعة، هل تعلمين ما إن رأتني أحدق بها حتى ابتسمت.

توجّه الجميع نحو الغرفة وبقيت واقفة قرب نافورة الماء الّتي تتوسّط بيتنا، كانت عيناي تسبحان في عمق نظرات ماثيو وشعرت أن بين الفناء والحبّ مجرّد تسمية حمقاء!

الفناء أن لا يبقى شيء على هذه الأرض، فتنفجر الجبال وتتناثر المباني وينفخ في عروش السّماء وتندثر البحار وتنتهي الحياة ويموت الجميع من بشر ووحوش...

الفناء هو اختفاء معالم هذا الكون وهذا ما يفعله الحبّ بالقلب، إذ يجعل العالم خاليا من الجميع إلاّ ممن خفق لهم القلب.

كانت تلك أوّل مرّة أشعر فيها بمشاعر العشق وكأنّ فاجعة نزلت على فؤادي، شعور قويّ كبرق ورعد زلزل سماء روحي الهادئة، وقفت أستمع لخفقات قلبي وعيوني تتشابك مع نظرات ماثيو حيث رحلنا كلينا لسماء وأرض غير سمائنا وأرضنا.

منذ ذلك اليوم تعدّدت زياراته لنا محاولا أن يجد أيّ فرصة ليقضي أطول وقتا معنا وقد أغدق على الطّفلة بالهدايا.

مرّ شهر كنت أنا وماثيو نكتفي فقط بنظراتنا نثمنها أغلى ما نملك من كلمات ونخاطب بعضنا بخلجات أهدابنا ونراقص ما يحدث في غياهب القلب من حبّ وود.

لم نستطع أن نتحدث كثيرا فالكلّ كان رقيبا والجميع يأنسون لحديث ماثيو الشيّق وروحه السخيّة ثم عاد الجميع إلى تستور وعمّ السلام بيتنا.

تغيّرت بعض عاداتي، أصبحت قليلة النّوم، أمضي الوقت أحوم حول نفسي، أشيّد أحلامي وأتمنّى أن تصبح لي حياة أكون بها حرّة ولي لقب يجسد ثورتي.

طرقات متتابعة على البوابة الخشبيّة جعلتني أقطع عنّي خيط أحلامي وانطلقت بتكاسل نحو الباب لأصطدم بماثيو أمامي وقد أصابه رعاف شديد، ارتبكت، لم أعرف ما الّذي يستوجب عليّ فعله، دفعته نحو المدخل وسحبت من جيبي منديلا قطنيا ثم مسحت بهدوء اَلدَّم من على أنفه، كانت عينانا تحومان حولنا، تَشْتَدّ ضراوتهما بيننا، كلّ ما في القلب من شوق أفضت به نظراتنا، تشابك أناملنا، أنفاسنا كانت تشبه قرع طبول الحرب تعلن عن إبادة كارثيّة لكل ما في العقل من صبر وشوق.

توقفنا للحظات، كان القصر هادئا، الجميع نائمين بالدّاخل، سألني ماثيو قائلا: سأغادر قريبا نحو باريس، هل تذهبين معي؟ هناك ستحضين بحياة رائعة، أنت هنا مجرّد خادمة، يعاملونك مثل عبد لديهم، حرّيتك الكاملة ستكون في بلد آخر.

كنت متمسّكة بأنامله وكلماتي تنساب دون رغبة منّي، تغادرني نحوه في شكوى مؤلمة لما عانى القلب من وجع خلال السّنوات الماضية.

كنت أسأله مستنجدة بأرض الأحلام التي فجرها فجأة بين مسمعي ما الذي سأفعله في باريس؟ ابتسم ماثيو قائلا: "ما أنت بصدد فعله هنا في مقدورك أن تعملي بأحد البيوت أو مساعدة في مطعم أو إن كنت تعرفين الرّقص يمكنك العمل بأحد كازينوهات باريس!

كنت أستمع له بدهشة ولا ألبث أن أسأله بحماس وهل سيدفعون لي راتبا؟ أسيصبح لديّ بيت؟ هل سأكون حرّة فعلا؟

ضحك وهو يربّت على كتفي قائلا ستكونين حرّة لدرجة أنّك ستختارين لنفسك اسما جديدا، كنية جديدة، أنت ستكونين ملك نفسك، لا أحد سيتدخّل في قراراتك، أنت امرأة ذكيّة يا نجمة، فكّري جيدا وَالْيَوْم الّذي أدقّ بابك سيكون ذلك يوم رحيلنا.

كنت منصاعة لبلاغة الكلمات التي جسّدت كل عالمي الّذي أردته منذ سنوات، كل ما حدّثني به كانت روحي معلّقة به، اليوم حلمي يقف بين قدمي يترجّاني أن أترك الجميع ورائي وأرحل.

كنت أريد أن أخبره دون تفكير: "انتظر سأجمع ملابسي وأرحل معك الآن! إلاّ أن يوسف باغتنا وأمرني بأن أصعد إلى غرفتي، شعرت بخوف شديد جعلني أتصلّب في مكاني.

أردت أن أصرخ به، أشتمه، أرمي كلّ ما في يدي من أغراض المطبخ والتنظيف في وجهه وأرحل مع ماثيو لكنّي كنت جبانة وابتلعت لساني كفأر مرتعش.

غادرت نحو العليّة، أفكر في طريقة ما لأهرب وأحاول أن أستجمع قوّتي حتّى أتخطّى بوابة دار منامة، قفزة واحدة تحرّرني من لقب عتيق يوسف، هروب واحد سيجعلني أضيع وسط الزّحام وأتوه مع أناس لا أعرفهم.

في المساء كان عقلي يتّقد من شدّة التفكير وأحاول إيجاد سبيل للهروب وإذا بيوسف يباغتني في خلوتي واقترب منّي في غضب، دفعني نحو الجدار وعينيه مشتعلتين مثل بركان وحبسني في الرّكن حتى لا يسمعنا أحدا.

غلّف الظّلام المكان ورمى بعينيه وسخطهما عليّ وغرس أصابعه في ذراعي بعصبيّة وقسوة حتى أحسست بأنّ أظافره غرست في لحمي وأمسك بيده الثانية ذقني وألصق رأسي على الجدار بفظاظة وهزّني بقوّة وكأنّه يقتلعني من جذوري كشجرة، وصب في كل غضبه البادي من عينيه وبث الرعب في قلبي.

أشحت بنظري بعيدا ولكنّه أمسك وجهي بعنف وصوّبه نحوه، واقترب من أذني وهو يصرخ بهدوء فاحش هل راق لك؟ فلتنظري في عيني! هل أعجبك الفرنسيّ والثّقافة الباريسيّة وحقوق الإنسان؟ هل أعاملك أنا مثل جرذ، هل تعتقدين أنّي حقير؟

تكلمي!

لا تحدقي بي مثل العاهرات!

حافظت على صمتي أراقب انفجاره من الغيض والغضب بلا مبالاة وبداخلي سعادة غامرة مثل دوار عنيف يهزّني من رأسي لأخمص قدمي، كتمت ابتسامة بين شفتي وبقيت غارقة هناك في زاوية الصّمت أتابعه بعيني وهو يهوي على أذني : تكلمي!!

لم يكن يبالي ببرودي وعدم مخاطبتي له فرفع رأسي نحوه وأرغمني على مواجهة عينيه وقد امتلأتا بالدّموع والقهر وهو يقول مرتعشا هل أعجبك المعتوه؟ إن رحلت معه سيجعل منك عشيقته، سينام معك ثمّ يرميك مثل كلب، هل تصدّقين أن هؤلاء يحبّون؟ سيلهو معك لسنوات ولن يتزوّجك أبدا، هل تؤمنين بحقوق الإنسان والإنسانيّة بعيدا عني؟ هل عاملتك بسوء حتى ترحلي وتجلبي العار لنفسك ؟

تكلّمي !

كان يوسف يترجّاني ويصرخ في أن أجيبه: لست شبحا! لست جبانا ! تكلّمي. مرّت بضع دقائق وأنا أحدّق فيه، أستمع لغضب أنفاسه ثم أجبته بكلّ لؤم: أنت لست برجل يا يوسف! أتعرف ما يفعله الرّجال ! أنت تخاف الحاجّ وتركيّة ! سأرحل هل سمعتني؟ سأرحل تبّا لك !

لم تتوقف صرخاتنا إلاّ وقد أحدث يوسف إعصارا بغرفتي وأوجعني بأن مزق كتبي وسجنني في غرفتي لعدّة أيام، كان يوسف سيّد البيت بعد مرض تركيّة واختفائها الأبدي في غرفتها.

لقد أصبحت ملك يوسف وهو الوحيد الذي يتحكّم بقدري، يريدني خادمته ويتوارثني كشيء لا قلب له أو مشاعر !

مرّت أسابيع كثيرة ولم يغادر يوسف إلى تستور مثل عادته ولم يعد يزورنا ماثيو منذ وقت طويل.

مع بداية الظهيرة سمعت طرقا على الباب، توجّهت نحوه بكلّ هدوء وكانت المفاجأة، عاد ماثيو ليأخذني وقد بدت عليه علامات التوتر.

سألته بكلّ وضوح: إن ذهبت معك هل تتزوّجني؟

أطرق لدقيقتين ثم قال بتهكّم وسخرية: نجمة بربّك أنا لن أتزوّجك، أنا جندي، لا حياة لي، حياتي ملك للموت والوطن !

قلت له ببرود شديد : إذا لما سأرافقك نحو باريس؟

أردف قائلا بثقة قاسية: ستكونين حبيبتي! اسمعي لا تنته كلّ العلاقات أو قصص الحب بالزواج، يجب أن تتعلمي كيف تكونين حقا امرأة حرّة، المرأة الحرّة لا تتزوج، لا تسجن نفسها مع رجل واحد مدى الحياة !!

آه حسنا ! تمتمت مصدومة ! وتابعت بشيء من الجديّة الّتي ورثتها عن نوّة : أتعتقد أن حريّتي تكمن في ترك البيت، صحيح أنا هنا خادمة لكني أعمل بعرقي وأحافظ على شرفي، فلماذا أذهب برفقتك نحو باريس لأخوض مغامرة البقاء والحريّة من دون حدود أو أي ارتباط أسريّ يعيد لقلبي كبرياءه وكرامته، أخبرني ما هو الفرق؟ إن كنت في كلتا الحالتين مستعبدة في جسدي فذهابي معك يعني أن أصبح أفضل ممّا أنا عليه الآن بتونس وليس العكس.

رفع ماثيو يديه نافيا ومستنكرا كلامي وقال: في باريس ستكونين حرّة جدا، ستفعلين ما يحلو لك، لا أحد سيستغلك لخدمته، إضافة لقدرتك على تغيير لقبك، اسمك وديانتك، ستولدين من جديد!

انفجرت ضاحكة وقلت له: هل أنت مجنون ؟ أتجعلني عشيقتك وتستعبد جسدي جنسيّا لخدمة رغباتك، أخبرني ما هو الفرق بين أن أنظّف وسخ دار منامة يوميّا وان أهبك شرفي بلا مقابل، أنا في الحالتين أقدّم جسدي، ما هو الثمن الذي سأتقاضاه إن ذهبت معك؟

نظر لي ماثيو بيأس وقال: حرّيتك، ستكونين مسؤولة عن أخطائك، ستتحملين كل خياراتك بشجاعة، هنا تكمن الحريّة الكاملة !

بدأت أعي في لحظات الفرق الشاسع بيننا، الهوّة السحيقة في تفكيرنا وأخبرته بصرامة اسمع سيد ماثيو، في علاقتنا ببعضنا لا يوجد في قاموسي أن أتحمّل مسؤولية أخطائنا لوحدي، بالنسبة لي المرأة الزانية عندما تنجب ابنا وهي وحيدة لا يجب أن نوجّه لها إصبع الاتهام بضمير أنت! أنت الزّانية! أنت المخطئة! أنت تتحمّلين وحدك نتيجة هفواتك!

أجد من الظلم أن نوجّه اللوم نحو طرف واحد في حين أن الجريمة اقترفها طرفان، يجب أن نقول نحن مخطئون، هم مخطئون، كلنا مخطئون، في الخطأ لا يوجد أنا وحدي، الخطيئة تكون مشتركة لكنّ الفضيلة يفعلها شخص واحد بنفسه

لأنها تنبع من مبادئه وإيمانه، وإيماني يقول لي: نجمة امرأة مثقّفة لن تنتهي عشيقة أحدهم، أنا لن أغادر دار منامه إلّا مع زوجي، وتأكّد يا سيّد ماثيو أنّ أحدهم سيكون رجلا فعلا، أرجوك غادر إلى الأبد وأرجو أَلّا تعود بتاتا لحياتي!

أمسك ماثيو يدي بقوّة وبدأ يتوسّل بكلّ قوته أن أرحل معه وأمام إلحاحه الشديد كدت أن أفعلها إلّا أن شريط حياتي مرّ بذاكرتي سريعا وانتبهت لخطورة وغباء ما سأقدم عليه إن غادرت دار منامه لأصبح خادمة أخرى في بيت جديد أو طاهية في مطعم مغمور أو راقصة رخيصة في إحدى الخمّارات المنسيّة.

يجب ألا أنسى أنّني سأعطي الفرصة لأكون طوال حياتي عشيقة لكلّ الرجال، لا أحد سيتزوّج من خادمة سوداء تتنقل من حانة لأخرى لأنها فقط تجيد اللّغات وتتحدث بطلاقة، الحريّة الوحيدة الّتي أحلم بها هي كرامتي حتّى وإن مت تحت شجرة الزّيتون في تستور بلا مأوى أو طعام.

سحبت يدي من بين أصابعه ودفعته بعيدا قائلة ارحل الآن ولا تعد أبدا، لن أذهب معك إلى أيّ مكان ! صوب نظره نحوي بعيون منهارة ترسم وداعها الأخير وتوارى عن الأنظار لتلتهمه أَزِقَّة حلق الوأد المتشعّبة، راقبته يختفي من بعيد غير متأسفة لما حصل معه.

الإحساس بالإهانة أنهى كل ما في قلبي من حبّ تجاهه أو هكذا خيل إلي، أعتقد أنّ نجمة لن يطرق الحبّ قلبها أبدا ،نجمة تبحث عن خلاصها وعن نفسها.

بينما أنا على ذلك الحال حتى انتبهت لوجود يوسف وهو متوجّه نحوي مسرعا، وما أن أقترب مني حتّى سألني لاهثا ماثيو كان هنا؟ أشحت بيدي بضجر وقلت له: لا تأبه له فلن يعود البتّة لدار منامة، أنسى أمره.

هذه الحياة مُجَرَّد غبار يسكن ذكريات قلوبنا ودخان يعبر الروح ما إن تلمسه حتى يتبدّد في الهواء.

اليوم أبلغ اثنين وعشرين عاما وكأنّي لم أعش يوما في هذا العالم.

كلّ العمر الذي مرّ كان بمثابة الحلم، لم أقم بشيء مهمّ، لا إنجازات عظيمة أو نجاحات مهيبة تقاس بحجم كلّ الكتب الّتي قرأت، ظلّ كلّ ما تعلمت حبيس الجدران، الأحلام لم تعد تنجح في جعلي سعيدة أكثر من قبل، خيالاتي وسفري حول نفسي بات مُمِلًّا ويجعلني أتساءل ألف مرّة وبعد؟

إذا بقيت في دار منامة سأظلّ خادمة وإن رحلت بعيدا سأصبح عاهرة! أمّا إذا فكّرت في إيجاد دار أخرى سينتهي بي الأمر خادمة ما بقي لي من العمر.

الحلّ؟

لا يوجد!

سكن اليأس أفكاري، اقتنعت بأنّي لست شخصا مهمّا في حياة أيّ أحد على هذه الأرض.

بلغت طريقا مسدودا فيه تبخّرت أمنياتي.

لماذا أرفع رأسي بكبرياء ينبع من ثقتي بنفسي إذا كانت السّماء لا تسعني؟

لماذا أفتح جَنَاحَيْ لأطير بهما وأنا لا أملك حريّة اختيار المكان الّذي سأرحل إليه؟

واثقة من أنّي فتاة ذكيّة ومثقّفة ولكن ذلك ما أعرفه عن نفسي لا ما يعرفه عنّي الآخرون.

لا أشبه ذلك الشّخص الّذي أعتقد بإيمان أنّه نجمة! ففي النّهاية الجميع يراني الخادمة السوداء مهما بلغت من علم وبلاغة.

بدأت أستسلم لفكرة أنّي لن أصبح سيّدة أبدا فقد بتّ سجينة المطبخ مثل أمي نوّة الّتي أصبحت مشغولة طول الوقت بالاعتناء بالسيّدة تركيّة بعد أن ألمّ بها مرض عضال، ما جعلها طريحة الفراش ولا تقوى على الحركة.

تعود بي ذاكرتي لما كانت عليه تلك المرأة سابقا وَأَتَأَمَّل كيف أصبحت اليوم.

كانت امرأة جميلة جدا، متوسطة القامة، رشيقة القوام، شعرها كستنائيّ، عيناها مخمليتين باهتتين، أنفها معقوفا يوحي بكبريائها، أصابعها دقيقة ومتناسقة، أما اليوم فقد أصبح مظهرها شاحب وبشرتها عليلة يشوبها الاصفرار الباهت.

تركيّة امرأة ناعمة في تكبّر مقيت ومع ذلك فهي تحب نوّة كثيرا.

جسدها النحيف يحمل بين طياته رائحة المرض والموت، تشعّث شعرها، وانطفأ بريق عينيها، تراخت أصابعها الجميلة وأصبحت أكثر ارتعاشا.

تسجن نفسها في غرفتها لأسابيع ولا يسمح لأحد بزيارتها إلاّ نوّة.

تكرهني تركيّة ولا تطيقني أبدا، وأستغرب من حبها الخفيّ لأمّي التي كانت قصيرة القامة مثل حبّة باذنجان، عيناها صغيرتان كقطعتي بازلاء وسوداوان، شعرها مجعّد يبلغ طوله كفّ اليد، تجمعه خلفها في وشاح مزيّن بالورود الملوّنة، أصابع يدها قصيرة جدا، تمسكها تركيّة بكلّ قوّتها وتترجّاها أن لا تتركها وحيدة في غرفتها وتهمس في أذنها: "لا تذهبي بعيدا أرجوك، أخاف الوحدة، لا أريد أن أموت! أتعلمين شيئا، إني أحبّ الحياة جدا".

علاقة المرأتين أكّدت لي أنّه رغم كلّ الاختلافات فإنّه مع اقتراب الموت تتلاشى تلك الفروقات وما دمنا بصحّة جيّدة سنكابر ونقلّل من شأن أولئك الّذين يمثّلون لروحنا الطمأنينة ببساطتهم فتلك البساطة هي كل الحبّ الّذي تكنّه تركيّة لأمّي نوّة.

ينتهي موسم الحصاد ويعود الحاجّ ويوسف من تستور أواخر شهر سبتمبر محمّلان بخبر نزل على قلبي كصاعقة شقت فؤادي لنصفين.

جمعنا الحاجّ ليلة قدومه ليخبرنا بأنّه سيزوّجني لمشرف حصاد جديد والصّيف القادم موعد رحيلي إلى تستور.

انسابت دموعي من هول الصّدمة ولم أتوقّف تلك اللّيلة عن البكاء، أحسست أنّه لا قيمة لي!

لا اعتراض أقدمه.

هل أرفض؟ أم أقبل؟

أنا لا أساوي أيّ شيء!

مجرّد خادمة لعينة يجب التخلّص منها.

لست إنسانا حرّا ليسألني أحدهم إن كنت موافقة على هذا الزّواج.

رمقت يوسف بنظرات يملؤها الكره والمقت الشديد فقد كان بإمكانه أن يمنعهم من تزويجي والتّفريط بي بهذه السهولة.

هو سيّد البيت في غياب الحاجّ وتركيّة لكنّه لم يكن رجلا أبدا!

كان فتى ضعيف الشخصية وهش وساذج، يهاب الحاجّ ولا يتّخذ من دونه أيّ قرار.

كنت أرمقه بحقد، تمنّيت لو أبزق في وجهه وأشتمه، أكرهه لأنّه يعلم أيّ النساء أنا، يعلم جيّدا أنّي أبحث عن حرّيتي بعيدا على الهنشير ومن دون زواج، لا رغبة لي بأن أنهي بقيّة حياتي امرأة حصاد، تدفن طاقتها بين أراض تستور.

أجبرتني نوّة على تقبيل يد الحاجّ وشكره لاهتمامه بي، ثمّ غادرت في اتجاه غرفتي لأختلي بنفسي وأبكي كلّ العمر الّذي سأهبه لرجل لا أحبه.

تمرّ الأيّام ثقيلة وطويلة وتناقل الجميع حكايات وأخبار عامل الحصاد الجديد بأراض تستور، وحكي أنّه رجل مثير للاشمئزاز، مضجر، ضخم وجاف الطّبع.

فكيف لي أن أحبّه؟

كيف سأنام بين ذراعيه وأضيع في تفاصيله، رجلا يضاجعني، يبخّ أنفاسه في أذني وسأكون مجبرة على إنجاب الكثير من الأطفال حتّى أهب تستور المزيد من عاملي الحصاد المخلصين للحاجّ وأراضيه.

أكاد أجنّ!

قرّرت أن أهرب بعيدا وأنقذ نفسي من نهاية محتّمة وهي إمضاء ما بقي من العمر عتيق يوسف. أعتقد أنّي اقتربت من اتخاذ قرار مصيري وإن حتم علي الأمر أن أعمل كراقصة في إحدى الحانات أو خادمة في تلك الفنادق الرخيصة المترامية في أزقة تونس ولا أتزوّج من رجل لا أحبّه.

كفى سرقة لحرّيتنا ! أتمنى أن يتركوا لي حرّية اختيار رجل أحبّه، أستلطفه أو أتمناه في أحلامي.

لماذا يسلبون منّا كل حقّنا في تحديد مصيرنا؟

عزمت على الهروب وإن كلّفني الأمر جلب العار لنوّة فعار يصيب قلبها أهون عليّ من وجع يصيب قلبي.

مرّت الأيّام وانطفأ شغف الحياة بقلبي، أيقنت أنّي أبلغ النهاية.

دعاني يوسف يوما لمغادرة البيت لبضع الوقت بسبب أمر ملحّ وأخبرني أن أتبعه بسرعة قبل عودة الجميع للقصر.

استجمعت شجاعتي وقرّرت أن أخبره بقصة هروبي لكنّي تراجعت خوفا من أن يمنعني.

كان يوسف صديقي الوحيد في هذه الحياة، مع اقتراب نهايتي المحتمة أردت أن أشكو له وجعي فلا أحد سيأبه لي غيره، فمنذ سنوات كان يهبني كل كتبه وكل ما يملكه في المكتبة من مجلّدات قيّمة، يدعمني ويشجعني على القراءة فصرت ما أنا عليه اليوم. هذه فرصتي الأخيرة لأركع بين يديه أستجديه حتّى لا يسمح لهم بتزويجي.

نغادر دار منامة وأمشي خلف يوسف في صمت وحذر لنبلغ مفترق طريق به بعض الدّكاكين القديمة عبرناه لنغوص بين الأزقّة والأحياء التاريخيّة، أنظر بشغف نحو الزخارف، الأبواب الخشبية الشامخة.

ينتابني شعور بالهدوء ويتسرّب جمال الماضي إلى قلبي ليطمئنني بأنّ كل شيء سيكون على ما يرام.

توقفنا أمام بيت في آخر الزّقاق، استأذنا في الدخول، استقبلنا شيخ عفيف ذو وقار، جلسنا قبالته على الطّاولة، بدأ يعبث ببعض الأوراق أمامه، حملق بنا كمعتوه، رأيت ريقه يتوقف عند حلقه ويغصّ به، تجحظ عيناه نحونا ويحرك سبابته بتوتر جليّ، يلفنا الصمت والغرابة.

أتحسّس قلقه بقلبي وأشكّ بأن شيئا غريبا سيحصل، يعبث مرة أخرى بأوراقه ثم يشرد قليلا، بدا وكأنه يريد طرح موضوع ما لكنّه متردّد.

غرق في صمت مطوّل، رفع عيناه نحو يوسف وقال له بتردّد : "بني أريدك في حديث جانبي!"

خرجا نحو السقيفة، وقف الشّيخ قبالة يوسف، طفق ينفض جيوب جبّته الحريريّة وسمعته يتوسّله أن يغيّر رأيه ويثنيه عن الزواج بي: "يا ابني! هذه سوداء!

وصيفة ! ليست المرأة المناسبة لتتزوّجها وتنجب من رحمها أطفالك، صدّقني لو كنت من صلبي لمتّ كمدا وغمّا.

صدمت ممّا سمعته، آخر شيء بلغني هي كلمات يوسف ترتعش بين شفتيه بمرارة وهو يترجّاه بخوف: "كفى يا شيخنا، إنّها بشر، لها قلب، ما دخل اللّون! لا فرق بيننا في قرآنكم! أنت تجرح روحي بتماديك عليها، أحبّها وإن كانت زنجيّة، جارية، قبيحة، أحبّ روحها، العالم مليء بالاختيارات وقد يبدو لك اختياري لها سخيفا وغير منطقيّ لكنّه بالنسبة لي يمثل كلّ قلبي!

تلك المرأة ليست مجرّد لون، إنّها عشقي فإن رحلت توقّف القلب عن النبض والروح عن الحياة.

أرجوك فلتسرع بإجراءات الزّواج، وسأتحمّل جميع عقبات اختياري.

توقفا عن حديثهما، ضرب الشيخ كفيه بقوّة ورفع يديه نحو السماء يقول: "إلهي وحدك القادر على جمع القلوب من حيث لا نعلم، وتفريق ما لا يقدر إنسان على تفريقه!"

رجع يوسف إلى الغرفة وخلفه الشّيخ اَلَّذِي انغمس بين الأوراق يعدّ عقد الزّواج وأخبرنا أن نختم بإبهامنا حيث كتب اسمينا وقرأنا الفاتحة.

نظر نحونا الشّيخ في شفقة وقال في استسلام: "بارك لكما الله في زواجكما ورزقكما من خيره، أنتما الآن زوج وزوجة بأمر من الله".

كنت مغيبة ولم أبد أيّ ردّة فعل، لم تسمح لي قلّة حيلتي بأن أرفض أو أقبل.

فكّرت منذ يومين في الهروب من يوسف ولكنّي انتهيت بالهروب إليه، أعلم أنّه فعل ذلك من أجلي حتى يحول بينهم وبين تزويجي من رجل فضّ.

ضحّى يوسف بتستور من أجل حريّتي ووجد طريقة تجعلني امرأة حرّة، غمرتني السعادة التي تفجرت بكامل جسدي.

لم أكن أأبه لأيّ أحد، لم أفكّر بمصيرنا أو ما ستؤول له الأمور بعد ذلك، اَلْأَهَمّ عندي هي نجمة!

لا أحد سيرغمني على الزّواج من رجل آخر، سأبلغ حرّيتي شيئا فشيئا.

توقّفنا للحظات وسألني يوسف: "هل أغضبك ما فعلت؟"

أجبته بهدوء: "أبدا أنا ممتنة لإنقاذك لي!"

أمسك يوسف يدي وقال: "نجمة أنا لم أنقذك، أنا أحبّك، لم يكن سهلا عليّ أن أترك قلبك يتحطّم، هل ترغبين في شيء مهمّ قبل عودتنا لدار منامه؟ وبكل وقاحة قلت له: أكره لقب عتيق يوسف، هذا اللّقب سجن بالنسبة لكرامتي، أريد أن أَتَخَلَّص منه وأحلق نجمة وحيدة في سماء روحي، أريد أن أكون نجمة فقط من غير لقب، لا أريد أن أنتمي لأبي أو لك، لست متمرّدة أو مختلفة فالمتمرّدون العظماء يغيّرون أقدار الأوطان أو يجازفون من أجل قضيّة ما، أما أنا فلا رغبة لي في أن يخلّد التّاريخ اسمي، يكفيني أن أعيش في رداء السّكينة وأختار ما يريحني، الكون منحني نعمة الحياة وجئت وحيدة لا يربطني بالحياة والموت غير حبل سريّ قطعته لأبدأ أول درس على الأرض وهو الاعتماد على نفسي لأعيش، لا حاجة لي بلقب يسجنني ويجعلني أينما رحلت أنتمي لأشخاص وهم عتيق يوسف!

أنا لست عتيق أحدهم، أنتم من فرضتم عليّ ذلك، اَلْيَوْم أرفض كل ما يمنح لي من قبل أيّ رجل، أريد أن أكون نجمة فقط فهل يمكنني ذلك؟

حَدَّقَ بي يوسف في أسى وقال: "أنت منذ اليوم نجمة يوسف يجب أن تنتمي لرجل يكون سندا لك في هذه الحياة!"

أجبته بكل ثقة: "أنا أنتمي لنفسي!"

فقال يوسف بهدوء: "وطفلنا لمن سينتمي؟"

نظرت إليه ولم أصدّق ما سمعت وتمتمت باستغراب: "أتريد حقا أن تنجب طفلا منّي؟ قد يكون أسود؟"

أمسك يوسف بِذِرَاعِي وحضنني بقوّة وقال: العائلة هي انتماؤك الحقيقيّ، أنت وابني ستكونان ملك يوسف فقط ومعي ستختاران أيّ قدر تريدانه سأحميكما وأباركّكما، يجب أن تعلمي أنك لتحصلي على طفل عظيم مثلك تحتاجين لرجل!

كنت مجرّد شخص أنانيّ، أفكّر في سعادتي وخلاصي فقط، لا أصدّق أبدا أنّ يوسف الضّعيف سيفعل شيئا عظيما حيال انكشاف الحقيقة ومع ذلك ما أقدم عليه سيمنحني بعض الوقت حتّى أجد مهربا آمنا لي.

شعرت أن قصّة زواجنا حقيقيّة وأن الأحداث ستأخذني نحو منحى آخر، سأختار القدر الذي أريد وهذه بداية طريق الحريّة بالنسبة لي، لم يكن يوسف مهمّا في حياتي بقدر ما مثل لي مجرد طوق نجاة.

كان لَابُدّ لي منذ زمن أن أؤمن بالمعجزات فهي تحدث مرارا على هذه الأرض.

اليوم سيكتب تاريخ جديد لقلبي أوّل كلماته نجمة يوسف!

مرّت الشهور وعلاقتي بيوسف أخذت منحى أكثر جديّة وصدق، أصبحنا زوجين حقيقيين، كان ما يحدث بيننا عميقا وكنّا نسترق الوقت في غيابهم لنعيش وجودنا.

اثنان وعشرون عاما أمضيتها معه، أشعر باهتمامه الأخرق بي ورغم ذلك بقيت لسنوات أمقته بسبب ضعفه وغبائه، لم يكن يشبه الرّجل الذي أريد أن أشاركه حياتي وتفاصيلي، الرّجل بالنسبة لي يجب أن يكون قويّا وقادرا على مواجهة أي أذى قد يلحق بي.

الأمان هو كل ما كنت أبحث عنه، حاجتي للأمان انتصرت على مشاعري.

يوسف برجوازيّ وجبان!

كنت أعتقد أنّه لن يغادر أبدا رداء الحاجّ ويقف في وجه الجميع من أجلي.

الأسباب الحقيقيّة الّتي جعلته يتزوّجني لا أصدقها.

هل فعلا يدفع الحبّ أحدهم للتضحية من أجل إنقاذ أحدهم؟

أقصد حماني من وجع القلب إذا تزوّجت ذلك الرجل!

لا أعلم!

نحن نعيش حريّة جسدنا المطلقة، نتلامس، نقبّل بعضنا وينمو شيء في قلبي، التهامه لي بين ذراعيه وإخفائي طويلا بين أحضانه جعل قلبي ينهار.

الرقّة، الدفء وخفقات قلبه أسمعها من بين سراديب أضلعه، فينتابني شعور خفيّ بالحب، أشعر بأنفاس يوسف، علاقتنا تصبح وطيدة، يخترق مسامي ويغرس أصابعه في جسدي فأتفتّت كصخرة وينهار كل خوفي وكرهي نحوه.

انتابني شعور خفيّ حيال حقيقة يوسف! يوسف له وجه ثان لا أعرفه، عينيه وهما تحدقان بي تخبرانني أنّه يخفي الكثير من الحقائق.

هذا الرجل الّذي يعرف كيف يضاجعني ويصعد بي لأعلى غيمة يزرعني فيها مطرا منهمرا ثم يهوي بي نحو الأرض لأندثر بين شقوق الشكّ والخوف، يبني لي مسلكا نديا حيث يزهر غدا وردا وريحانا.

أنا ضعيفة جدّا بين يديه وهو قويّ وشرس كنمر حقيقيّ.

لكن سعادتنا لم تدم ، لقد أصابني المرض وبتّ طريحة الفراش، لم تعد لديّ قدرة على القيام بأعمال البيت، الدّوار لا يسمح لي أن أقف لساعات في المطبخ، اشتد بي التّعب وكان إلزاما أن يأتي الطبيب ليفحصني لكنّه فجّر بيننا فاجعة غيّرت مسار حياتي إلى الأبد.

أنا حامل بابن يوسف !

انفضح الأمر وسيكتشف الجميع ذلك.

لم أستجمع أفكاري، لم أخطّط لهروب حقيقيّ، كنت فعلا في مواجهة مع الغضب والكره، لم أتوقّع أن تؤول الأمور لهاته النّهاية البائسة، لم يسمح لي أحد بأن أستجمع طاقتي وأواجههم.

سحبتني نوّة من الغرفة ورمتني عند أقدامهم جميعا ثم وقفت قبالتي واجمة فدفعت عيني صوبها لأختبأ بينهما لكن رأيت نظرات باردة، مسحت بطرف كمها عرق العار وهو يتصبّب شاحبا من جبينها وينعطف نحو حاجبيها ليبلل سنوات شقائها، بقيت معلّقة بين أهدابها لعلّ لسانها يصرخ وتنتفض نحوي لتقف حائلا بيني وبينهم لكنّها تقدمت تجرّ قدماها وتمسح الأرض بطرف فستانها جامعة غبار الأرض وغبار روحي الّذي احترق في دار منامة، توقّفت أمامي، صمت الجميع، يوسف كان واقفا كحاجز بيني أنا والحاجّ.

خبّأت بطني بين ذراعي وشعرت بقوّة تندفع نحو أحشائي قادرة على قتل الجميع لو اقترب أحدهم من طفلي.

خيّم الصّمت للحظات ليقطعه نحيب نوّة، اندفعت نحوي كعاصفة لتسقطني أرضا وتضرب بحقد بطني وأحسست بأنّ أمعائي تتمزق وصوتها يشقّ كرامتي وهي تصرخ كمعتوهة تخونين سيّدك؟

فتنفجر بحلقي مرارة كل سنواتي من موت أبي والذلّ الذي عشناه فأنفث في وجهها غضبي كسمّ وأصرخ في وجهها الشّاحب : "لا سيّد لي غير اللّه!"

لكنها لا تبالي وتستمر في ركلي بقوّة وعنف محاولة أن تقتل جنيني، انحنيت على ركبتي وخبّأت نفسي بذراعي وأنا أصرخ أنا حرّة، أنا حرّة!

عيون يوسف تشتعل انكسارا وهوى حيث أنا يحضنني ولكن يبدو أن كل ذلك لم يثني نوّة عن ضربنا كلينا، أمّا الحاج فلم يبد أيّ ردّة فعل رمقنا بكآبة وعاد إلى غرفته.

توقفت نوّة عن ضربي وبدأت تلطم وجهها، كان منظرها مثيرا للشّفقة والاشمئزاز شعرت بالكره تجاهها وغادرت بيت منامة وأنا أتحسّس طريقي منحنية على كتف يوسف أدعو اللّه أن يذهب الجميع ويبقى ابني.

وصلنا إلى بناية قديمة في نهاية شارع ضيّق، التهمها الظلام والغرابة، بدت وكأنّها مهجورة، الصمت مطبق إلاّ من بعض ظلال نور شارد من بين شقوق الباب العتيد، دفعه يوسف ودخل مسرعا ليقفل الباب خلفنا ويجلس على الأرض لاهثا، سمعت صوت امرأة تسأل ببرود من هنا؟

أجابها يوسف بصوت خافت: يوسف!

بعد بضع ثوان دخلت المرأة الغرفة، إنّها امرأة في منتصف الثلاثينيات على ما يبدو، جمالها يهزّ عروش قلبك ويسمح لطبول الحرب أن تقرع مهلّلة بها، لم يكن فستانها قادرا على إخفاء جسدها المثير، لقد كانت ثائرة، نسيت فاجعتي وبقيت مشدوهة بها.

هل يخلق اللّه مثل هذا الجمال على الأرض؟

هل هي حقيقيّة؟

قطعت حيرتي بنظراتها المتفحّصة لي وسألت يوسف: من هذه السيّدة؟ استجمع يوسف أنفاسه ووقف قبالتنا وقال : زوجتي!

ضربت المرأة بيدها على صدرها وسمعت أضلعها تتأوّه وقالت مختنقة : "اوووه! وصيفة يا يوسف!"

أطرق قليلا ثم ساعدني على الذهاب لغرفة أخرى وهمس لي: "سأحل المشكل معها وأعود إليك! "

أمسكت يده بقوةّ وسألته: "من تكون! حاول بلطف تحرير ذراعه من قبضتي المرتعشة" وقال لي: "صديقة! ستنامين اللّيلة هنا وغدا سنجد حلاّ !"

غادر يوسف نحو المطبخ وسمعت خطواته تتوجه نحو الباب وغادر.

جلست على حافة السرير أجول بعيني في الغرفة، لم أكن مطمئنة أشعر وانّ بينهما شيء، هناك تناغم بينهما، ملامحهما تفضحهما، عرقهما تفوح رائحته من بين طيّات الشراشف، الحيطان تشي لي بصراخهما ونشوة قضياها لأيام منسجمين، جسدها يفضحها، جسد مفترس كتمساح من المحال أن يمر على يوسف من دون أن ينقضّ عليه ويلتهمه.

أمام هذا النوع من النّساء لا يستطيع الرجل المقاومة، إنهن قادرات على قتلك ببطء.

لم أكن أحتاج لاعتراف صريح منهما، من الغباء أن أرى جمالا يشبه الجحيم وأصدّق يوسف، امرأة مثلها تسقط بسببها أوطان لا الرّجال فقط.

رفعت عيني أتفحّص الظلّ الواقف أمامي فرأيتها خارجا تدعوني للأكل، تبعتها بانصياع، خانتني الكلمات لأجيبها بالرّفض، طاقتها لم تسمح لي بقول لا.

كنت أتبعها، أجلس حيث تجلس، أكل ما تأكل، تسألني فأجيب دون تفكير، مرّت ساعة وأخرى ونحن نثرثر، نظرت نحوي في شفقة وقالت: أتعلمين أنا آسفة عمّا بدر مني، كلامك ممتع، وروحك رائعة جدّا، سأحضر إبريق شاي وأعود لنكمل، لم نتوقف ليلتها عن الثرثرة.

كانت تتحكّم في إرادتي، ضحكاتها، لطفها، كانت سلسة لدرجة أنك تجاريها في الحديث وتخبرها بمكنون قلبك، أيّ النّساء تكون هذه؟

أشعر أنّها مدرّبة وأنّ ما هي عليه فعلا هو نتاج سنوات من الخبرة والتوجيه الدّقيق، الرّاحة التي تشعر بها معها تجعلك تبوح بأخطر أسرارك.

مرّ يومان ولم يزرنا يوسف، بدأت أقلق وانتابني الخوف من المجهول، عيني معلقتين بالباب، أتقصى الخطوات القادمة من بعيد لعلّي أضع عيني على يوسف فأهدأ قليلا، لكن انتهى اليوم أيضا ولم يبلغني أيّ خبر عنه.

في اليوم الثّالث قدم يوسف، عند وصوله وقف مطوّلا أمام الباب وجهه شاحب وتظهر عليه علامات الخوف والارتباك، نظرت إليه سيّدة الفندق وقالت له ما خطبك؟ أمات أحدهم؟

كانت تمازحه حتى ينطق بكلمة، ظلّ واقفا في وجوم ثمّ اقترب مني وجلس قبالتي على ركبتيه وقال لي نجمة لقد قتلت أمّك نفسها، أقصد انتحرت بعد أن طردها الحاجّ ولم تجد أيّ حلّ غير أن تشنق نفسها!

مستحيل! صرخت سيّدة الفندق.

أصابني الذّهول ثمّ نوع من الهدوء، استسلمت لآخر مصائبي، شعرت وكأنّ الحياة تحرّرني من كل أحبائي وتدفعني لأكون حرّة بحق، لم تكن هذه الحريّة التي أنشدها، أردت أن أكون سعيدة، ناجحة، منطلقة ، أردت ان يقاسمني والدي جميع انتصاراتي لكنّهما رحلا.

نوّة لم تكن من النّسوة اللّواتي يطمحن لتغيير أقدارهنّ، هي ولدت خادمة وتصدق أنّنا نتوارث هذه الصّفة لذلك ما كان ليسعدها نجاحي أو تحرّري. موتها مؤلم ولكن تحرّرت به من كلّ خوفي، لم يبق لي شيء أخافه أو أخاف عليه. كنت أنظر بهدوء في عيني يوسف الّذي أربكه صمتي وتقبّلي السّهل لموت أمّي.

حضنني وقال وهو يتفرّس وجهي اسمعي لقد وجهت لك تهمة قتلها من قبل الشّرطة وان أمسكوك سوف يزجّ بك في السّجن!

وقعت الكلمات بقلبي كعاصفة، كنت أستمع لصوت طقطقة بفؤادي، شظايا زجاج ينفجر داخلا ويخدش كلّ أمل لي في أن أصبح حرّة، انسابت دموعي، كنت أبكي بقهر، لم يؤلمني موت نوّة بقدر ما أوجعني خبر سجني لأنني بذلك لن أتحرّر أبدا من لعنة يوسف!

أريد أن أعيش بضع سنوات ملك نفسي، حرّة الروح، في معزل عن كلّ مصيبة أو مشكل.

نظرت ليوسف وقد اغرورقت عيناي بالدّموع وبصوت مرتعش سألته : كم سأسجن من سنة؟

نظر يوسف نحوي وقال لا أعلم ولكنّها سنوات كثيرة!

ضمّني إلى صدره وبكينا.

كنت أحترق.

لم يسمحوا لي بأن أحبّ أمّي أو أحبّ نفسي.

لم يسمحوا لي بأن أحيا طفولتي مثل جميع الأطفال، لقد كنت خادمة منذ ولدت.

بعد سنوات قاسية سيجزّون بي في السّجن ويلتهمون ما ظلّ بي من العمر، إنّه ظلم.

العالم ظالم !

البشر ظالمون!

أنا لم أستطع أن أختبر مشاعر الحبّ، التعلّق، لم أستوعب ماذا يعني أن تحبّ أمك أو أن تحبّ رجلا!

كنت منهارة، أردت أن أهب قلبي شيئا من الحظّ في هذه الحياة فحرمت نفسي الكثير من المشاعر الّتي كان يجب أن أستسلم لها.

الحبّ هو العطاء، عندما تعطي كثيرا تشعر بأنّك حر!

آسفة أمي لم يسمح لي القدر بأن أحبّك!

سيطر الحزن على قلبي كشتاء طويل، انزويت في الغرفة غارقة في حيرتي وصمتي.

كان يوسف يزورنا من فترة لأخرى خوفا من أن يتبعه أحدهم فيعرف مخبئي، كانت سيّدة الفندق تعتني بي جيّدا، تجلب لي الأكل وتمسح على جبيني في رقّة متناهية، أحيانا تحضنني وتغادر، فقدت كل طاقتي لا أقوى على الكلام، أتعبتني الحياة وأتعبني الناس.

كنت أفكّر في فرضيّات سوداويّة، سجن مظلم، ضيّق، أقبع بداخله مع الكثير من النّسوة نشكو مصائبنا لبعضنا ونثرثر أو نصمت لسنوات، كان المستقبل يرتسم في عقلي مظلما ومعتما.

زارني يوسف مرتين، جلس قبالتي واجما والحيرة تمزّقه، انطفأت حماستي ورغبتي بالاستمرار، مللت الوجود، لم أعد أتحدّث كثيرا، عيوني المتعبة تتعلّق بسيّدة الفندق وتفر من بين أهدابي دموع موحشة، أشعر أنّها ترأف لحالي، وتشعر بحجم الظلم الّذي أعيشه، كانت تبكي لبكائي وتصمت لصمتي ثمّ قالت في هدوء: يوسف لو ساعدت نجمة في أن تهرب لمرسيليا عند أصدقاء أعرفهم فهل تقبل؟

رفع يوسف رأسه المثقل ونظر بعينين مضجرتين وجعا وقال: أيّ مكان تكون فيه حرّة سأقبل ولكن كيف سنفعل ذلك؟

أجابت بكلّ ثقة: أترك الأمر لي، سأجد طريقة لتهريبها خارج تونس!

مسحت دموعي ورفعت رأسي وهدأت، وقبل مغادرة يوسف سأل سيّدة الفندق : هل أستطيع بعدها اللّحاق بها؟

ابتسمت بمرح وأجابت بثقة شديدة: كلّنا سنرحل معها لباريس، ستذهب نجمة ثمّ سنلحق بها جميعا، لقد انتهت الحرب، لا حاجة لنا في البقاء هنا.

أومأ يوسف برأسه موافقا وقال : نعم انتهت وسيعمّ السّلام قريبا، ثم غادر ومعه حلّت السكينة على قلبي المرتجف.

أشعر بالأمان وهو كل ما كنت أحتاجه في وحدتي وضياعي.

سيموت الانتظار وتموت معه جميع الأمنيات التي اشتهيت أن تتحقّق.

يمضي الأسبوع كئيبا، لا أعرف كيف ستنتهي قصّة حياتي.

ذلك العصر كنت جالسة كعادتي في البهو الخارجيّ للفندق، غارقة في شرودي وصمتي فمنذ بلغني خبر سجني ابتلعت لساني.

كنت ثرثارة، شغوفة وفضولية، جرّاء ما تعرّضت له من مصائب أصبحت مجرد شبح ينتظر لحظات القبض عليه.

ذلك الشرود العنيف قطعه صوت رجل فرنسي، أخفى هويته بقبّعة عريضة غطّت كلّ جبينه وأخفت في غموض عينيه، نظر إليّ بتمعن ثم سألني أين السيّدة برنارد؟

رفعت رأسي نحوه في حيرة وأشرت بسبابتي نحو المطبخ فأطلّت سيّدة الفندق برأسها وقالت مرحّبة: سيّد ديبون كيف حالك؟ أسعدني مجيئك بهذه السّرعة! ثمّ ابتسمت وهي تتجه نحونا وتسترسل في حديثها اللّبق : سيّدي إنّها لا تفهم الفرنسيّة، إنّها صديقتي وقد أرسلت في طلبك رغبة منّي في خدمة صغيرة منك، إن أمكن لك فعلها سأكون ممتنّة لك!

جلس الرّجل بيننا ونزع قبّعته ووضعها على الطّاولة، تفرّست وجهه في حذر، كان رجلا خمسينيّا، يبدو رجلا نبيلا ذو منصب رفيع في الدّولة الفرنسيّة، كانت لكنته باريسيّة فخمة، طريقته وهو يحتسي قهوته على مهل وبهدوء راقت لي، نظراته

الخاطفة يمرّرها بيننا جعلتني أسترخي وأشعر بأنّه قادر على إيجاد حلول سريعة وحقيقية، كان يستمع في تركيز للسيّدة برنارد وهذا على ما يبدو كان لقبها.

تابعت هي حديثها بكثير من العاطفة والحماس : الحرب شارفت على الانتهاء، بدأنا نعود إلى فرنسا، لم يبق لي الكثير لأقضيه في تونس، سأرحل خلال بضعة أشهر، أنا خدمت بلدي بصدق، كنت مواطنة فرنسيّة صالحة، لم أتوانى البتّة في جلب المعلومات وكتابة التقارير اليوميّة، تعلم أنّي هنا منذ سنوات كثيرة ولم أخن فرنسا، كلّ ما أطلبه من حضرتكم أن تساعدوا صديقتي بالهروب إلى مرسيليا ثمّ سأساعدها في الانتقال إلى باريس حيث عائلتي.

كان الرّجل يستمع لها في صمت ثمّ سألها: حسنا هذا أمر سهل، البواخر بدأت تغادر بمواطنينا الفرنسيين وأنت أسديت خدمة للوطن، كلّ ما تطلبين سينفذّ ولكن إن أمكنني معرفة أسباب هروبها سأكون ممتنا.

تابعت بصوت خافت: يتهمونها بقتل أمّها!

فسألها الرّجل بكثير من البرود: وأنت ما رأيك؟

نظرت إليه بكلّ ثقة وقالت له أنت تعرف الجواسيس لا يخطئون، لديهم حدس قادر على إسقاط مدن وتدمير أوطان وهذه المرأة لا قدرة لها على فعل شيء.

أنهى الرَّجل حديثهم ووقف بلطف، وضع قبّعته على رأسه وانحنى يقبّل يد السيّدة برنارد ثمّ ودّعها قائلا : أنت خدمت فرنسا وضحّيتي من أجلها، فرنسا مجبرة أن توجّه جيشها لخدمتك فلتتجهّز صديقتك للسّفر خلال يومين، هناك باخرة سيسافر على متنها مواطنون يهود فرنسيين سنؤمّن لها هجرة تليق بك.

شكرت السيّدة الرّجل، الّذي غادر وتركني في ذهول، أحاول أن أفهم كيف ليوسف أن يصادق جاسوسة.

كانت السيّدة لطيفة جدّا معي، التفتت نحوي وربّتت بيدها على كتفي بسعادة قائلة: كلّ ما حدث هنا سيظل سرّا بيننا، ثمّ عادت إلى مطبخها تدندن أغنية فرنسيّة قديمة. بقيت واجمة.

أنا في بيت جاسوسة، امرأة باعت وطني، هذا الوطن الّذي إن لم أهرب منه سأسجن فيه حتّى أتعفّن في سجونه.

وطن إن ذهبت لأشي بها سجنت وخسرت ما بقي من عمري، كنت أشعر بالقهر، كلّ تلك الأشياء التي قرأتها في كتب التّاريخ لا تساوي شيئا أمام حجم الظّلم الّذي أتعرّض له.

أنا مجرد امرأة سوداء حريتها ثمنها صمتها.

تظلمنا أوطاننا وأقدارنا، لم أكن لأقبل ولكن وضعت بين خيارين فاخترت حريّتي.

اليوم آخر يوم لي في تونس، الحرب انتهت، السلام سيعود لوطني لكنّه لن يعود لقلبي، سيظلّ الرّجل الأسود أقلّ حظ وسيحاول أن يعمل بمثابرة حتّى يبلغ قمة النّجاح ولكن نظرة احتقار واحدة أو تعال قد تهوي بقلبه، الثّقة في النفس سلاح قويّ ولكنّها لا تعني أنّنا أقوى من الألم والاحتقار والتجريح، أنّ ثقتنا بأنفسنا تمثل لنا دافعا قويا لننجح ونستمر في المحاولة حتى نحظى بحياة كريمة بعيدا عن مفاهيم العبودية.

الحريّة حق وليست هبة تقدّم من أشخاص أو دول، الحريّة هي أول درس في الوجود، من خلالها تحسّ أنّك ملك نفسك وملك رغباتك وكلّ حدود الأوطان الّتي أحدثوها هي أغلال تفصل بلدانا عن بعضها وتقسم خيرات الأرض فتجعل قوما أدنى من قوم.

بعد كلّ ما مررت به تأكّدت أنّ الحبّ يقاس بحجم التّضحيات وحجم الأيام الّتي قَضَيْنَاهَا مع بعضنا ولم نتغيّر وإن تغيّرنا فَإِنَّنَا نرغب بذلك إسعاد أحبّتنا.

أحيانا يسكن الحبّ قريبا منّا لكن رغبتنا في المحال تجعل روحنا تبحث عن أشخاص غير مناسبين لنا.

الهروب طريقة للفرار من المواجهة يتخذها الجبناء ولكن متى أعلنا أمام الجميع مشاعرنا إلا وقتلوا بداخلنا كل جميل واغتصبوا أحلامنا وراودونا على أنفسنا بأن نتخلى عن عشاقنا مقابل ضوابط اجتماعية وقبلية مقيتة، اليوم بي رغبة أن أكون هشة، جبانة، ضعيفة وأعيش ما بقي من العمر مع يوسف.

كنت ممتنة لسيدة الفندق التي وعدتني أن تلحق بي نحو باريس بعد شهر، لم ينتابني القلق حيال أي مستقبل، الطفل في أحشائي منحني الكثير من الحب والقوة.

اليوم الأول من مايو أغادر تونس، أغادر وطني الذي لم أجد منه شرّا، فقد أكلت من قمحه ولعبت لسنوات في أراضيه.

أحبّك يا وطني!

أحبّك تونس!

إنّي أغادرك مكرهة وقلبي يموت عشقا في ترابك وفي تستور وسمائك ودفئك.

أنا أرحل عنك رحيل المضطرّ وأهرب حتّى لا يمنع عنّي يوما الرّكض في حقولك وأفنى في سجونك ظلما.

سأبدأ من جديد حلمي وسأنتصر لأنّ قوّتي تنمو بأحشائي، من أجل هذا الطّفل يجب أن أستمر قويّة.

وقفنا في الميناء الّذي كان يعجّ بالمواطنين الفرنسيّين، كان يوسف يمسك بذراعي بقوّة ويحثّني على التقدّم.

كانت السيّدة برنارد تحمل حقيبتي الصغيرة بين يديها وتضغط على كفيّ بِقُوَّة محاولة تشجيعي.

وقفنا قبالة الباخرة وضع يوسف بين يَدَيَّ كيسا صغيرا من الجلد وأخبرني بأنّه يحتوي على بعض القطع اَلذَّهَبِيَّة ثم أردف قائلا: أعلم أنّك قويّة وستتخطين الأمر بسرعة، بضعة أشهر وسألحق بكما، أرجوك أعتني بطفلنا.

كنت أمسك الكيس جيدا ،حضنني يوسف بقوّة ثمّ مدّت لي السيّدة برنارد ورقة وقالت لي: بها جمل فرنسية ستساعدك حتّى تبلغي باريس، إن احتجت المساعدة قدّمي الورقة لبعض المارّة وستصلين بخير.

فتحت الورقة وقرأت تلك الكلمات المؤثّرة التي كتبتها: إنّها صديقتي وهي لطيفة جدّا وأرجو منك أن تساعدها حتّى تبلغ محطة القطار في اتجاه باريس.

كانت تحتوي على الكثير من التفاصيل، ابتسمت عند قراءتها واحتضنتها بلطف.

نظر يوسف نحوها وقال بثقة : نجمة تتحدّث ثلاث لغات بطلاقة، تكتب وتقرأ وتتكلّم الفرنسيّة جيّدا، إنها أفضل منك في ذلك وضحك بكل ثقة ففي نظره أنا قادرة على أن أجد مخرجا ما إن أبلغ فرنسا.

نظرت لي السيّدة برنارد في شبه صدمة وقالت لي :أكنت تفهمين كل ما حدث ذلك اليّوم ؟

نظرت نحوها في شفقة وحب وأجبتها بلكنة باريسيّة نبيلة: أيّ كان ما سمعت، أنت كنت سببا في إنقاذي، قد يكون ذلك صعبا على قلبي ولكن الظّلم الذي عشته كان أقسى من الاحتلال.

صافحتها كجنديّ مهزوم، ابتسم يوسف وقاطعنا قائلا: صونيا لا تتكلم الفرنسيّة وحاول ترجمة بعض كلماتي الّتي لم يكن يعي حقا مقصدها.

لم يعد أيّ شيء لديه قيمة حقيقيّة، كل ما مررنا به فقد بريقه وانتهى زمن الدّهشة وَاللَّامَعْقُول في قلبي.

أبتعد عنهما بقلب محطّم ومكسور إلى شظايا رهيبة لكن في أعماقي المظلمة أشعر أني تحرّرت.

دويّ محرك الباخرة العملاقة، رائحة البحر المحترقة بملحه، الفضاء اللامتناهي، الشّمس المختفية وراء السّحب المتلهفة في فضول لتلقي بأشعّتها على صفحة المحيط الشاسع.

مشاعري قويّة ومندفعة بغير انتظام في أذني، أترك يدي تمسح على بطني، أستشعر ابني يتحرّك في حياء، إنّه أعظم ما فزت به من ذلك القصر، إنه من ثمار الحبّ والانتظار.

أنا لا ألوم يوسف على أيّ ألم عشته، دار المنامة كانت قصرا وحلما، تسببت في كثير من الجروح في قلبي ولكن وهبتني حبّ يوسف، إنّه قدري وقد عشته لساعة رحيلي.

تركته هناك ولا أعلم إن كنت سأراه مجدّدا ولكن أخذت قطعة من روحه معي وأنا راضية بهذا فلم يكن من المتوقّع أبدا أن أكون فعلا زوجته.

أنا ممتنّة لكلّ الحبّ الذي وهبني وكلّ المعارك الّتي مررنا بها غير أنّه كان لَابُدّ أن نشعر أنّنا أحرار ولسنا عبيد الخوف وأقاويل النّاس وترّهاتهم، أنا فعلا أشعر بالحريّة.

إنّي أحلّق فوق المحيط، كان جميلا أن أبحر وأعيش هذه اللّحظات الجميلة.

نبتعد كثيرا عن تونس، أبدأ في التخلص من كل شيء إلا يوسف وأتمنى فعلا لو يكون القدر سخيا معنا فنلتقي مرة أخرى.

بدأت أبكي، لم أستطع أن أتحامل على نفسي أكثر وأقنعها بقوتي، جلست على ممر ضيق بالباخرة وأخفيت وجهي بكفي وبدأت أبكي بحرقة.

الباخرة تشق البحر وتلتهم زبده وأيقنت أني أصبحت بعيدة جدا وإني أحب يوسف جدا.

في الحياة يجب أن تتعلم حكمتين:

استمع لذات الرواية من الطرفين فالتفاصيل تخفي الكثير من الحقائق. لا تصدق كل ما تراه عينك فللحقيقة وجه آخر قد يكون أعظم ممّا يتصوره خيالك.

لا تعتقد أبدا أنّ كلّ ما تراه، تسمعه، تعيشه، تقرأه هو الحقيقة الكاملة !

الحقيقة كما سأرويها أنا هي كلّ ما حدث فعلا في دار منامة وهنشير تستور !

يجب أن تؤمن بشيء واحد.

لا تصدّق كلّ ما تسمع

لا تصدّق كلّ ما ترى

الحياة أعمق ممّا يتجسّد لك

الأعماق مخيفة جدّا !

اليوم ستكتشف الوجه الآخر ليوسف !

الوجه الآخر للحقيقة !

فلتقرأ مذكّراتي أينما كنت يا طفلي ولتعرف كم أحببتكما !

أنا يوسف ابن تركيّة، صبيّ وسيم وثريّ، ملك على عروش تستور كنت سجين دار منامة منذ صغري محاطا بالخوف والحذر، لقد كنت أسكن عقولهم.

تكبرين أنت معي يا نجمة لتصبحي امرأة، كلّ شيء فيك ينمو، ينتفض ويتمرّد، جسدك يبرز يتغير وهم يحاولون إقناعي بكونك مجرّد خادمة.

كنت تتحدّثين التركيّة بطلاقة، وتخاطبينني أغلب الوقت بالإيطاليّة.

كنت المرأة المثقّفة بالنّسبة لي ولم تكوني أبدا الخادمة، هم كانوا على علم بأنّك تخطفين قلبي يوما بعد يوم و قد طرق الحب باب قلبي منذ كان عمري خمس سنوات.

أنت نجمة عتيق يوسف!

أتعرفين ما معنى ذلك؟

كنت مُلكاً لنا، لعائلتنا وانتهت العبوديّة بفرمان قانونيّ.

لكن بقيتِ ملكي يا نجمة، فنحن لا نستعبد النّاس ورقا ولا نشتريهم من سوق العبيد.

اليوم استعبدك قلبي ولن أعتقك ولو كان الثّمن حياتي!

نجمة أينما كنت وفي أي أرض اختفيت ستظلّين ملك يوسف.

أحببتك منذ ولادتك.

أيّا كان لونك ووضعك فقد كان القصر شاهدا على نمو مشاعري تجاهك.

كنّا سجيني الجدران وبوّابة الخشب الهائلة الموصدة.

العالم خارجا كان مختلفا لا يشبهك.

بدأ حبي تجاهك يكبر فأفقدني توازني وعقلي.

كانوا ينتظرون أن لا أصادقك وأتجاهلك وأنا أشمّ عطرك ربع قرن حتّى رحيلك ولا أحبك.

كنت أنا العبد!

كنت أنا سجينك!

تمر سنوات ونحن نكبر معا بعنف ثمّ يريدون منّي بكلّ بساطة أن لا أحبك!

أنا اليوم في سجني .

أين أمضي آخر أيام عمري مجنونا ....

أريد أن أخبرك أنّهم ينادونني عتيق نجمة !

فمنذ رحلتي أصبح يوسف حرّا حد الجنون.

مع رحيلك أنتظر موتي .

وإذا وقع بين يديك هذا الدّفتر تأكّدي أنّني ميّت وأنّك تقرئين الوجه الآخر للحقيقة وقصتنا يا نجمة

يوسف عتيق نجمة.

طفل في الخامسة من عمره، ابن لامرأة جميلة اسمها دفنه، تتزوّج من رجل ثريّ، تبدو وكأنّها رواية من الأساطير القديمة ولكن الحاجّ يوسف تزوّجها من أجل أن تنجب له صبيّا.

كانت الابنة الكبرى لتاجر تركيّ يبيع التحف المزخرفة والسجّادات العثمانيّة القديمة وبالنسبة له كانت صفقة مربحة أن يحظى بنسب أكبر فلاحي تونس وقتها.

أبي كان متزوّجا من لالّة يامنة امرأة وقورة، لطيفة وهادئة وأعتقد أن الحاجّ مستعدّ أن يهبها عمره كلّه من أجل طاعته في كلّ شيء فهي لا ترفض له طلبا رغم زواجه بامرأة أخرى.

وهكذا تغيّر اسم أمي من دفنه إلى تركيّة، مع أنّ أمّي قد كانت راضية بحياتها الجديدة وتقديرها لأبي واحترامها للالة يامنة فإنها لم تستطع يوما أن تعيش في تستور، وأصابتها الكآبة في فترة حملها بي، عند ولادتي أيضا ألمّ بها اكتئاب شديد فقرّر أبي أن يشتري لها دار منامة بحلق الوادي.

انتقلنا للعيش هناك مع بلوغي شهري السّادس.

الجزء المهمّ من القصّة أنّ أمي حظيت بخادمة سوداء كانت زوجة مشرف الحصاد الخاصّ بعائلتنا والّذي أعتقد أنّ عائلتي توارثته أجيالا منذ مئات السنين حيث عاش في تلك الأرض جدّه وجدّ جدّه، إنّها شجرة معقّدة من أجيال كثيرة.

بعد أن تقرّر منع العبوديّة في تونس رحل أغلبهم لينتشروا في أرجاء البلاد وظلّ بعضهم في خدمتنا وهكذا حضوا بلقب عتيق يوسف وهي كنية جدّ يوسف الّذي وهبهم حرّيتهم.

ظلّ معنا خادم واحد نطلق عليه اسم جدّي تيجاني وهو يخدمنا منذ سنوات، فالأرض بالنسبة لهم شرف ووطن وحياة.

تزوج التيجاني منذ سنوات عديدة من امرأة تدعى نوّة لكنها لم تنجب منه أطفالا وبقيت في خدمة لالة منانة حتّى تزوّج أبي بتركيّة.

خلال السنة الّتي قضّتها أمّي في الهنشير تكوّنت علاقة حبّ وودّ بين المرأتين، ارتاحت أمّي كثيرا لها حتّى أنّها عندما تقرّر رحيلنا إلى تونس أصرّت أن تأخذها معها وهذا ما حدث فعلا.

بعد مرور خمس سنوات عشتها وحيدا متسلّقا أحضان أمي متخفيّا هناك كالملك الأوحد والأقوى فبعدها لم تنجب تركيّة طفلا آخر غيري وعشنا منغمسين في وحدتنا وهدوئنا حتّى حلّت تلك الليلة التي يصعب نسيانها !

كان الوقت يمرّ ببطء ونحن نستمع لصراخ نوّة يمزّق القصر وأمّي تأمر السايس بإحضار القابلة بسرعة.

كنت حينها صغيرا لكنّي على وعي بما يحدث حولي ذلك اليوم.

كان يوما من أيّام الشتاء الباردة، السماء صافية تعبرها سلسلة من الشّهب الضّائعة عن المجرة، وقفت تركيّة في وسط البيت وهي ترتدي فستانا قطنيّا وترمي شالا ثقيلا من الصّوف وتدعو الله بلكنتها البلديّة أن تمرّ هذه اللّيلة على خير.

سمعنا طرقات على بابنا الخشبّي وما إن فتحناه حتى تقدمت امرأة عجوز، سألت عن نوّة في قلق، أشارت أمي بيدها إلى الغرفة الّتي ضجّت بصوت صراخها، كنا مجتمعين حولها وأنا أنظر بفضول نحوها، حاولوا طردي من الغرفة وأمروا الخادمة بإخراجي، وحتى يسمح لي بالبقاء انفجرت بالبكاء وإصدار أصوات مزعجة فأمرتها تركية بتركي جالسا بينهم وهي تتمتم: سينفجر راسي من صراخهما!

أخفت المرأة رأسها داخل الغطاء وقالت: "إنّ الطفل على وشك الخروج". وبدأت تضغط على بطنها وتطلب منها أن تستجمع قواها وتحاول دفعه.

نوّة تصرخ وتلعن اليّوم الّذي حملت فيه والّذي تركت فيه زوجها يضاجعها، القابلة تمازحها هل ستعيدين يا نوّة فعلتك؟ فتتأوّه باكية توبة! لن أعيدها أبدا! فينفجرن ضاحكات ويقلن لها ستنسين يا نوّة فلا توبة بعد حلاوة.

لم تكن ثرثرتهن مهمّة لأنّي كنت منشغلا بتفاصيل الولادة، أطل علينا الطّفل برأسه وأخذ يبكي بأعلى صوته وكأنّه في حالة صدمة.

كنّا نرمقه بدهشة وهو يبكي، توجّهت به القابلة نحو طاولة وضعت عليها بطانية من القطن ومناشف وقامت بتنظيفه ممّا علق به من دماء.

رفعت رأسي في اتجاه أمّي وسألتها في فضول ما اسمه؟ وقطع صوت القابلة حيرتنا لتخبرنا أنّها فتاة!

عمّ الصمت المكان ووقفنا مجتمعين فوقك كأنّك شّمس ونحن كواكب.

كنت أراقبك وأنت تتحركين وتغصين بدموعك وأحسست كأن حبلا انسلّ من قلبي وارتبط بك .

كان شعورا ساحرا فقدت معه روحي وانصهرت بك.

أمسكت ثوب تركيّة وانفجرت بالبكاء طالبا منهم أن يتركوا لي مهمّة اختيار اسمك.

وضعت أمّي يدها على رأسي وقد أتعبها صراخي وسألتني ماذا اخترت لها كاسم ؟

صمت قليلا ثمّ قلت بكلّ ثقة : "نجمة !"

مرّت بعض الثّواني وأمّي مطرقة في تفكيرها وتمتمت في استسلام حسنا سيكون اسمها نجمة عتيق يوسف !

نجمة !

توقّفت لحظتها عن البكاء وبدا لي وكأنّك لاحظت وجودي بقربك ورمقتني بعينيك الملوّنتين.

كنت بحجم كفّ اَلْيَد، عيناك تلمعان وتراقبان يدي وهما يمرّان على جسدك في توجّس وفضول يفحصانك ويلمسانك بحب.

شعرت وكأنّك قطعة منّي وأنّ اسمك ارتبط بي إلى الأبد فأنت ستكونين ملك يوسف !

أنت بكل براءة الطفولة وهوس طفل في الخامسة من عمره أصبحت ملكي !

طفولتي مع نجمة كانت رائعة، كبرت سعيدا وَمُدَلَّلاً، كانت تركيّة تعاملني معاملة خاصّة، حتّى هفواتي كانت مضحكة بالنسبة لها، عشت مع نجمة في دار منامة وحيدين خلال فصل الشّتاء.

كانت نجمة صديقتي الوحيدة، عاملتها مثل صبيّ وتحكمت في تصرّفاتها فآمرها باللعب معي بالكرّة أو لعبة السّارق والشرطيّ أو لعبة الأسد والدب...

كنت أعاقبها بالضّرب وأتعمد إزعاجها، لا أنام ليلا حتّى أتأكّد أنّها نامت من شدّة التّعب. أبدأ صباحي بها، فهي أوّل من أراه بعد أمّي مباشرة.

افتح عيني على وجه تركيّة الّتي تغمرني بسيل من القبلات والأحضان وتساعدني على تناول فطوري ثمّ أنهض كالمعتوه باحثا عنك في أرجاء الدّار نجمة، نجمة!

فتأتين مهرولة بشعرك المنكوش وقامتك المدوّرة مثل سائر الأطفال.

أبدأ في إزعاجك، نركض في كل مكان ونحدث ضجّة كبيرة في البيت، نمضي كامل اليوم في اللّعب واللّهو وضحكاتنا تملأ البيت.

كنت أحبّ نجمة كثيرا فهي جزء من طفولتي، لكن تركيّة كانت تعتبرني سيّدها وأنّي رجل ويحقّ لي أن آمر خادمتي.

كلّما رأتني تناديني وتضمّني طويلا ثم تتنفّس كلماتها في أذني بفخر وكبرياء وهيا تقول لي: "ابني سيّد رجال تونس!"

أمّا أنا فكنت منشغلا عن كلماتها في اللّهو وإزعاج نجمة، لا رغبة لدي بأن أكون سيّدا على أحد.

كنت في الحقيقة مجرّد طفل يحب نجمة بكلّ براءة الروح وصدق القلب !

ذات صيف كئيب زارنا بعض أقربائنا المزعجين.

يومها انكشفت أمامي جميع قوانين العالم الخارجي !

العالم الّذي يتخطّى بابنا لا يشبه قلبي ولا يرى بعيني!

نجمة بالنسبة للجميع مجرّد خادمة زنجيّة وبيني وبينها مسافة عميقة وهوةّ سحيقة.

كنت واقفا مشدوها وشبه غريب عن الجميع وأنا أسمع في وحشيّة مزّقت نبض قلبي صوت الأطفال وهم يصرخون بها: وصيفة، وصيفة!

كنت أجدهم جدّ هلعين !

يخافونها !

أخبروني بأنّنا أسيادها فلماذا تشاركنا ألعابنا وهي لا تنتمي لعرقنا أو لوننا !

انهرت في مكاني من شدّة الألم والضّياع فعقلي الصّغير لم يكن قادرا أبدا على استيعاب أن هذه الطّفلة ستكبر وتكون خادمتنا.

لم يكن أحد يتخيّل أنّ هذه الصّغيرة ستمثّل قدري، ذكرياتي وسعادتي، لا أحد سيصدّق البتّة أنّنا قادرون على عشق امرأة في هذا السنّ.

من سيؤمن بأنّ طفل العاشرة يعشق طفلة في الخامسة ويرى أنّها كل سعادته. تجمهر الأطفال حولها وبدأوا يصرخون في وجهها يا سوداء!!

انهار قلبي وانقطعت أنفاسي، استجمعت كلّ شجاعتي وصرخت قائلا : اركضي يا نجمة!

بدأت الصّغيرة تجري متعثّرة وتحبو نحو العلية لتتوارى عن الأنظار وينشغل الصبية بألعابهم.

انسحبت في هدوء وذهبت أبحث عن نجمة بين غرف القصر ومع اقترابي من غرفة المؤونة المنزوية بآخر ردهة العلية أبصرت قريبي محمد عليّ ينظر إليها ويحاول إزعاجها.

كان يتدلّى في الباب ولم يلاحظ وجودي خلفه وأنفاسه تعبث بأذني وهو يهمس بصوت متهكم: سوداء أين أنت ؟

كان يتأرجح كدغفل مكور ويكاد يفقد توازنه ليهوي أرضا، لم أفكر كثيرا ودفعته من الخلف بكلّ قوّتي ففقد توازنه وتدحرج على السلّم مثل حبة بطيخ لينفجر رأسه مرتطما بالبلاط الأملس ويصرخ من الوجع ليهزّ أركان دار منامة وتونس !

اجتمع الكلّ حوله في رعب وحملوه إلى المشفى وهو يردّد مرعوبا : فقدت توازني فجأة!

لحقته النسوة إلى المشفى وبقي الأطفال في الغرف أمّا أنا فلم أتحرك من مكاني أراقب نجمة، أنظر لعينيها وأحسّ وجعها.

هي الآن تدرك أنّها ولا مكان لها بين ألعابنا لكنها ترفض تلك الحقيقة بكلّ مرارتها.

اقتربت منها وجمعت كفيها بين يديّ الصغيرتين وأقسمت أن أمسح الحزن عن جفنيها المرتعشين.

أتعرفين شيئا يا نجمة !

أنت غالية على قلبي كثيرا، أنت مهمة بحجم حبي لأمي، وعدتك يومها وأنا أراقبك عندما حلقت شعرك وأنطفئ توهج عينيك بأن أحميك لقد أوجعني انكسارك.

كنت طفلا ولكن الحبّ لا عمر له !

الوجع لا عمر له!

وحتّى رغبتي في أن أكون معك لا تقاس بالزّمن.

أفظع الحقائق التي واجهتني وأنا طفل هي أنّ العالم عنيف، قاس ومختلف عمّا تخيلته. الحقيقة الثّابتة اليوم تقول إنني أبيض برجوازي وغنيّ وأنت خادمة سوداء ومعدمة.

يوسف ملك على عروش تستور وسيرث الأراضي والحيوانات وكل ما يملك الحاجّ. نجمة سترثين لقب عتيق يوسف، وأينما رحلت سيعرفون أنّك تنتمين لشيء ما أعلى منك نسبا وجاها.

أنا أملك العديد من المدرّسين وأكتب جيّدا وأذهب إلى المدرسة أمّا أنت فتسترقين السّمع وتحفظين ما أتعلمه من دون معلّم، يبدو أن قدرك لا يشبهني!

بدأنا نكبر في حذر وحرص.

تركيّة تخاف اقترابنا من بعضنا، تراقبنا، تأمر نجمة بالقيام بأعمال التّنظيف رغم صغر سنّها، وتعلمها خدمتي.

تذلها !

تتعبها !

تجعلها تواجه الحقيقة من خلال تحقيرها أمام ضيوفنا ونوّة !

تناديها يا خادمة !

يا هاته

يا وصيفة !

أيّ كنية غير اسمها !

كنت أحبّ أمي جدّا ولكنّها تتفنّن في تعذيب نجمة نفسيا.

وهي كانت ذكيّة جدّا !

يذهلني صمتها، برودها وحفظها المتقن للّغات.

كانت لا تبرح مكانها بجانبي ما إن أبدا درسي فتركيّة تأمرها بقسوة حتّى تظلّ واقفة قربي لتنفّذ أوامري وتمر السنوات ونجمة تتفوّق عليّ في الدّراسة.

بدأت تدفعني لحب المطالعة من فرط شغفها بالقراءة وصرت أخاف اهتمامها بكتب التاريخ والأدب.

لقد أصبحت واعية جدّا بالعبوديّة التي تعيشها في هذا البيت وصارت تتطلّع إلى حرّيتها الكاملة في الحياة.

بتّ أخاف عقلها المتعطّش للمعرفة وأضحيت قاسيا معها وما عدت أضيع أيّ فرصة لأعاقبها وأوبّخها إذا أخفت أحد كتبي بين طيات فستانها.

كنت في حالة عشق شديد فذكاؤها وخفّة روحها كانا كافيين لجعلي سجينا لظلّها وكلماتها.

كنت مجرّد شاب غنيّ ولكن نجمة كان ثراؤها منبعثا من روحها. أيقنت أنّي ورثت أشياء لا أحملها معي إلى أيّ كلّ مكان.

لا أحد يمكن أن يعرف ما أملكه إذا لم أخبره عن ذلك غير أن نجمة تمتلك كلّ جمال الكون فما أن تتحدّث حتّى تسحرك ببلاغتها ويقع قلبك شغفا بها.

خفت أن يكتشف أحدهم عبقريتها المفرطة فيأخذونها إلى الهنشير ليجعلوا منها خادمة لهم وسيطفئون في عقلها جمال المعرفة.

بدأت أقسو عليها جدّا!

أصرخ في وجهها وأحذّرها من التحدّث مع أيّ كان أو الدخول في نقاش.

بدت عليّ علامات الانفعال أكثر من ذي قبل وأردّد نفس العبارات: "أنا سيدك أأمرك أن لا تفتحي فمك! هل سمعت يا نجمة ؟ سأقتلك أن سمعتك تتفوّهين بأيّ كلام ممّا تقرئين!

كانت تخافني فتلوذ بالصّمت وأنا كنت أخاف رحيلها فأعاقبها.

هكذا كنا نكبر وهذه قصّتنا البسيطة المغلفة بالظّلم والطبقيّة.

دار منامة كانت تجسيدا عنيفا لما يحصل حقّا في العالم جرّاء التفاوت الطبقيّ وقضية اختلاف اللون بيننا، لم أكن بحاجة للمعرفة الكاملة أو السَّفر حول العالم لِأؤْمن أننا لا نشبه بعضنا وأنَّه لا وجود للعدالة المطْلقة على الأرض، فأبي وأمي كانا يفتعلان مشاعر الحب تُجاهَهم ولكن ما أن يختليان بنجمة إِلَّا ونعتاها بالوصيفة.

بيد أنّ الحقيقة خلف تلك الأسوار الجميلة وبابنا الخشبيّ العتيد لم يكن أحدا ليتخيّلها أو يصدق بأنّ قلبي قادر على التوقّف مع رحيل نجمة بعيدا.

تمرّ السّنوات، كبرت وازددت وسامة، ها أنا أبلغ سنتي الخامسة عشرة وتلك الطّفلة لا تتعب من خدمتي بشغف وصدق.

كان يزورني أربعة مدرّسين مختصّين في اَللُّغَات، أحدهم عنصريّ بطريقة نابية.

وهنا تبدأ قصّتي يا نجمة !!!!!

فلتحبسي أنفاسك ....

جيوفاني العجوز الإيطالي يشبه حَبَّة طماطم نتنة، كان شديد الحمرة والشّحوب وبدا لي وكأنّه يختنق طوال الوقت، عيناه جاحظتين ونسق أنفاسه يتتابع بفوضى.

نجمة كانت وقتها مجرّد طفلة لم تبلغ بعد الحادية عشرة، ترتعش أناملها الرّقيقة كورقة في مهبّ الرّيح كلما أمرها جيوفاني بإحضار كأس ماء بتعال وتأفًف.

تركض نحو الطّاولة وتحاول جاهدة أَلّا تفقد تركيزها وهي تملأ الكأس النحاسيّ ببعض الماء وتقدّمه في خوف جليّ لجيوفاني اَلَّذِي يدقّق في عينيها ويمتعض مشمئزّا ثمّ يمسك يديها بقوّة ويقترب من أرنبة أنفها ويكتفي بالصمت وفجأة يصدر فحيح كأنّه أفعى فتقفز من شدّة الخوف ويتناثر الماء على قميص العجوز الّذي يدفعها أرضا ويضحك بغباء ويلتفت نحوي قائلا: هذا ما تفعله السوداء بقلبي ما إن أرها ! أتعرف كيف يفعل قلبي مع اقترابها مني؟ ثم يهزّ بيديه ويحرّك كفه بارتعاش ويقول لي وهو غارق في ضحك هستيري: هكذا ترتعد فرائصي برؤية الزنجيّة! إنها تشبه قطّة سوداء بائسة!

كان قلبي يهوى عميقا عندما أرى دموعها تبلّل وجهها وتنهمر نحو الأرض فأتحسّس صوت تصادم دمعها بالأرضيّة الصلبة وهنا أكره كل الأرض!

أكره البشر وحقدهم!

أكره العنصريّة!

أغتاظ من تواجد لونين على الأرض واحد للنبلاء والثّاني للخدم!

أكره نفسي وأحقد على جيوفاني!!

كمْ مضى من الوقت وأنا أحرّره من إنسانيتي وأدفنه في زاوية حقدي وأقنع نفسي بالثأر لقلبها المنكسر.

كان جيوفاني رجلا بدينا لدرجة أنّ بطنه يتدلّى على جانبي الكرسيّ ويلهث إذا تحدّث كثيرا، يضغط دائما على صدره ويسعل كشيخ ويقول ضاربا بقبضته على صدره: قلبي يكره هذه الزنجيّة!

كان شبيها بجرذ هارب من عنق بالوعات إحدى المجاري أضاع طريقه نحو دار منامة ليدرّسني الإيطاليّة.

كان كريها وكنت مجبرا أن أوقّره وأتحمّل غلاظته مع نجمة.

لا يتوقّف أبدا عن شرب دوائه إذا ما أصابه التعرّق والهذيان، يلهث كثيرا لدرجة أنّي أشعر بأنّ نفسه سينقطع، فيبدأ بالبحث عن الهواء وتهرع نجمة للمطبخ لجلب كوب من الماء كما تفعل كلّ مرّة، وهو لا يضيع أيّ فرصة ليهينها، لم أكن قادرا على الصّراخ به أو طرده بعيدا عن عالمنا أنا ونجمة.

كانت الحياة جميلة ونحن نكبر مع بعضنا هادئين وحالمين، لكن العجوز جعل من جميع الأيّام الّتي يدرّسني فيها جحيما حقيقيّا وبدأ توهّجها ينطفأ وحماستها تذوب.

في أحد الأيّام، أعتقد أنّه كان أوائل شباط نسي جيوفاني علبة دوائه وغادر من دون أن يعود لمدّة أسبوع، أخفيت الدّواء في غرفتي وصدقا قضّيت العديد من اللّيالي أراقب أقراص الدواء وأخمّن ما هو مرض العجوز فلا يسعفني خيالي في معرفة هذا الدّاء.

كان عدد الأقراص المتبقّية عشرون قرصا، حاولت أن أحوّلها إلى مسحوق ولكنّ الأمر لم ينجح وفي محاولة أخيرة وضعتهم في كأس ماء ونسيت أمرهم لأيام حتّى عاد جيوفاني لزيارتي وتقديم درسه.

كنت مرتبكا وأنا أبحث عن الكأس الّذي دسسته بين ملابسي خوفا من أن تجده نوّة فتسكب ما فيه، وعندما ظفرت به حملته بحذر لأتفحّص ما به فلم أجد شيئا.

ذابت جميع الأقراص وتحوّلت إلى عدم!

كان ذلك ظهيرة يوم الثّلاثاء، عندما بدأت أتلقّى الدّرس في هدوء وعيني جيوفاني ترمقان نجمة بازدراء وتناهى لمسمعي سعاله الحادّ وغصّ في أنفاسه.

كان الرّجل يختنق حقّا وتغيّر لون وجهه فاقتربت منه نجمة في حذر وإذ به يدفعها أرضا.

وقفت بهدوء ونظرت نحوه دون اكتراث، شعرت أن إساءته لها هي إساءة لي وكان لابدّ أن أنتقم لكرامتها، كنت أعلم أنّ جيوفاني مسخ إيطاليّ ولن يكفّ عن أذيّة الآخرين إلاّ بموته.

جلبت له كأس الماء ليشرب ما فيه دفعة واحدة.

لا أعلم إن كان طعمه غريبا ولكن كنت على ثقة أنّه لم يستسغ الطّعم كثيرا وبقي يتمطّى لثواني وتوقّف بعدها يتجشأ ليغادر دار منامة إلى الأبد.

في الغد!

ذلك الغد القريب الّذي بلغنا فيه خبر وفاة جيوفاني بسكتة قلبيّة، لقد انتهى الرّجل كدبّ شرس.

مات بعد مغادرته لدار منامة وبلوغه منزله في آخر الشّارع، وجده ابنه منكفئا على وجهه وقد تهشّم إبريق الماء في الغرفة لشظايا متفرّقة وكان العجوز ميتا كجرذ.

دفن جيوفاني بكل هدوء وعلمت أنّه كان يعاني من مرض قلبي نادر ومات بسبب شرب كميّة كبيرة من الدواء! هكذا أخبرت الشرطة ابنه ولكن كنت الوحيد الذي يعلم أنّ طباع جيوفاني هي الّتي كانت سببا في موته!

بعدها .....

عاد توهّج نجمة ...

عيناها مشرقتان كشمس أبريل وثغرها مبتسم كحقل أقحوان ..

تحلّق في سقيفة بيتنا كفراشة تائهة وتهمس في أصص الورود محدّثة إياهم عن تحرّرها واسترجاع كرامتها، ترفع رأسها نحو الأعلى وتتفتح عيناها كبتلات زهور النّرجس بشغف وبدت كأنّها مؤمنة بأنّ الله والسماء ينتقمان لها من كلّ من يسيئ لها ومن هنا بدأت تستمدّ طاقتها وجبروتها.

ثم عاد شغفها للقراءة وسمحت لها بأن تدسّ كتبي في ملابسها وتستعيرها لأيّام.

كنت واثقا أنّ الكتب تجعلها سعيدة جدّا وتعيد لها كرامتها وتبعث الفرح في قلبها وقلبي !

وتمرّ السّنوات رهيبة وملتهمة لكلّ ما مضى من ذكريات.

لا أحد يملك المعرفة الكاملة بقدره .

لا يمكن أن تستوعب سرعة الزّمن كيف تمضي.

لا يوجد منطق كيف نولد ونكبر فجأة لتتغيّر مشاعرنا من براءة الطّفولة إلى نضج الشباب.

لا يرغب أيّ منّا في أن يجد نفسه بالغا فجأة وأنّ سنوات طفولته تمضي كحلم.

هذه الحقيقة أصبحت شبه كابوس يجثم على قلبي وحوّلت مسار حياتي إلى الأبد.

كنا مجرّد طفلين وكان كل اهتمامنا منصبّ على بعض الكتب الّتي نتنافس على قراءتها في وقت قياسيّ.

كنت مكتف وجد سعيد.

كنت أعيش حلما لا متناهيا.

لكنّك اليوم تبلغين السّابعة عشرة وتتمرّدين على قدرك وترغبين في الهروب من دار منامة.

كان الواقع الّذي تعيشينه ينافي كل أحلامك الّتي رسمتها، كلّ تلك الكتب اَلَّتِي قرأتها تحوّلت داخلك لوحش وبدأت تزحف خارجا كغول يريد كسر كل قيوده والفرار نحو الفضاء أين توجد الحرية الكاملة.

أنت بدأت تنتفضين... ترفضين... تقاومين...

تريدين الهروب بعيدا عن دار منامة...

هل أحببتني يوما؟

لا أعتقد! أنا لا ثقة لي بقلبك!

لكن كنت أعلم أنّك ذكية وأنّه لا طريق لك بالخلاص غير الزّواج والفرار بعيدا مع زوج يمنحك لقبه وتسرقين منه عنوة كامل حريتك كامرأة.

أنت متمرّدة وثائرة ولن يوقفك شيء عمّا رسمت لنفسك!

لكنّك لم تعرف أبدا يوسف!

فلتستعدي يا نجمة لبقيّة القصّة ولتحبسي أنفاسك...

في السّابعة عشرة رأيتك وأنت تلتهمين إسماعيل بعينيك وتنظرين إليه بشغف.

إسماعيل كان فارسا مقداما يمتطي جواده ويجول في الحقل كملك فرعونيّ بجسده الأسمر كتمر عراقي وشعره المجعّد بلون اَلْحِنَّاء.

كنّا نزور كلّ صيف تستور ولم يكن هو هناك، قدم حديثا لخدمتنا فقد كانوا بحاجة لعامل قويّ يكون رجلا على الأرض إن وطأت قدماه التّراب يتصاعد الغبار عاليا نحو زخارف السماء.

بعد سبع عشرة سنة يأتي رجل ما، من إحدى المدن الجنوبية لتمتدّ عيناه نحو حلمي، لتمتدّ شفتاه نحو رغبتي وقدري، كنت أقف بعيدا أراقب نظراتكما المختلسة من بين أشعّة شمس قيض تمّوز، نظرات نجمة تتحوّل لذراعين يمتدّان نحوه لاحتضانه، نظراتها تتحوّل لأصابع تلاعب جسده، شعره، وجنتيه.

هي تعلم أنّي أراقبها، تعرف أنّي ظلّها منذ سنوات ولكنّها لا تبالي بي أبدا، تشعر كأنّي شيء ملكها ومهما فعلت من حماقات سأغفر لها كلّ خطاياها وأنسى جحودها وخيانتها لقلبي.

أنّها تريد الفرار من أسوار بيتنا نحو قدر هي تختاره وتكون سيّدة يومها وكوب قهوتها وتكون قادرة على حمل كتبها بكلّ شجاعة وتناقش أسباب الحروب وسياسة التفرقة وتتمرّد على كلّ من سيقول لها اصمتي فمكانك هو المطبخ!

العلم كان منحدرا عنيفا يتركك لا تتوقّف عن الركض وتخلق لك جناحين لتطير بهما قبل ارتطامك بصخور الهوّة، القراءة كانت شبيهة بشمعة أضاءت ظلمات عقل نجمة وتركتها تعرف ما يحدث خارجا وما هي حقوقها الّتي يدافع عنها الكثير حول العالم.

كانت المعرفة شبيهة بصدمة حقيقيّة تركتها تكره واقعها وحقيقتها الّتي في اعتقادي أنّها كانت من صنعنا وحياكتنا، لقد ألبسناها ثوب الخادمة منذ ولادتها وتحكّمنا في قدرها ولكن لعنة الحريّة طالت قلب نجمة ومثلما تخلّصنا من الاحتلال الفرنسيّ لأراضينا واستمتنا لنحظى بسيادتنا الكاملة فنجمة فعلت ذات الشيء وأنا واثق أنّها سترحل ذات يوم وسيكون ذلك وشيكا.

اللّعنة على الكتب!

تركتها ترى نفسها حرّة وسأفقدها إن لم أقدم على خطوة شجاعة تثبت لها أن يوسف سيّد رجال تونس وسيّد تستور !

يا رب أنا أحترق!

نجمة تنساب من بين يَدَيَّ نحو إسماعيل الّذي لم يتوان لثانية أن ينطلق نحو تيجاني ويخطبها له.

قال له بشجاعة الفرسان: أريد ابنتك زوجة لي! ووافق التيجاني بكلّ سهولة ورحّب به كزوج مستقبليّ رائع.

أنا يوسف تفتّت كحبات رمل قد مرّ عليها جرم كونيّ تائه !

هل كنت أقلّ شجاعة منه؟

هل كنت جبانا ؟

هل فعلا أربكتني ردّة فعل أبي ونظرات الاحتقار بعيون تركيّة وهي ترى شمس تستور تذهب نحو أحضان خادمتهم السوداء لتلتهمني ككثبان الرمال؟

هل أنا أقلّ رجولة من إسماعيل؟

إسماعيل كان رجلا حرا وأنا كنت العبد!

نجمة الذكيّة، الداهية، التهمت نصف كتب التّاريخ وهي تعرف أنّي عبد للحاجّ وتستور وأنّها الوحيدة من تمتلك حرّيتها الكاملة في أن تهرب حيثما تشاء!

هي أرادت إسماعيل لأنّه يمثّل لها كل كرامتها واختياراتها، أنا كنت بالنسبة لها ضعيفا، في تبعيّة مقيتة لثروة أبي وغرور أمي!

لكن نجمة لم تكن تعلم أنّ للحقيقة أكثر من وجه، أنّنا لا نكون دائما على حجم تصوّرات واعتقادات الغير بنا، لكلّ منّا أسراره وخفاياه.

تخيّل أنّنا نتحدّث عن الإنسان، هذا المخلوق ليس بسيطا بتلك الكيفيّة الّتي تراني بها نجمة!

هي تجدني فتى مدلّلا ذلك الثريّ الّذي ينساق نحو برنس أبيه وأحضان أمّه الّتي تخاف عليه من نسائم الفجر الباردة.

لكن خاب ظنّ نجمة!

أنا كنت وحشا جميلا!

لا أصدّق كيف يعتقد البشر أنّ الوحوش تكون بشعة بأهداب طويلة تغطّي عيونها المفقوعة ولسانها يكون محاطا باللّعاب وهو يسبح حول أنيابه باحثا عن شيء يسحقه ويلتهمه.

الغريب أنّها لا تصدّق أنّني كنت وحشا ذا عيون زرقاء، شعر كستنائيّ، أنف دقيق، كنت طويلا بقامة فارعة.

لا تصدّق أبدا ما تراه عينيك!

المظاهر خادعة.

لا تصدّق حتّى قلبك أو حدسك.

هناك بشر يتغلّبون على طاقة العقل في التصوّر، ليس كل ما تعلمناه حول الذئب الّذي التهم الفتاة في الغابة صحيحا، أحيانا يلتهمنا آباؤنا وأمهاتنا وحتّى أنفسنا، لا يجب أن تجزم البتّة أنّ السيئين يعيشون في المستنقعات وينامون في الحانات بين أفخاذ النساء العاهرات، هناك الكثير منهم ينامون بضميرنا فيقتلون فينا إنسانيتنا ويقتربون ليسحقوا كل جميل داخلنا.

كان الأجدر بنا أن نتعلّم أنّ في هذه الحياة لا يوجد منطق تقاس به الأخلاقيات.

لا يوجد تصوًر صحيح لمسار قدرنا واختياراتنا ولا يوجد دليل يثبت أنّ أطفالنا يكبرون كملائكة.

يكبر في جميع أنحاء الأرض الكثير من المجرمين مثلي لكنّك لا يمكن أن تصدّق أنّ الطّفل الّذي كبر في أحضانك هو في حقيقته وحش قاتل.

التوقّعات من أكبر الكوارث الّتي تحلّ بالقلب لأنّك ستنتظر شيئا وسيفاجئك قدر مريب بشيء لم تكن لتتوقعه، وأنا كنت من أولئك القلائل الّذين يعلمون أنّ ما تراه العين كذبة كبيرة وأنّ الحقيقة لن تكتشفها حتّى تغوص عميقا وربّما تغادر الحياة دون بلوغ ذلك الهدف.

لا تثق بتاتا في كلّ ما تراه عيناك وسوف ترتاح لأيّ مصيبة تأتيك من شخص تأمّلت منه الكثير فخاب ظنّك به.

تسلّلت تلك اللّيلة نحو إسطبلنا، لم أكن متردّدا وكأنّ هذا شيء مشروع وطبيعيّ فأنا أدافع على ما أملك.

وأنت ملكي!

وجدت "عجاج" مستلقيا ونائما كطفل، كان حصانا لئيما لا يسمح لأحد أن يمتطيه إلّا إسماعيل، كان يعرفه من صوته، من قوّته، يتحكّم بلجامه، كان عتيّا على أحدهم أن يقوده، كان مستعصيا أن يرضخ لأيّ فارس إلّا لصاحبه، ما إن يمرغ إسماعيل يديه على رأسه ويخفي رأسه بين ذراعيه ويمسح على بطنه وأذنيه ورقبته حتّى يرضخ له كجارية.

إسماعيل رجل شريف حتّى الخيل العصيّة لا تصغي إلا للفرسان الحقيقيين.

أعترف أنّها خسارة كبيرة أن نفقده.

ذنبه الكبير أنّه أحبك!

ذنبه بسيط ولكنّه موجع لروحي!

توجّهت بحذر نحو سرج الفارس ومزّقته بسكين وعبثت به حتّى يتأذّى إذا جلس بِكُلّ قوّته مختالا سينقطع ويلقي به الحصان بعيدا جدّا ويموت.

"عجاج" المستلقي في تكبّر لا يعلم أنّه سيقتل صاحبه غدا.

الحياة ليست عادلة أن تكبري أمام عيني وترحلين مع رجل آخر فينفطر قلبي برحيلكما.

قلبي لا يتحمل، روحي تحترق، كنت مخيرا إما أن أموت أنا أو إسماعيل!

فقتلته!

نجمة كان الأجدر بك أن لا تحبي رجلين وتعبثين بقلبي وعمره!

حلّ موعد احتفالنا بنهاية الحصاد وجمعنا السّنابل الصّفراء وسوينا الأرض استعدادا لموسم الخريف.

اجتمعنا حول الهنشير نراقب الفرسان وهم يراقصون ظهور أحصنتهم حتّى تقدّم إسماعيل مختالا في موكبه الملكيّ كأنّه الآلهة إيزيس، كان عظيما وواثقا من نفسه إلى أن رمى به حصانه في الفضاء وسقط جسده بعنف لتلتوي رقبته ويموت في سكون مهيب ويرحل كملاك دون أن يتعذّب.

اقتربت منه وقلبي ينفطر من وجعي عليه لقد مات شاب في العشرين من عمره وغادر فجأة وهو فرح بصباه وقلبه يهفو نحوك يريدك له!

حمله الرّجال بعيدا وكنت أنظر نحوك فوجدتك هادئة وقاسية لم ألمحك تبكين، كنت أعتقد أن نظراتك له وهو يمسك بمحراثه ويعزق الأرض ضاربا الصّخر وراكضا وسط الحقل هي نظرات إعجاب، كنت أظنّ أنّك تموتين ولها به لكنك خيّبت ظني بهدوئك ومغادرتك المكان بكلّ ثقة ويومها أصابني الهلع منك!

أخاف أن نكون وحشين يا نجمة!

أنا لا أريد فقدك!

أنت تبحثين عن حريّتك وهي بالنسبة لك أغلى من حياتنا جميعا!

باتت السّنوات تمرّ ثقيلة على قلبي وأخافها، أشعر أنّ أعصابي تنهار يوما بعد يوم، لا أستطيع الاستمتاع بحياتي وهدوئها فتيجاني لا يكفّ عن البحث عن عريس لنجمة ويستقبل العشّاق مهللا وفرحا، رغبته الشديدة هي تزويجها قريبا فقد بلغت الثّامنة عشرة وَلَابُدّ لها أن تستقرّ في بيتها وتظلّ قريبة منه في الهنشير.

نجمة ببرودها المعتاد الّذي حيّرني وأذهلني فما عدت أفهم هل هي راغبة حقا في الزّواج أم أنها تريد الهروب من واقعها فهي لا ترفض الفكرة ولكنها لسنتين بقيت ترفض كلّ من يتقدّم لها وأغلبهم عاملي حصاد بؤساء، هي ترغب في هروب فخم به تحقّق مبتغاها وأحلامها.

بدأت أضجر من إصرار تيجاني على تزويجها وتنتابني حالات فزع وأرق وفي الحقيقة لم أكن قادرا على إيذائه لأنّه والد نجمة وهي تحبّه حب لا متناهي.

كان يجب أن أجد طريقة ما لأشتّت تركيزه وأجعله يهتم بنفسه وعمله.

الرجل يعمل بجهد ويتفانى في حبّه للأرض ولكن تبدأ الحقيقة من هنا فلتحبسي أنفاسك يا نجمة!

في فصل الصّيف عندما بدأنا نستعدّ للحصاد وكان الكثير من العمّال يأتون من القرى المجاورة بحثا عن عمل موسمي لدينا وبعضهم كان يأتي من مناطق بعيدة ومن الصّعب عليهم إيجاد مكان للنّوم.

ومن توصيات الحاجّ أَلّا نقوم باستقبال الرّجال للنّوم في الهنشير لأنّه يخاف من السرقة وحذره هذا منعه من استقبال الغرباء في موسم الحصاد ولكنّ تيجاني رقّ قلبه لفتى في السادسة عشرة.

كان صبيّا يتيما أرسلته والدته مع ابن جيرانه ليعمل في الصّيف حتى يستطيع لاحقا أن يذهب للمدرسة.

تيجاني لم يجد أيّ ضرر في أن يخفيه لبضعة أيام في الإسطبل حتى يجد له مكان قريبا يأويه.

كنت أتسلّل كشبح في كل الأمكنة المتاحة وأعلم ما يحدث في الخفاء، خلف الأبواب الموصدة والجدران المتينة وعلمت بفعلة تيجاني وإخفائه لِلصَّبِيِّ.

تسلّلت ليلتها تحت وطأة الظلام وحرّرت قطيع الغنم وقدته بعيدا نحو الوادي وشتّته بين الحقول وتفرعات الطرقات وعدت أدراجي ألبس صمت الليل وأتخفّى بسواده.

في الصّباح الباكر علم الحاجّ باختفاء عشرين رأسا من الغنم وذهب يفتّش في كامل للهنشير ويبحث بين أركان الإسطبلات حتّى وجد الصبيّ محشورا هناك، مكوما على نفسه وقد جمع رجليه نحو صدره ونام منهكا من تعب يومه.

قبض عليه الحاجّ، أمسكه من رقبته وانهال عليه صفعا وهو يستجوبه بعنف: من أنت؟

اشتد هلع الصبيّ وبدأ ويرتعش من الخوف وقد عجز عن الصراخ طالبا النجدة.

دفعه الحاجّ خارجا، تجمّعنا حولهما، اقترب تيجاني ليقف حائلا بين الحاج والصبيّ وأخبره أنّه هو من سمح له بأن ينام هناك !

رفع أبي ذراعه في الهواء وأسقط كفّه على خدّ تيجاني بصفعة مدوية رأيت معها تهشم قلب نجمة وانفجار عينيها بسيل من الدموع، توقفنا كلّنا عن الشهيق وكتمنا دهشتنا بابتلاعنا صدمتنا بما فعل أبي بمشرف حصاده.

ضاعت أنفاس نجمة وشعرت لأولّ مرّة أنّها تكترث لشخص ما وقد كان ذلك الرّجل والدها.

رأيت كيف تناثرت نظراتها وهوى كبرياؤها أرضا وتحوّل وجهها إلى اللّون الأزرق واصفر بياض عينيها وشحبت شفتاها.

أرعبني منظرها وبقيت يومين غائبة عن وعيها حتّى عادوا إليها بجثّة والدها الّتي وجدوها قد تعفنت قرب مجرى الوادي.

لم أعتقد أبدا أن فعلتي تلك قادرة على قتل تيجاني وتغيير نجمة للأبد. لقد انطفأ بريق عينيها وحلّ الموت بهما ولم أعد قادرا على التطلع بهما.

كنت أخاف نظرتها الثّاقبة الغاضبة وصوتها المكتوم الّذي يخبرني أنّ والدي قتل والدها وأنه لا شيء مهمّ منذ اليوم لقلبها.

أعلم أنّها ستثأر له ولكن أخاف أن توجعني بذلك.

أخاف أن تهرب من دار منامة فلا أجدها أبدا.

أنا أعرف نجمة جيدا.

كان يجب أن أطفأ نار قلبها وأعيد ثقتها بالسّماء لعلها تغفر لي خطيئتي الّتي تجاوزت إرادتي.

أحيانا نتخطّى في عواطفنا حدود العقل، نبلغ مشارف الجنون...

فجأة لم أعد أتحكّم في إرادتي، أصبحت حرّا مثل دبّ وحشيّ، المكان ملكيّ، الشغف يتحكّم في تصرّفاتي، دموع نجمة موجعة، صوت خفي في داخلي يقنعني أنّ الحاج قد تمادى في عقابه للتّيجاني وأنّه تسبب بطريقة خفيّة في موته وقد تلاعب بحياته.

كان لابدّ لي أن أثأر لبؤس نجمة.

ملك عروش تستور، سيّد الأرض والسنبل والوادي، لا يخطر في بال أحدهم أنّني سأتسلّل مثل قاطع طريق حقير وأشعل في محصولنا النّيران ليغطّي الدّخان المكان ويبلغ لهيبه جميع الأراضي المجاورة لنا.

كنت أقف منهارا وأنا أرى أبي يتخبّط وسط النار ويحاول إطفاءها بكفيه وهو يصرخ وسط اللّهيب بحرقة وينوح كالثكلى.

نجمة !

توقّفت تراقبين كلّ شيء ثمّ اقتربت من حدود الجحيم وهي تلتهم كامل محصولنا وتلفّ أبي من كل اتجاه.

كانت السّماء مستعرة تهذي بحمى اللّهيب الّذي بلغ قباب السّماء وزحف يبتلع رماد الأرض والسنبل مثل ثعبان عظيم.

رأيتك تبتسمين وقد أشرق ثغرك عن بهجة متلألئة كنور وكنت جدّ مؤمنة أنّ الله ينتقم لك دائما وأنّ السّماء أنصفتك وانتقمت لقلبك المحطّم.

أمّا نحن فنزل علينا غضب الربّ ، كانت تركيّة تبكي ولالة منانة تضرب بكفّها على وجهها وتحاول بلوغ أبي الّذي حاصرته النّيران من كلّ مكان وأخواتي يصرخن :" أبي ! أبي!"

كنت مصدوما وأنا أشاهد انهيارنا جميعا وكلّما حاولت أن أصلح الأمر إلا واقترفت جرما يدفعنا إلى الضّياع .

كانت عائلتي تتساقط أمامي ونجمة واقفة بهدوء وعيناها تعكسان لون النّار والسماء وكأنّها بداية الغسق، الساعة الثانية صباحا امتزج صراخنا وبكاؤنا في الهنشير مع جهود الرّجال في إطفاء النيران المتمردة مثل وحش والتي هشمت بكل قسوة قوتنا وقوت يومنا.

نجمة الوحيدة الّتي كانت سعيدة وتضحك من جحيم عينيها، رأيتها تنتصر لوجع أبيها ولم تشكّ لثانية وأنا أراقبها أنّي الوحيد الّذي افتعل كلّ هذه الفوضى حتى تعود عيناها للحياة.

سحقت النّيران كلّ المحاصيل واستنزفنا مخزون الماء الموجود في البئر.

ارتمى الرّجال على الأرض من التعب وقد غلفهم الرّماد كانفجار بركان عتيّ وجلس أبي محترق الذّراعين فاتحا ثغره نحو فاجعة أرضه المحترقة.

في ذلك الصّيف خسرنا الكثير وبدأنا نقترب من مرحلة الإفلاس ثم مرض أبي ولزم فراشه حتّى نهاية الخريف.

أتذكّر أنّ تلك السّنة قضيناها في تستور نحاول أن نقاوم سقوطنا إلى العدم.

استفاق أبي المكلوم بعد عدّة أشهر ليبيع بعض الأراضي واصلاح ما خسرناه وشاهدته كم مرّة يذرف الدّموع كلما أشاحت الأرض عن وجهها المحترق.

آخر ما علق بذاكرتي من تلك اللّيلة أنّك كنت تدندنين أغنية تراثيّة قديمة كان يحبّها والدك وتبتسمين بتمرّد جعل تركيّة تكرهك من اعماق قلبها المشتعل حقدا عليك .

صادفتك كثيرا وأنت تشاهدين الهنشير المحترق بكثير من الفخر والحقد وتبعتك في الخفاء وأنت تزورين قبر والدك لتحدّثيه بما حلّ بنا ثمّ تبكين ببؤس حتّى اشتم احتراق أنفاسك وأشعر بألمك ينغز قلبي.

وهدأنا بعدها جميعا ،كان يجب أن نتجاوز الكارثة لنستمر.

بعدها أتعلمين شيئا ؟

كنت سعيدا جدّا فلعدة سنوات تخلصت من عشاقك المحتملين فبسبب وجعك الرّهيب تخلّيت عن فكرة الزّواج !

ففزت بك لبرهة من الزمن وسرقتك عنوة من أيّ قدر محتمل.

مرّت سنتين ونحن ننعم بهدوئنا المعتاد وأشرقت شمس تستور وثأرت الأرض من النيران فوهبتنا محصولا تخطّى توقعاتنا.

اشترى الحاجّ هنشيرا آخر في تالة وثأر لدموعه وانكساره، وأنا كنت وريث كلّ الأراضي دون أيّ تعب أو شقاء.

وأنت يا نجمة لا تتغيرين !

نفس برودك وتطلّعك نحو سقف أمانيك العالي !

وأنا السيّد !

سيّد قدرك والوحيد المخوّل بعتقك من دار منامة، أصابني جنون العظمة والتملّك فأنا لن أفرّط في شيء وضعت عليه عيني وعقلي.

أنت ملكي !

هل تفهمين ؟ لن يفرّقنا غير الموت ..

كنت أسمح لك بالحريّة الّتي تناسبني وأمنع عنك أفكارا أخرى نحو مجد بعيد عن قلبي.

مع بلوغي الخامسة والعشرين تركت لي تركيّة حريّة التصرّف في كلّ أمور القصر ولزمت غرفتها لا تبرحها حيث عانت من مرض عضال جعلها طريحة الفراش وخيط أحلامها الّذي لا ينقطع البتّة في أن أصبح وريث تستور يمدّها بالطاقة ويدفعها للبقاء.

أوّل قرار اتخذته هو أنّي منعت نجمة من الذّهاب إلى تستور ثمّ أصبحت أشدّ قسوة عليها ومنعتها من قراءة كتب التّاريخ وبتّ أنتقي لها بعض الروايات الرومانسية والإنسانيّة لعلّ قلبها يلين.

لم أكن أعلم أنّ خوفنا من قدر محتوم قادر أن يدفعه لزيارتنا في عقر دارنا في شكل رجل فرنسيّ اسمه ماثيو، لقد أخافني ذلك الجندي بتطلّعه نحوك ورغبته بك لم أكن أعتقد البتّة أنه قادر على أن يحبّك وأنت خادمة سوداء لكنّك تكلّمت يا نجمة فملكت قلبه وعقله!

لقد أتعبتني جدّا ولم يكن من السّهل استرجاعك وهو فرنسيّ خبير في استيطان البلدان وقلوب النّساء ولكنّي فعلتها فلتستمعي لبقيّة القصة ولتحبسي أنفاسك...

ماثيو كان رجلا أشقر بعيون خضراء مثل قطّة وأنف ذي أرنبة حادّة، وجهه كان دائريّا وشفتيه ممتلئتين كالنّساء اللّواتي يزينّ اَلْمَجَلّات الأوربيّة الّتي غزت الرصيف مؤخرا.

كان هادئا وواثقا من نفسه في تعال بسيط، كان يتحدّث الإيطاليّة والفرنسيّة ويجيد العزف على الكمان ويطبخ جيّدا وكان راقصا بارعا، يقضي في تونس سنته الأخيرة قبل مغادرته نحو باريس لهذا كان يتصرّف بنهم أمام كلّ شيء جديد ويحيا بحريّة بعيدا عن عمله في البعثة الديبلوماسيّة للمفوضيّة الأوربيّة.

كان مثقّفا وكمْ من مرّة اعتذر لي عمّا أقدم عليه بلده عندما استعمرنا عنوة لعدّة سنوات وكان يجد أنّنا شعب لطيف جماله ينبع من بساطته وعفويّته.

تونس كانت غالية على قلبه وتمنّى لو سنحت له الفرصة بأن يعيش فيها طويلا ويستقرّ حتّى موته ولكن ظروف عمله تمنعه من التّمادي في حلمه الغريب.

إنّه رجل لطيف ومبهج بنكاته الّتي يطلقها بكثرة في كلّ حكاية يرويها لنّا حتّى في حديثه عن أمور محزنة مثل فاجعة الموت.

ماثيو كان رجلا رائعا للغاية حتّى تمادت نظراته تجاه نجمة واقترب منها لدرجة أنّي بت أكرهه وأشعر أنّه مجرّد مستعمر لئيم.

باغتهما كم مرّة يتحدثان ويضحكان مقهقهين بصوت آلم قلبي فقد كانت نجمة منسجمة معه ومرتاحة له أكثر ممّا هي معي .

رأيتها مرّة وهي تضع رأسه بين كفيها وتنظر له بعمق في عينيه، بدا ذلك التوهّج العنيف في نظراتها يشعل جحيم الحقد في قلبي ثم أخرجت من تحت كمها منديلا صغيرا ومسحت أنفه ممّا علق به من رعاف شمس الظّهيرة.

وكان هو بين كفيها كنمر تمّ ترويضه يفترسها بمخالب بؤبؤيه وأحسست أنّهما يسلبان منّي روحي ويتلاعبان بصبري وأنّ ماثيو يريد أن يأخذ شيئا ملكي، يأخذ جزءا من عمري وأيامي.

كان لابدّ من أن أجد طريقة ما لأتخلّص منه بحيث تبدو أنّها موت قدريّة وعرضيّة، لم يكن سهلا أن أقتل جنديا فرنسيّا والحرب بعدها نديّة في قلوب الجميع.

تلك كانت أطول علاقة لك يا نجمة مع ذلك الفرنسيّ الخائن لبيتي وشرفي وأنت تماديت معه حالمة بالرّحيل إلى باريس !

اللّعنة على كلّ اللّغات الّتي تتقنينها !

اللّعنة على كلّ الكتب التي قرأت !

حقّا أن المعرفة الكاملة تجعلك متمرّدا، حرّا وتدفعك نحو مغادرة نفسك لمكان أفضل.

عند مغادرة ماثيو القصر، توجّهت نحو غرفتك وبحثت بين أغراضك عن الكتب، فتحت مخزنك السريّ الّذي دسست فيه كتبك منذ سنوات وبدأت في تمزيقها وإلقائها في النافورة بكل حقد وغضب، أتيت راكضة من المطبخ لتلقي بجسدك على كتبك وانهرت كدب جريح بين قدميك، أسألك بوضوح: هل آلمك تمزيق صفحاتهم ؟ هذا ما تفعلينه برجولتي !

بدأت تصرخين وتأمرينني بالخروج من غرفتك وأخبرتني بأنّه لا يحقّ لي تمزيق إرثك من العلم ولكنّي أمسكتك ودفعتك فوق الفراش وهويت كنمر أمزّق بعنف وجنون كلّ ما جعلك تتعلّمين منه كيف تفتحين فمك أمام سيّدك وتخبرينه بما لا يجب عليه فعله.

صرخت بكل جنون وغطرسة: أنا سيّدك !

اندفعت نحوي كلبوة متوحشة وقذفت الكتب من بين يدي ودفعتني خارجا وانت تصرخين : لا سيد لي غير عقلي !

من أنت ؟ ما دخلك بي ؟ أكرهك يوسف !

الكلمة صفعت روحي فدوى الجنون برأسي، أمسكتك من شعرك وجعلت وجهك قبالتي وقلت لك أعيدي ما قلت !

نظرت في عيني وغرزت غضبك بأهدابي ودفعت ببؤبيك خارجا بوقاحة وقلت لي: عندما تصبح رجلا يا يوسف !

لم أشعر بكفي وهو يتمرد عن رغبتي وصفعتك بكل غضب لتسقطي أرضا واندفعت نحوك لأكتم صراخك بيدي.

كنت تبكين بين ذراعي واقتربت من أذنك وأنفاسي تشتعل كفوهة جحيم وأعدت عليك السؤال مرة أخرى: هل أنا سيدك يا نجمة !

رفعت عينيك نحوي وحركت رأسك نافية ذلك بشدة فصفعتك بقوة وقهر كل السنوات التي أحببتك بها وقابلت حبي بخيانتك لي مع كل الرجال رغبة منك في الهروب من قدرك كخادمة.

كنت محطمة بين ذراعي وعينيك مشتعلتين قوة وكبرياء، كنت واثقا أنك لن تقولي لي أبدا أنت سيدي يا يوسف !

هل تذكرين كل هذه التفاصيل يا نجمة ؟

أنت امرأة قوية وحرة، كنت مثقفة ومجتهدة، رغبتك بالتحرر من لقب عتيق يدفعك أن تتزوجي أي رجل يمنحك لقبه ويمنحك حريتك الكاملة بأن تنتمي لنفسك، مسحت الدموع عن عينيك ورفعت كفي عن فمك ودفعت بشفتي في قهر نحو شفتيك وقبلتك بعنف وتعب .

كنت متعبا من احتقارك لقلبي منذ سنوات وعدم اكتراثك بي، قبلتك طويلا ملتهما شوقي لك وصبري عليك.

توقفت عن البكاء بعدها ولم أعرف كيف اندفعت الكلمات من حلقي الخجول والكتوم لأقول لك بكل وضوح: أحبك نجمة ! أنت ملك يوسف ! أنت لي.

منعتك بعدها من مغادرة غرفتك حتى أستجمع أفكاري واجد حلا لا يدفعك أن تتمردي علي أبدا، كنت أزورك كل يوم لتفترسي وجهي بنظراتك المتعالية والشامخة، كنت امرأة تمثلين نفسك ولم تكوني أبدا خادمة كما أراد لك الجميع، أما بالنسبة لماثيو فهو لم ييأس أبدا من البحث عنك وزيارة دار منامة كل يومين، كنت أراقب عينيه وهما تبحثان عنك في كل مكان وأيقنت أنه لا بد لي أن أتخلص من هذا الفرنسي المتطفل على قلبي.

لم يتوان أبدا عن المجيء بكل وقاحة متى أراد وكأن دار منامة منزل والديه، أحسست كأنه يفرض نفسه علي ويجبرني أن أخبره أين أنت ؟لم يجرؤ على ذلك ولكن عينيه تفضحانه.

بالنسبة لي فالحتميّة والقدريّة فيما يخصّ حياتي أكرههما، لا صبر لدي ليأخذ أحدهم شيئا يخصني ويرحل، كنت لأقتله وهذا ما فعلت لعدّة سنوات فقد كنت أتخلص من كلّ من يقف أمام طريقي ورغبتي بامتلاك قلبك.

أنا جدّ مقتنع أنّه بموت أحدهم نتحرّر من جميع قيودنا وكنت قادرا على قتل ماثيو بكلّ برود إلا أنه اختفى لمدّة طويلة أحسست معها بالسّلام ونعمت بالهدوء بعدما كنت في دوّامة من الضّياع والألم.

مع حلول الصّيف كنت أستعد للذّهاب إلى تستور لنبدأ موسم الحصاد ولكن الشكّ بما تخفيه الأيّام جعلني أتأخّر عن الذهاب وإيجاد أعذار عظيمة تجعل الحاجّ ينتظر لحاقي به قريبا.

عشيّة السّبت سمعت طرقا على الباب وما إن فتحته حتّى رأيت ماثيو أمامي بلون برنزيّ ووجه التهمته شمس الصّيف وقال لي: ما رأيك بالذَّهاب إلى البحر! اشتقت لك يا صاح !

منعته من دخول السقيفة ثمّ دفعته خارجا وقلت له لنذهب الآن، رمقني بسخرية قائلا: أهكذا تذهب بملابس النّوم !

ابتسمت بتملّق وجاريت مزاحه الثقيل قائلا: سنكمل القيلولة في البحر يا صديقي!

ضحكنا بغباء وحذر، كنّا لا نثق ببعضنا ولكنّنا نكمل مجرى الأحداث الغريبة.

مع اقترابنا من الشاطئ وبروز خطّ البحر الأزرق، بدأت أنفعل قليلا خاصّة عندما رأيته يقفز تحت شمسيّة ملوّنة كقوس قزح ويرتمي في أحضان امرأة يقبّلها من وجنتيها ثمّ قال لي: إنّها صونيا! صاحبة فندق رخيص موجود بالجوار!

رفعت رأسي لأحييها واختفيت معهم تحت الظلّ ليقترب منّا بعدها رجلان وامرأة فرنسيّة، كانوا يتحدّثون بنهم وبلا توقف...

كنت أسترق النظر نحو صونيا الّتي بدت هادئة وغارقة في صمتها المريب.

عندما هدأ الجميع، طلب منّي ماثيو أن أسألها إن كانت مرتاحة معنا، التفت نحوها أردد بعض الكلمات المتلعثمة وأنا غارق في سحرها، رفعت عينين ملوّنتين بلون العسل وفتحت ثغرا رهيبا بلون الزهر وقالت لي: أبدا إنّه رجل أبله وممل وأشعر بالإحراج لعدم إتقاني اللغة الفرنسية!

نفضت الرّمال عن ساقيها ومدّت يدها نحوي قائلة: فلتساعدني أرجوك، أريد أن أذهب للسّباحة!!

وقفت برشاقة ومددت كفّي نحوها ودفعتها إلى فوق فاقتربت منّي وهمست في أذني: شكرا! وابتعدت نحو البحر وهي تتهادى في فستان السّباحة الفاضح كقطعة سكّر، بدأت تختفي رويدا وسط المياه الزّرقاء وكأنّها الآلهة افروديت تغرق في قلب البحار السبعة.

كانت تهزّ الماء بقوّة الحيتان ويتلألأ جسدها كحجر كريستال، كنا أربعتنا نراقبها بشق الأنفس، كانت جامحة كفرس وحشية تتخبط في نهر.

جسدها ينحر الماء!

يمزّق الموج تمزيقا !

نهداها يقفزان كسمكتين يتخبّطان حول دوامات الماء يشتهيان أن يمزّقا خيط حمالتها الصّدرية فيتحرّران من سجنهما نحو لجّة البحر فيبلعهما، يضاجعهما، يمرغهما برمله، يعصرهما ويقتلها عقابا لها على ما فعلت بأنفاسنا.

كنا منبهرين بشراستها وسط المياه كأنّها قرش أبيض.

سمعت ماثيو يتنهّد ويقول: صدقًا إِنَّها أطيب من بريجيت باردو! أشحت بوجهي بعيدا عنها فأنا لم أعرف أيّ امرأة غير نجمة المثقّفة.

أنا على يقين بأنّ الأنوثة والثّقافة لا يجتمعان أبدا.

عيني حبيسة ثعبان هائل يتلوّى بين الأمواج ويضرب صفحة الماء الزّرقاء بشعره المنساب كخفقات قلبي الّتي تكاد تتوقّف مع كل قفزة تقفزها صونيا على الرمل وفجأة رغبت في افتراسها والتهامها كحوت عظيم.

سأغوص بها إلى أعماق المحيط وأتركها هناك على لساني لمئة عام محشورين بين خنادق المحيط العميقة وأنسى من صلاة وتسبيح وغفران.

انتهت صونيا من هذيانها وسط البحر وأصابت عقلي بحمّى الشّهوة الّتي ما اختبرتها أبدا مع أيّ امرأة من قبل.

اقتربت منّا تنتفض بجسدها الممتلئ، امرأة في أواخر الأربعين، مكتملة الأنوثة، تائهة في عالم الرّجال وعلى دراية بجميع أمور النساء، كان صعبا أن تمرّ عليك فلا تلاحظ وجودها، رمت جبّتها الزرقاء على جسدها المبتلّ وغادرت من دون أن تودّع ماثيو.

أحسست بصفعة مدوية ضربت جميع حواسي وباغت ماثيو بالسؤال: أكنت تحتاجني في شيء مهمّ ؟

نظر إليّ وتابع دون اكتراث: حسنا ! لقد ضاجعتها أمس وأردت أن أعرف إن رقت لها ؟

رائع جدا ! تمتمت بضجر وغادرت نحو البيت.

تلك اللّيلة حدث لي أمر غريب، كانت صونيا ترقص في عقلي كحوريّة بحر، لا تنفكّ تتسلّق نحو أهدابي بصدرها وتظلّ تتلوّى في ذاكرتي بجسدها العنيف.

بدأت أتذكر بعض التّفاصيل وتناهى لذاكرتي عنوان بيتها الّذي كان عبارة عن فندق رخيص يدعى صونيا!

أقف محتارا بين الأزقّة المتشعّبة والضيّقة، أسأل أحدهم عن فندق صونيا فيشير لي نحو آخر الزقاق المعتم، أمشي بارتباك وأتفحص ما حولي في تعب، أمس لم يغمض لي جفن، أمضيت ليلتي كتائه في لجة البحر، نهديها يقفزان لرأسي ويهزانه لأستفيق، أنا مثقل من التّعب وأبحث عن الفندق بحماس.

اعترضتني لافتة حديديّة أصابها الصدأ مكتوب عليها بالفرنسيّة هوتيل، دفعت برأسي داخلا في فضول ويقظة أبحث عن شخص ما أساله فرأيت صونيا جالسة في البهو الخارجي واضعة بين ساقيها حوضا بلاستيكيّا وبين يديها صوف غنم تدعكه بقوّة، كانت ترتدي جبّة خمريّة وتجمع شعرها في شال ملوّن بالورود وقد تناثرت منه خصلات شعرها في وحشيّة ملتهمة جيدها المتعرّق، كشفت الجبّة كلّ تفاصيل جسدها الممتلئ، جسد مكتنز وملتو بانحناءات مروعة وخصر مختنق بأنوثة عنيفة .

لم تلاحظ وجودي هناك واقفا مثل شبح، وقفت تعصر الصّوف وتحمله بين ذراعيها لتنشره في فوضى على سلم خشبيّ يتوسّط الشّمس والسّماء.

رفعت رأسها لتجدني متصلّبا كجذع شجرة عمرها ألف عام، منسيّا في ردهة بهوها، مسحورا بجمالها.

اقتربت منّي، وضعت يدها على رأسي وشهقت بضحكة فقدت معها أيّ منطق في الهروب بعيدا.

همست: أتريد مساعدتي؟ مممممممم! ما هو اسمك؟

انبعثت الحروف مختنقة بين شفتيَّ وأنا أردد: يو...يوس...يوسف!

ضحكت ضحكة ساخرة وقالت لي: يوسف ما رأيك لو ساعدتني في تنظيف كل الصّوف وسأدفع لك؟

اندثرت الكلمات من قاموسي المعرفيّ وتحولت لرجل أحمق وأنا أسالها في غباء: كيف؟

اقتربت منّي، رفعت رأسها نحوي وباغتتني بقبلة طويلة وهي تقول: صبرا يا يوسف!

أمسكت بيدي وقادتني نحو الحوض البلاستيكِيّ وطفقت أدعك معها الصّوف بكل قوّتي منصاعا لأوامرها ومتناسيا سبب مجيئي الحقيقيّ، تهت في خيالاتي أدعك رغبتي المتفجّرة بعنف في جميع شراييني، أنفاسي لا تتحمّل صدرها وهو يقفز بين كل حركة دعك عنيفة تقوم بها، كنت جالسا قبالتها مبهورا بأنوثتها، انصبّ كل تركيزي على تفاصيلها وهي منفرجة السّاقين، تهتزّ، تتلوّى، تتعرّى، ساقاها يتراقصان، يميلان، يرتفعان وانهرت... لم أعد قادرا على أن أتنفس!

حملت صونيا ما تبقّى من الصّوف ورمته على أطراف الحوض والسلّم ثمّ توجّهت داخلا وأنا أتبعها في إذعان واستسلام لذيذ.

دخلنا غرفة واسعة بها ظلّ ونسيم بارد، نزعت جبتها واستدارت نحوي بغتة، رأيت صدرين نهمين واقفين بوحشية واندفاع نحوي، شلّت حركتي، توقّفت الدّماء عن الضخّ، رمت بقطعة ملابسها السفلية ورأيت كلّ تفاصيلها كقنبلة انفجرت في أركان الغرفة، قفزت نحوي في خفة ليهتز نهدها بين أنفي، توقّفت أنفاسي، بدأت تحرّر قميصي من أزراره وهي تلعب بشعري وتمسح بكفّها على صدري، غرزت أظافرها في جسدي وأمسكت بيدي وقادتني نحو فراش كبير وألقت بي هناك.

كانت تعبث بي كدمية من الصّوف بين يديها، كنت تائها وشلّت حركتي عن الرّفض أو المقاومة، لم أكن أعلم ماذا يجب أن أفعل ؟ فهذه كانت أول مرة لي أضاجع بها امرأة، كنت متردّدا وخجلا ؟

ضحكت صونيا بسخرية قائلة لي: بعدك بكر يا صغيري !

شعرت بإهانتها تحطم رجولتي وتسخر من شهوتي، أمسكت رأسها بعنف، نظرت لها بشراسة وقلت بثقة : أنا يوسف سيّد رجال تونس!

دفعت بجسدي نحوها ألتهمها، أفجّرها، أقطع أنفساها حتّى تصرخ وتستسلم لوحشيّتي، كنت أفصلها عن كلّ شيء، لا أتركها تستجمع قوّتها لثانية، ضاجعتها مثل محارب شرس وانتهينا أن ارتمينا متعبين، استجمعت أنفاسي الثائرة، عيني تحملقان بالسّقف في استسلام ونمت بين أحضانها.

لقد كان هذا رائعا!

لا أعلم كم من الوقت مر وأنا غائب عن الوعي، فتحت عيني مع انبعاث ظلال العصر ولم أجدها بقربي.

كنت ألج المطبخ باحثا عنها وقد قادتني لها رائحة الأكل، وجدتها غارقة في بخار طنجرتها، وقفت خلفها لأباغتها بسؤالي الطّفوليّ: هل كان ماثيو أفضل منّي في مضاجعتك ؟

لم تلق صونيا أيّ أهميّة لسؤالي الذي بدا غريبا وقالت لي: من دون أدنى شكّ أنا لا أعرف ذلك الأحمق، لقد نام صديقه في فندقي ليلتين واقترح عليّ أن أذهب معهما للبحر، اشترى لي ملابس سباحة باهظة الثّمن ووجدت أنه من الرائع أن أسبح بهما !

كانت رواية صونيا تخترق عقلي وتطحنه لفتات، تركتها واقفة وغادرت الفندق نحو دار منامة، بدأت أركض جزعا، كانت المسافة شاسعة كأنها آلاف الكيلومترات.

من الغباء أن أثق في نفسي لدرجة الغرور !

هناك بشر في الحياة يتفوّقون علينا دهاء ومكرا، كنت ضعيفا وهشّا، تخلّصت من الجميع بقتلهم لأنّي كنت جبانا، مجرّد رجل مرتعش خائف لكن ماثيو تخلص مني بطريقة جدّ ذكية فهو لم يلوّث يديه بأنفاسي.

كنت أندفع بكل طاقتي نحو القصر ومن بعيد رأيت نجمة واقفة وبدا لي كأنّها كانت تودع أحدهم، اقتربت منها وسألتها بوضوح كان كافيا أن لا يسمح لها بأن تكذب عليّ أبدا: ماثيو كان يريدك أن تذهبي معه ؟ لقد كان هنا؟

أومأت برأسها أي نعم ! فأعدت سؤالي لها بهدوء: لماذا لم ترحلي معه ؟

نظرت لي وقالت بكل ثقة: أعتقد أنّه لن يعود أبدا ! انسى أمره ! أريدك أن تجلب لي بعض الكتب ! أحتاج إلى القراءة فهي تريحني وتشفيني من شقائي ثم تركتني واقفا بذهول ولم ترغب في إخباري ببقيّة القصّة رغم محاولاتي الكثيرة في معرفة ما حدث بينهما فعلا.

قبل بداية الغروب كنت قد جلبت الكتب لنجمة وتأسفت على كل الألم الذي سببته لها وعدت إلى غرفتي.

أردت أن أنام فقط!

لم يعد يغريني شيء! لا شيء مهمّ.

تحرّر جسدي من شهوته وارتاح قلبي من خوفه.

هل توقّفت بعدها عن زيارة صونيا ؟

لا أريد أن أخفي عنك أيّ حقيقة عشتها وإنّ كانت فظيعة وسيكون كلّ ما أحدّثك عنه هو من طبيعتنا البشريّة وفطرتنا وعلى الرّغم من صعوبة تصديق بعض الحقائق القاسية على قلبنا إلّا أنّ هذا ما مررت به حقًّا.

أنا لم أتوقّف عن زيارة صونيا، كنت أزورها بانتظام وأدمنت مضاجعتها.

إذن هل توقفت عن حبّك ؟

أبدا ! كنت أحبّك بجنون حتَّى يختنق الدّم فِي شراييني.

ستسألين يا نجمة كيف لي أن أكون مع امرأتين، جسدي ممزّق في إحداهن وقلبي معلّق بأخرى؟

الشّهوة يا نجمة لا تشبه الحبّ في أيّ شيء !

الشّهوة مثل لعنة تتمكّن بنا تسكننا وتجعلنا ندمن مشاعر تنساق من الكبد نحو الرأس نحو اللذّة.

الجنس يا نجمة سيّد الأرض !

سبب قويّ لنستمر، نقترب من بعضنا في شغف، نمارس ذلك آلاف المرات ولا نملّ لأنّه يتجدّد في هرموناتنا ورغباتنا وأيضا فطرتنا الأولى.

صونيا كانت تجعلني سيّد الأرض، سيّد تونس وسيّد الرّجال!

كنت أضاجعها بعنف كلّ ليلة، مثلت الحريّة والخلاص لكبتي وصبري، أشعر معها أنّي سيّد الكون ويرتاح قلقي وتعود ثقتي برجولتي.

أما الحبّ فكان أنت يا نجمة!

الحبّ لا يشبه الجنس.

ليس أقوى منه ولكنّه دائم، يعيش بداخلنا أطول عمر.

الجنس لحظات ولكنّه يتحوّل لإدمان مستمرّ له ساعته ووقته.

الحبّ لا عمر له، لا وقت له، لا ينتهي بداخلنا أبدا.

الحبّ يشبه بصمة اليدّ لكلّ منّا بصمة ترافقه حتّى موته لهذا لا يمكن لرجل أن يحبّ امرأتين، لكنّه قادر أن يضاجعهما الاثنتين وقلبه لواحدة فقط.

إن خيروني بينكما !!

كنت سأختارك أنت لأن وجع القلب ألعن من وجع الجسد.

كنت مهووسا بصونيا لأنّي أوّل مرّة أختبر أن أكون رجلا وأنا معها لكن الحبّ هو أنا وأنت ملتحمان كروح واحدة بجسد واحد ويأتي الموت بعدها ليفصلنا بجحود، ألم الفصل هو وجع الحبّ وسيبدأ عالمي بالانهيار إن رحلت، أنا غير قادر على تحمّل غيابك فأنا ناقص وأنت التي جعلتني كاملا بك !

بعد أن هدأت حياتنا، رحلت نحو تستور لنبدأ موسم الحصاد.

كان الحاجّ يقف على مشارف الأرض فخورا بكلّ غبار السنابل المحصود ويتابع باهتمام وتركيز عمل العمّال.

التفت لي بتفرس وانتباه وقال لي: أسمع يوسف ما رأيك بذلك العامل الأسمر ؟

نظرت وسط الحقل أبحث عنه وأنا أردّد: أيهم ؟

وجه الحاجّ سبابته نحو رجل قويّ وغليظ، بدت عليه القسوة والصّرامة وتابع مؤكدا ذلك الرّجل الغليظ!

سألته بفضول ما خطبه ؟

فقال بثقة وسعادة: أعتقد أنّنا سنظفر بمشرف حصاد جديد وقويّ، أرغب برجل مثله يمسك أرضي ويكون حادّا كسيف وقويّا كناقة.

أجبته مؤيّدا: أوافقك الرأي لقد راق لي الرّجل جدّا.

ابتسم الحاجّ بارتياح وتابع بمرح: سنزوّجه نجمة !

هوى قلبي وغرقت أذني في نبضاته المتسارعة ....

خلال شهرين قضيتهما في تستور كنت أتابع مسعود وألاحقه في كلّ مكان .

كان رجل فظّ، سريع الغضب، قليل الصّبر وقاسيا مع العمّال.

لا أعرف لماذا نوظّف رجلا مثله ليشرف على الهنشير.

كان يأكل فيصدر صوتا مقيتا وهو يتمطّى كدبّ عملاق وعند شرب الماء أيضا يصدر صوتا مزعجا ثمّ يتجشّأ ويقف كتنين يتثاءب ويبدأ في الصّراخ في وجه العاملين حتّى يسرعوا في تناول الطّعام ليعودوا للعمل.

كنت إرثي لقلبي ولنجمة.

لن تقدّر المسكينة على العيش مع وحش مقرف مثله.

أأقتله !

لا أعتقد أنّ الوقت مناسب لذلك، سأنتظر حتّى تحين الفرصة وأتخلّص منه.

انتهى تمّوز الحزين وأنا أتخيّل نجمة زوجة لرجل وحشيّ مثل مسعود.

بعودتنا لتونس دعا الحاجّ نوّة ونجمة لغرفة الجلوس، كنّا جالسين أنا وتركيّة صامتين لأنّ أبي أخبرها بأنّه أعدّ مفاجأة عظيمة لنوّة ومع دخولهما كنت أراقب نجمة وهي مطمئنة ومشرقة.

قال لها أبي: اقتربي يا ابنتي واجلسي بجانبي، كانت نجمة متردّدة وبحدسها الرهيب أيقنت أنّ أبي يخطّط لشيء مريب، ثمّ قال لنوّة بسعادة غامرة: اقرئي الفاتحة يا نوّة الصيف القادم سنزوّج ابنتك.

انفرج ثغر نوّة وضحكت بصوت عال وقالت: إن شاء الله يا حاجّ، بوركت !

كانت عيني نجمة مغروزتين بعيني وهي تنتظر إجابة عن كل حيرتها وتابع أبي ستزوجها مشرف الحصاد الجديد مسعود، إنّه رجل قويّ وشهم ويجيد عمله. فاضت عيناها بالدّموع وانهمرت على خدّها في صمت وأشاحت بوجهها بعيدا عنّي.

زغردت نوّة من الفرح وأمسكت يد الحاجّ تقبلها ولمس أبي كتف نجمة قائلا لها: من حقّك يا ابنتي أن تبكي فرحا! سيفرح والدك في قبره ويطمئن عليك.

كانت تركيّة مفزوعة من الخبر وظلّت تراقبني في شرود وتنتظر أيّ ردة فعل منّي، تركيّة تمتلك حدس الأمّ وتعرف مدى حبّي الشديد لنجمة وقد حاولت منع ذلك لكن لم ينجح الأمر أبدا وهي مطمئنة وجدّ واثقة أنّ سيّد رجال تستور من المحال أن يتزوّج خادمته الزنجيّة.

كنت هادئا وغير مبال أبدا فيوسف ينتصر دائما بالنهاية.

نجمة اخترقتها الكلمات وقالت غصبا عن إرادتها: شكرا لك سيّدي وغادرت.

توقّف عقلي عن التفكير، تلبّدت مشاعري كغيوم متفرّقة وتائهة لا تعلم هل تتبدّد أم تفيض مطرا.

تغيّرت بعدها جدّا، أصبحت تدمنين الصّمت وتتجنبين مصادفتي أو الإذعان لي، أنا شيء بالنسبة لك مثل أصّ ورد ملقى بالحديقة أو قطعة زجاج مهشّمة.

مرّ شهران وفيهما ألغيتني من حياتك لم أعد جزءا مهمّا من يومك مثل السّابق.

حاولت أن أحدثّك حول ماذا ؟

لا أعلم!

أضحيت مجرّد سراب فأنت لا تبالين بوجودي أو تشعرين بأهَمِّيَتِي.

كنت كعادتي أزور صونيا يوميّا ولكن بدأت أشعر بالفتور، أنا اليوم ضائع، لم أعد مرتاحا، القلق يمزّقني فما عادت لي رغبة بمضاجعتها.

أصبحت أزورها لنثرثر قليلا وهنا بدت لي صونيا مختلفة عن تلك المرأة التي عرفتها في الفراش.

لقد تزوجت في سنّ الخامسة عشرة من شيخ في الستّين، كان بخيلا ومريضا.

لم تحظ بحياة زوجيّة مثاليّة، هربت من الفقر والخصاصة لتجد نفسها تساعد زوجها في فندق الرّخيص ذاك.

لقد عاشت معه عشر سنوات من القهر والألم، كان يعنّفها ويمنع عنها الطّعام، ومع موته تحرّرت صونيا لتصبح المرأة التي هي عليها اليوم.

كانت تحبّ أن تضاجع الرّجال في عمر فتيّ.

تشعر أنها تسترجع بعض ما سلب منها خلال سنواتها المنقضية.

ثرثرتنا جعلتني أرى إنسانيتها ووجعها، فقد جسدها بريقه وانعدمت شهوتي نحوها.

مع كلّ الحقائق التي عرفتها أصبحت أشفق عليها وأساعدها في كثير من الإصلاحات بالفندق.

كنت أقضي الكثير من الوقت برفقتها هاربا من سخط عيون نجمة حولي.

ومع اقتراب أيار بدأت أختنق، لم يبق الكثير على زواج نجمة وسيأخذها رجل آخر بعيدا عني وهذا لم أكن لأسمح به أبدا.

ذلك الرّجل لا يناسبها فهو عبارة عن وحش آدميّ.

تساءلت مرارا كيف لي أن أنقذك من ذلك القدر يا نجمة ؟

في إحدى المرّات سألت صونيا عن رأيها في صديق لي يحبّ امرأة منذ كان عمره خمس سنوات واليوم والده سيزوّجها لغيره، انفجرت يومها من الضّحك وقالت لي بثقة: هذا ليس برجل على الإطلاق.

كانت كلماتها عنيفة وصادقة، لم أبحث كثيرا عن إجابة أخرى مغايرة، أنا كنت جبانا ولم أكن رجلا ولم أكن سيّد رجال تونس...

كنت مجرّد رجل كذاب ومخادع !

كان تفكيري العميق والمنطقيّ يمنعاني من أخذ قرار وهو ألاّ أفرّط بك لأنّ المنطق يمنعك أن تحيا بإرادتك الكاملة.

هل تعلمين في النهاية ماذا فعلت ؟

توقّفت عن التّفكير وفعلتها !

في أوّل الضحى عندما كانت نوّة مشغولة بالطّبخ وتركيّة نائمة مثل عادتها، دفعت الباب قليلا وقلت لك استعدّي سنذهب لمكان ما ولن نتأخر ! الأمر لن يتطلّب سوى ساعة، سنعود قبل اكتشاف نوّة أمر غيابك.

كنّا في طريقنا إلى الشّيخ لنتزوّج.

بالنسبة لي كنت فعلا جبانا وأخاف غضب الحاجّ فلو فكرت قليلا لما فعلتها.

لكنّني تزوّجتك.

كان عصيا عليّ كسر قلبك والأصعب أنّك كنت مثقّفة ومتحرّرة وجميلة.

ورفقة مشرف الحصاد ذلك كنت ستعيشين حياة تعيسة، ستطبخين لعمّال الحصاد، ويضاجعك مسعود بعنف كل ليلة وتنجبين الكثير من الأطفال لينطفئ توهّج روحك مع كثرة مشاغل الحياة الّتي ستلتهمك.

كنت أرفض أن ينتهي مصيرك هكذا، مجرّد امرأة عادية، لقد كنت ذكيّة جدا وتستحقين أن أضحّي من أجلك فأنا من دعمك منذ كنّا أطفالا لتصبحي ما أنت عليه الآن.

عادت الابتسامة لقلبك البريء ولم تعارضي قراري وقد تخلّصت من كابوس جثا على قلبك طويلا.

لا أحد يعلم بهذا القرار المجنون، منذ شهر أيار أصبحت زوجتي.

أصبحت نجمة بن يوسف، أرأيت كيف حرّرتك من قلقك وتمرّدك !

أريدك أن تعيشي الحياة كاملة مثلما تتمنين.

لا أعلم ما هي الخطوة القادمة ولكني أرغب أن تدرسي وتصبحي تلك المرأة الّتي تحلمين أن تكوني.

كانت حالة تركيّة تزداد سوءا يوما بعد يوم، المرض يفتك بها، لا يمنحها فرصة لتقف على قدميها وتمشي، تظلّ معظم اللّيل تئنّ من أوجاعها.

في النّهاية اقترح عليها أبي أن تزور حمام المياه الحارّة في زغوان وتجهّزنا جميعنا للرّحيل برفقة نوّة لكنّني لم أذهب معهم بتعلّة أنني مريض فحضّرت لي نوّة الكثير من الحساء وعصير اللّيمون وغادروا.

القصر اليوم ملكيّ !

أنا سيّد القصر!

أبلغت نجمة أن تتحضّر لي وجلبت لها فستانا أسود شفافا معدّا للعروس ليلة زفافها وطلبت منها تتجهّز كأنّها ملكة.

مرّت ساعة وأنا متردّد بشأن الذّهاب إليها أو انتظارها.

لقد بدأت أفقد صبري وتوجّهت خارجا لأجدها ملتحفة في سفساري حرير كان ملكا لأمي وغطّت وجهها بوشاح أبيض واقتربت منّي في صمت ودخلت غرفتي بخجل.

كنت أنظر إليها وأسالها لما كلّ هذا يا نجمة ؟

أخائفة أنت مني ؟ إن لم ترغبي بشيء فلن ألمسك.

أسقطت عنها لحافها الخمري وتركت الوشاح ينزلق حتى سقط أرضا، ورأيت عروسا أشوريّة من ملكات بابل جمالا وعنفوانا، كان شعرها القصير مرتّبا ووجهها يشعّ فرحا، هي سعيدة جدّا.

كان الفستان الأسود يليق بها جدّا وكأنّ قطعة فخمة من اللّيل انسدلت عليها في حياء ودقة.

جسدها !

إنّها أوّل مرّة بعد عشرين عاما أنتبه لجمالها ورشاقتها !

جسد في أوّل عنفوانه وشبابه، مستيقظ كبداية فجر وفضولي كأوّل نظرة جنين لأمّه.

إنّني أتنفّس عرقها.

اقتربت منها ووضعت كفّي على وجهها فبكت نجمة، كانت تبكي بحرقة، دموعها لا تتوقّف وأنا أهزّها بلطف وأؤكد لها بأنّي لن ألمسها! ثمّ حضنتها بقوّة حتّى هدأت.

مرّرت أطراف أصابعي على كتفها نزولا نحو ظهرها.

جسدها ناعم وفتيّ.

أمسكت فستانها وأسقطته أرضا وابتعدت قليلا أراقبها.

عيني تنهّدتا لفرط جمال تفاصيلها.

كانت جميلة جدّا، منحوتة بدقّة كصخرة وصافية كنهر.

نهدها واقف كترانيم العيد الأولى، صلبا ممتلئا ومتكبرا، بطنها مسطّح إلى حدود خصرها المرسوم كحرف نون، تفحصتها كتحفة فنيّة لم أعتقد أبدا أنّها تملك جسدا كهذا!

مرّرت كفّي بين جيدها نحو صدرها منزلقا إلى بطنها وفخذها ثم ضممتها إلى صدري.

أخاف فقدانها.

حملتها بين ذراعي نحو فراشي، وضعتها على مهل، دفنت رأسي في حضنها وشردت قليلا.

قلبي يخفق.... يخفق....لا يتوقّف..

دوامة عظيمة تفترسني وأغرق.

مرّت الشهور والجميع لا حديث لهم غير زواج نجمة المرتقب وأنا غارق في تفكيري، أبحث عن حلّ يخلّصني من مسعود.

اليوم الأوّل من يونيو، اقترب موعد رحيلنا إلى تستور.

بدت على نجمة علامات المرض، وجهها مصفرّ ولا طاقة لها فهي عاجزة عن الحركة، تمضي يومها نائمة أو في المطبخ تأكل بنهم.

قلبي يؤلمني من أجلها، إنّها متوترة كلّما اقترب الصّيف تسألني عن الحلّ.

أرمقها بهدوء وأقول لها لا تقلقي، إن الله سيجعل لنا سببا!

حسنا! ببساطة كنت سأقتله! سأفتعل له موتا مهيبة فيرحل عظيما.

خلال هذين اليومين بدأ يغمى عليك كثيرا وأصرّت تركيّة على قدوم الطبيب ليفحصك، كنت تبدين شاحبة حدّ الموت ولا طاقة لك للمشي أو الجلوس.

عندما أنهى الطّبيب فحصك وجدنا مجتمعين ننتظر في السقيفة فقال لنا بكلّ ثقة الأطباء: مبارك، إنّها حامل !

هذه الحياة كبحر مهما أخفينا بأعماقه من أسرار سيأتي يوم ما ويلفظها دفعة واحدة على الشاطئ.

قد لا أكون بتلك الشّجاعة الّتي تجعلني أواجه الحاجّ وتركيّة لكن الشّجاعة تنمو أحيانا في رحم امرأة وتتمرّد وتجعلك تواجه جبنك وخوفك.

توجّهت نوّة إلى غرفة ابنتها وانهالت عليها ضربا وسحبتها من شعرها نحو السقيفة وهي تصفعها على وجهها بعنف وتصرخ ابن من يا عاهرة ؟

وضعت تركيّة يديها على فمها تكتم شهقة الموت في حلقها ولم ترفع عينيها عنّي فهي على يقين أنّه ابني !

الحاجّ كان يحوّل بصره بين نجمة ونوّة ويقول لها اهدئي يا امرأة ! أيًّا كان الفاعل سيتزوّجها غصبا عنه.

لم يعد أيّ منّا قادرا على التحكّم في غضب نوّة التي لم تتوقف على ضرب بطن نجمة بقدمها محاولة إسقاط الجنين وهي تسبّها وتلعنها، تكوّرت نجمة على نفسها وبدت تتلقّى ضربات على رأسها.

ارتميت فوقها لأحميها من نوّة الّتي تحاول قتل طفلي وصرخت في وجهها: إنّه ابني ! أنا والده !

نزل عليهم الخبر كالصاعقة حبست أنفاسهم للحظات توقّف معها الصرّاخ والنّحيب ثم قطعت صمتنا صرخات تركيّة وهي تقول: يا ناري عليك يا تونس ! يا ناري على رجالك! وسقطت أرضا تنوح.

توقفت نوّة عن ضرب ابنتها ونزعت وشاح رأسها ليطلّ شعرها المجعّد وبدأت تندب وجهها وتقطع ضفيرتيها المنكوشتين، اقترب الحاجّ مني وصفعني بقوّة فقدت معها توازني وارتميت على البلاط بقرب نجمة والتفت نحوها ليقول في صرامة اجمعي أغراضك أنت وأمّك ولتغادرا داري ! لا مكان للعاهرات وبنات الشوارع في بيت الحاجّ!

استفاقت نجمة وألقت بنظراتها الأخيرة نحو أبي وتركيّة وغادرت القصر وهي تعرج بين ذراعي واختفيت معها نتحسّس الطّرقات المظلمة ونستمع لصوت نواح نوّة حتّى اقتربنا من آخر الشّارع وانتهى كلّ ما كان يربطها بدار منامة وتحرّرت أخيرا ممن أذلّوا قلبها واستنقصوا من عبقريتها واتهموها في شرفها لأنها مجرّد خادمة سوداء .

كنت أحثّ الخطى لنبلغ فندق صونيا.

عندما اقتربنا من مفترق الشّارع، التفتّ لأتأكّد إن كان هناك من يتبعنا، انزلقت بخفّة في الشارع الضيّق والتهمنا الظّلام.

كانت نجمة متلحّفة في سفساري وقد أخفت كل جسدها ووجهها وتمتمت بقلق: سنبلغ الفندق وسأتركك هناك وأعود، يجب أن أحلّ المشكل !

ارتمت نجمة على كرسيّ في البهو وكشفت عن وجهها وتخلّصت من الرداء الّذي تلبسه وأجهشت بالبكاء.

كانت صونيا ذاهلة وغير مستوعبة لما يحدث وكلّما رفعت عيني نحوها وجدتها تسألني بحاجبيها من هذه ؟

نظرت إليها وقلت ببساطة: إنّها زوجتي ! ثم انزويت بها في المطبخ وقلت لها: اسمعي إنّها في خطر حقيقيّ، سأتركها معك وأعود غدا صباحا !

شهقت صونيا بصوت عال وقالت: سوداء ! إنها سوداء يا يوسف! كيف أمكنك أن تفعلها !

وضعت كفيها على وجهها وقالت باستسلام: إنّه حظّ البشعات! فأجبتها بحدّة ليست بشعة ! اللّون مجرّد تفصيل بسيط لا يعني للقلب شيئا ! فضحكت صونيا ببلاهة وقالت: يا فخر تستور بك.

شردت للحظات وقلت لها: ستظلّ معك انتبهي لها إنّها حامل !

غادرت الفندق تاركا ورائي غضب صونيا وحزن وانكسار نجمة.

أعيش حالة من الضياع، أرغب في فهم العالم واكتشاف نفسي.

كان صعبا عليّ أن أواجه تردّدي في اختيار الحلّ الأسلم، كنت أتّبع قلبي مثل أعمى، أثق به اعتقادا منّي انّه لن يخونني وأنّي أعرفه منذ كنت رضيعا فقد كان رفيقا مخلصا لي، تركني نبضه أفهم معنى أن اكون على قيد الحياة.

اليوم قلبي يخونني وأشكّ في قواي النّفسيّة أتساءل كأحمق لماذا يرفض الحاجّ زواجي القدريّ من نجمة ؟

هل كنت فعلا سيّدا وتدحرجت مثل بيضة نعامة نحو أحضان خادمتي ؟ أم أنّه الحبّ ببساطة فعل هكذا بإيماني ؟

عدت إلى دار منامة فقد كنت مجبرا على مواجهة أبي الّذي خيّرني بين تستور ونجمة !

كنت أقترب من ظلال أشجار الحديقة المحيطة بدار منامة، كانت الظلال موحشة بيد أن نحيبا مكتوما بلغني من ناحية المنحدر الّذي يبلغ ممرّ غابة الزّيتون.

اقتربت في حذر نحو مصدر الصّوت فرأيت نوّة على الأرض، ترمي التراب على وجهها وتتلوّى من القهر، ورمقتني بنظرة يملؤها الحقد والكره اقتربت منّي وقالت بوقاحة وانفعال عنيف : من بين جميع نساء الأرض بقيت تحوم ككلب مسعور حول ابنتي فجلبت لنا العار والخيانة ألم تقبل بالبيضاء، البلديّة بنت تونس الربط وأحياءها وأبوابها السبعة ؟ ألم ترضي غرورك أيّ واحدة منهن ؟ فقط سوداء ابنة

السوداء الأرملة هي التي اخترت لتمعن في سخط الجميع علينا ونحن ضعفاء ! أتعلم أنك حقير !

ماذا تملك أنت حتى تفعل بنا ذلك ؟

ألا تعلم أنّه ما إن يحرمك الحاجّ من أراضيك ستصبح أفقر من نملة !

هل أنت رجل يا ابن تركيّة!

يا ابن العاهرة!

يا حقير!

لعنة الله عليك يا ابن تركيّة !

نوّة لا تتوقّف عن شتمي، صراخها يهشّم رأسي كفأس.

إنّها تصرخ كحيوان أسطوريّ أحرقوه في ميدان الحرب، بدت لي في النّهاية امرأة بشعة، سليطة اللّسان.

حاولت أن أكون متوازنا ولا أقترب منها فقد كانت أمّ نجمة!

لكنّها ظلّت تتمادى في الحطّ من كرامتي واستصغاري.

توقّفت عن التمرّغ في التّراب واستقامت واقفة نحوي فاتحة عينيها كفوهة بركان وبعثرت أصابعها في جسدي لتغرز أظافرها في لحمي وهي تهزّني بسخط وتقول صارخة: بسببك سنرمى خارجا كجميع البؤساء على هذه الأرض، وصفعتني بكلّ طاقتها !

كنت أتلقّى الصّفعة في شرود وصدى قوتها يخفق في قلبي ليسبب انهيارا في داخلي، كنت أحملق فيها كمعتوه.

سبّها المستمرّ لي جعل عقلي يتشتّت، رفعت يدي نحوها وأمسكتها من كتفيها بإحكام ودفعتها بكلّ وقوتي بعيدا عني فسقطت منهارة واصطدمت بحجر مدبب فجر رأسها من الخلف.

كان ارتطاما عنيفا معه هدأت أنفاسها واختفى صوت صراخها.

عمّ السّكون المكان ومن بعيد سمعت صوت أبي وهو يتساءل مذهولا: هل قتلتها ؟

كان يقترب خائفا وسقط أرضا يتحسّس نوّة الميّتة!

لا أنفاس تمنحه الهدوء والثقة بأنّي نجوت من جريمة ما!

كان يتمتم وهو يخفي رأسه بكفيه أنت عار علينا !

رمقته ببرود وقلت له بلا مبالاة : نجمة زوجتي ومن سيمنعها عنّي سأقتله ! حتّى أنت قادر على قتلك ! فلتفعلها أبي !

توقّف الحاجّ يوسف مرعوبا من وحشيتي وهو يراقبني في خوف، لقد كانت عيناه ترتعشان ويداه تهتزّان في غضب.

عدت إلى غرفتي، ألقيت بجسدي المتعب على الفراش ولم أتراجع عن النّوم العميق رغم هول الكارثة الّتي تسبّبت فيها.

كان ينتابني شعور فظيع إنّي أكرهه فقد منعني دائما من إتباع قلبي ليختار لي الأنسب.

كان يعتبرني وريثا لأراضيه وأنّي سيّد على القوم لكن تمردّي عليه أزعجه جدّا حتى أنزله منزلة الجريمة فهل يغفر لي ؟

كان الظّهر يشارف عن الانقضاء وأنا جالس بمفردي لكن دخول تركيّة أفسد عليّ ذلك.

شعرت بيدها تهزّني بعنف، استيقظت من غفوتي وكأنّني عدت بعد الموت، أتحسّس رأسي الثّقيل وجسدي المنهك.

قالت لي بارتباك أفق الشّرطة هنا ! قفزت مذعورا وسارعت لتغيير ملابسي واتجهت نحو غرفة الجلوس لأجد ثلاثة أشخاص يحقّقون مع الحاج حول الجثّة التي وجدها راعي الغنم صباحا ملقاة بين أشجار الزّيتون خلف بيتنا وعلى ما يبدو أنّها جريمة قتل.

شهقت تركيّة بفزع وردد أبي بثقة: إنّها خادمتنا نوّة ! فقال له الشرطيّ: جيّد جدا، لقد سهّلت علينا مهمّة البحث عن اسمها ومن تكون ثم استطرد قائلا هل لك أن تخبرنا ما الّذي حصل لها البارحة؟ كيف اختفت؟ ما سبب موتها ؟

استند أبي إلى الحائط وأخذ يلعب بالعصى في شكل دائريّ، بالتدريج بدأ وجهه الجامد يسترخي ثم قال بانكسار: ابنتها حملت من شخص مجهول والبارحة حدث شجار عنيف بينهما على إثره غادرتا البيت وأعتقد أنّ فضيحتهما أفضت لقتل العجوز المسكينة.

وزفّر أبي بحرقة وتابع: إن احتجتم لأوصاف ابنتها فهي سوداء، طويلة القامة، حليقة الشعر كشاب وقويّة البنية.

واستطرد بلؤم تعرف كيف يكون جسد الخادمات.

كان المحقّق يتلقّى المعلومات بتركيز ويسجّل كل ما يقوله أبي على دفتره، وأنا ممزّق ولا أصدّق ما أسمع، ابتلعت لساني وضاعت الكلمات منّي فإن نطقت الحقيقة صرت قاتلا.

انتهى الشرطيّ من استجواب أبي وبدت الرّواية كأنّها حقيقيّة ومرضية لهم لأبعد الحدود.

غادروا بعد أن أخبرونا أنّه بعد أيّام سيتمّ التّحقيق معنا منفردين في مركز الشّرطة لأخذ كلّ الإفادات القانونيّة وفتح بحث حول جريمة القتل الشّنيعة الّتي افتعلتها فتاة زانية.

لم تنبس تركيّة بكلمة وعادت إلى غرفتها، نظرت في عيني أبي فوجدته هائما وقد امتقع لون وجهه.

نحن القساة والمجرمون كلّ منا يمتلك موهبته الخاصّة.

لا يمكن أن تثق في قاتل!

لا يمكن أن تثق في داهية!

يتفرّع الشرّ ويتّخذ الكثير من الوجوه.

تكون ضحيّة للأشرار عندما تكون بريئا أمّا نحن فإننا نلتهم بعضنا ونقف في وجوه بعضنا بعنف في محاولة منا لنيل النّصر والتفوّق على من هم أدهى منا.

كانت حربا ضروسا بيني أنا وأبي.

لقد فعلها وورّط نجمة بقتل أمّها وأراد بذلك أن تفنى في سجنها !

كان يكذب ويدافع عن أرضه بالتخلّص من أحفاد سود قد يرثونه.

تحوّل كلّ منّا إلى كتلة من الجحيم والشرّ وبدأنا نواجه بعضنا بكلّ تلك الاختلافات الّتي وجدها هو عار على عائلتنا ووجدتها أنا قصّة عشق.

بدأت الشرطة عملية بحث واسعة في جميع أحياء تونس عن نجمة.

تمرّ الأيام ثقيلة والحرارة ترتفع تنبؤ باقتراب موسم الحصاد، هذه السنة تخلّفت عن الذّهاب لتستور وبلغني أنّ أبي أخبر الجميع بأنّ نجمة هربت مع عشيقها بعد أن قتلت أمّها، أخفيت كلّ تلك الحماقات عنها وكان كلّ اهتمامي منصبّا فقط على إنقاذها.

مرّ شهرين وأنا حزين، أراقب نجمة غارقة في صمتها لأيام، صونيا تعتني بها وتعدّ لها الأكل وتحاول أن تجاريها في بعض الحديث وتخفّف عنها.

أحبّت نجمة كثيرا، أخبرتني أنّ روحها نقية وحديثها مشوّق وكلماتها طغت على أيّ اختلاف بينهما.

اعترفت صونيا في النّهاية أنّه لا يفرقنا لون أو دين أو عرق فنحن بشر، كلّ له سحره وجماله وأخلاقه.

اللّون مجرّد تفصيل بسيط لا يمنعنا أن نحب أبيض، أصفر، أحمر أو أسود، الأهم من كل ذلك أن نحب فعلا بصدق ولا نقف عند بعض التّفاصيل الفرعيّة الّتي لا تشبه روح أحدهم بداخل قلبه.

صونيا اقترحت شيئا بدا لي منطقيّا وسوف يساعدنا في التخلّص من اتهامات أبي لنجمة والزج بها في السجن.

سنسعى لسفر نجمة إلى باريس وبعدها يمكنني اللّحاق بها ولكن الشّرطة متيقّظة ومتربّصة بها في كل مكان.

لم يكن مرور الفرنسيين بفندق صونيا عبثيّا، فجمالها ورقّتها جعلت أغلبهم مسحورين بها يطلبون ودّها ورضاها.

طلبت من أحد الضّباط الفرنسيين أن يساعد نجمة على الهروب نحو إحدى السفن المتّجهة نحو مرسيليا مقابل مبلغ ضخم من المال وبعدها يمكنني اللّحاق بها.

كان الترتيب محكما وبدأنا نتجهّز لذلك وجمعت كلّ ما كنت أملك من أموال إدّخرتها لسنوات، وجدت أنّ المبلغ محترم وسيكفي أن تنعم نجمة بحياة هادئة ومريحة لعدّة أشهر حتّى ألحق بها.

أحزنني رحيلها وخفت عليها وهي حامل بطفلنا الأول غير أني أشكر الله لأنها مثقّفة وتتحدث عديد اللغات وحتّى إن تركتها برهة من الزّمن فأنا تركتها وبين يديها سلاح قوي وهو الثّقافة لتجابه بها أوّل تجاربها.

في آخر يوم بشهر تمّوز اتجهت رفقة نجمة لرصيف الميناء لأودّعها، كانت هادئة مستسلمة للمجهول ولكلماتنا الداعمة لها، إنّها ذكيّة وستحظى أخيرا بحرّيتها الكاملة مثلما حلمت بذلك لسنوات.

أحيانا يجب أن نتألّم حتّى نبلغ مرادنا، في الكثير من الأحيان يعطينا الله مكافأة على حجم صبرنا على الأذيّة الّتي نتعرّض لها في حياتنا ويكون ذلك ثمار قطاف وجعنا وانتظارنا.

اليوم ستطوين صفحات من الماضي الّذي ترك الجميع يحدّد مصيرك فكنت خادمة لكنّك أخيرا ستبدئين بالطريقة الّتي تريدينها أنت دون سواك وهنا يا نجمة تكمن مفاجآت القدر، لا شيء يؤخذ بسهولة، يجب أن نخسر الكثير في حرب الحياة لنظفر بما نريد .

كانت هذه كلماتي الأخيرة لها، ضممتها لي، كانت باردة ومحطّمة ففي اليوم الذي بلغت قدرها العظيم في اختيار حياتها فقدت كل شيء: أمها، يوسف، تونس!

صعدت السّفينة وهي متخفّية وكنت أنفصل عن جسدي، أحلّق فوقها كملاك، أودّ لو تغادرني روحي لتحرسها كيد الله.

الآن سأنتقل لسرد تفاصيل أكثر حزنا من كلّ ما مضى.

أنا أكتب بوضوح وعمق، قد لا أكون جيّدا في الكتابة ولكن مشاعري حقيقيّة ومؤلمة.

ستبدو لك روايتي غريبة وغير منطقيّة ومبالغ فيها لكنّها كلّ ما أنا عليه رجل غنيّ جبان، مجنون، نرجسيّ وقاتل لكن رغم ذلك فأنا صادق جدّا.

انتهى خوفي عليك برحيلك وعاد الحاجّ لتونس، كانت نبره صوته تعبر عن الضيق والبرود وكان ينظر لي باشمئزاز.

أخبرته برغبتي في الحصول على نصيبي من أرض تستور لأنّي عازم على الهجرة إلى باريس.

لم يرفع عينيه نحوي وسألني ذلك السّؤال الإنكاريّ المبطن بإجابة هو يعلمها مسبقا: نجمة هناك ؟

لم أحاول الكذب عليه فأجبته بكلّ شجاعة رجل لم يعد يبالي بأي ردّة فعل محتملة من والده: نعم غادرت منذ أيام.

توقّف أبي عن هزّ عصاه وغادر في اتجاه غرفته وكانت تركيّة واقفة على الباب تستمع لنا ووجهها مكسور وقالت لي في ضيم شديد: ناري عليك يا تستور! ويا ناري على رجالك !

غادرت الغرفة متّكئة على عكازها ولا تنفكّ عن لعن يا نجمة.

أحسست لوهلة أن كلّ ما أنا عليه لم يعد يشبهني، أشعر بغربة، القصر مخيف بسكونه، الحزن يغلّف الجدران ويبعث فيه رائحة الخيانة والغدر.

شيء لعين سيحصل قريبا !

منذ خمسة عشر يوما لا أغادر غرفتي، أشعر بدوار كلّما رفعت رأسي إلى السقف يظهر أمامي وكر أفاعي تتراقص، عيني مثبّتتين في استسلام رهيب لتلك الخيالات، شعور بالدوار وألم يشبه الخفقان في مقدمة رأسي يمنعانني من الوثوب إلى رشدي.

أحسست بيدين تمسكان بي وترفعانني إلى فوق، لا أستطيع الحراك، عجزت عن الدّفاع عن نفسي، أنا مسلوب الإرادة، لا قدرة لي على الفرار، أنا معلّق بين ذراعي رجلين ضخمين يحاولان وضعي داخل عربة المشفى البيضاء ويربطانني بإحكام وأنا شبه مخدّر.

تلتقي عيناي بنظرات الحاجّ المطمئنة وهو واقف بين ثنايا السلّم يرمقني بشفقة ممتزجة بمشاعر الندم والخسارة العظمى لأنّه أضاع ابنه وجميع تلك السنوات الّتي يحلم بها أن أكبر وأصبح سيّد الأرض وسيّد تستور.

الآن أنا مجرّد ظلّ رجل مربوط لا يعرف أين يقودونه.

كانت عيناي الشيء الوحيد اليقظ كفوهتي بركان، مشتعلتين، غاضبتين وأنظر بيأس إلى غرفة تركيّة.

أودّ أن أصرخ "يا أمّاه" كي تأتي لتفكّ وثاقي وتضمّني إلى صدرها لتحميني ممّن تسوّل له نفسه أذيّتي لكنّي لا أرى ظلّها.

أتجاوز باب بيتنا وأنا تائه، روحي تودّع الجدران والشبابيك الموصدة لسنوات خوفا من الحاسدين.

غادرت قصر منامة نحو مصير مجهول وعقلي يعي جيّدا أنّه تمّ تخديري وعرقلتي عن جميع وظائف جسدي الحسيّة.

والشّخص الّذي فعل ذلك كان يخافني جدّا.

يخاف أن أقتله !

لقد كان أبي !

من سيّد الأرض، ملك تستور إلى مجرّد رجل مجنون ...

هل هي قسوة الحياة ؟ أم هي بعض ما افتعله البشر بحياتنا ؟

لقد جعلوا من نجمة خادمة لهم لسنوات واليوم يجعلون منّي مجنونا لأجل غير معلوم.

المشفى الكئيب، تشابه الأيام البائس، أنا مستلقي على ظهري طوال اليوم، فقدت الثّقة في نيل حريتي، أنا محبط ويائس من الحياة.

لقد مرّت أشهر وأنا سجين مشفى المجانين ولم يزرني أيّ أحد.

كنت أنسج تسلسل الأحداث في حياتي معتقدا أنّي أملك كل شيء ولكن في النهاية توقّفت أمام حقيقة واحدة وهي أننا نساق نحو مصير رسم لنا مسبقا من أيادي القدر.

أشعر أنّي مقيّد وشبه مكبّل كغنيمة حرب وطريقي واضح جدا أعبره بسرعة دون توقّف وذلك الطريق كان سجني .

عدم رغبتي في المقاومة أكثر يجعلانني أرتمي في سريري كمومياء وأغوص في وسادتي ولا أفيق من غيبوبتي إلّا على طيفك يا نجمة.

أذهب مكرها إلى المطعم المهجور إلاّ من طاولات رمادية من الخشب القديم وكراسي رثّة يجلس عليها بعض المرضى الواعين بالمفهوم الإنساني للجوع.

كنت أحاول أن أنتفض وأضرب على الطّعام ولكنّي أشعر بدوار رهيب وأعلم علميّا لأموت جوعا يجب أن أقضي شهورا حتّى أبلغ مرحلة أن يلتهم جسدي نفسه فأنفق كناقة وكان ذلك متعبا ولن أتحمله أبدا.

لقد حاولت ولكنّها كانت طريقة غبيّة لأموت، إذا كان يجب لأحدهم أن يموت يجب أن يفعل ذلك بسرعة ودقّة ولا يمنح الزّمن فرصة ليشمت بغبائه وكفره.

كان العشاء عبارة عن حساء من الشّعير وقليلا من الأرز والخبز، كنت أمضغ كلّ ذلك مكرها طمعا في البقاء.

الأنين خلف الأبواب يمزّق الصّمت، وتشبه حدته صوت النوارس وهي تخترق صفحة البحر نحو السّماء ممزقة في عنف الحدّ الفاصل بين حدود الماء والفضاء.

كان المرضى لا يتوقفون عن افتعال الأنين وتنبعث أصواتهم كحفيف استجداء لشفقة الآخرين.

كنت وحيدا وفي مواجهة حقيقيّة مع الانهيار العقلي، لقد كان من السهل أن نفتعل الجنون بأحدهم ونسلب منه كل إرادته.

كنت أشتاق لتركيّة وأشعر أنّ الوحش الذي بداخلي هدأ وما عدت أستمع للأصوات الثّائرة الّتي تدفعني لأقتل.

صمتت كلّ الضّوضاء بداخلي وغلبتني السّكينة والاستسلام.

لا مهرب لي من أدوية المرخيات العصبيّة الّتي يتمّ حقنها في أوردتي وتجعلني هائما ومستسلما لأيّ قهر.

أُجبرت على الالتزام بالهدوء خوفا من المستقبل ومن خسارة نجمة.

ومع الظّروف السجنيّة القاسية استسلمت وبدأت أتعوّد حتى أصبحت أكثر وعيا بما يحصل من حولي.

تمرّ الأشهر ويزداد معها هدوئي وقدرتي على تمالك أعصابي.

أصبحت أكثر وعيا وبدأت أتعوّد على كلمة إنّه مجنون وتعلّمت أن أعيش مستقرا.

لاحظ الجميع أنّي تغيّرت وحدث ذلك إحدى الصباحات عندما كنت جالسا في الحديقة أحسب كم ذبابة تبوّلت على الوردة الذابلة أمامي، وأحسب كم نملة سحقت بسبابتي ولقّنتها الشهادة.

غريب عودة العقل إلى رأسي، ورائع أن أعي أنّ القطط تتزاوج بعد أن تفتعل شجارا وأنّ النّحل يبصق على بتلات الورود وينسحب الظلّ من الأشياء المحيطة ليتركها عارية متلهّفة وأضحك على فرع الشّجر الّذي خلته ممتلئا ولكنّه كان مجرّد انعكاس سخيف لملاءات المشفى البالية.

أتابع حنّا المجنون يضع عضوه على ثقوب الأشجار ويصرخ منتشيا وهو يسبّ يا عاهرة!

يقولون إن زوجته خانته مع أحدهم، كان يرسم لوحاته الشعبيّة على أرصفة طرقات حلق الوادي، ويطمح لأن يكون رساما مشهورا ذات يوم.

كانت زوجته امرأة لعوب، أثرت بها لوحاته واعتقدت أنه يفهم في عالم النساء ويعرف جيدا كيف يخضع امرأة له، كان يرسم نساء البدو والحصاد بكل دقّة ويتفانى بوقاحة في إبراز تفاصيل أجسادهنّ المغرية مبرزا تدرج وعمق الألوان الذهبيّة والبنيّة والّتي كانت تمثّل توهج الشّمس ونورها وهو يسقط ملتهبا بين شقي النهدين العاريين والجيد المنزلق نحو السّماء في دعاء وحلم متوجّس بالحريّة والفرار من حياة البدو القاسية.

حاول حنّا إيجادها لكن العار والصّدمة مسحا عقله بطريقة متوحّشة وأرغم عائلته أن ترمي به في المشفى من شدّة ما افتعل من حماقات ومشاكل.

فما إن تشتعل في قلبه ذكرى خيانتها له حتى ينقضّ على أوّل مارّ فيصفعه وينهال عليه بالضرب، وانتهى به الأمر في المشفى ليقبع فيه عدة سنوات لا يعلمها أحد منّا.

حل المساء كئيبا، العاصفة تضرب الأبواب تضرب بقوّة وأنا واقف أراقب هجوم الأمطار الفضولية داخلا لتزعجنا وتنتشر في جميع ردهات المشفى.

أبتعد وقد هجم البرد على عظامي يحطّم كلّ طاقتي وتذهب مخيّلتي إلى دفء البيوت ومدفئة الغاز فوقها إبريق الشاي يصفرّ من حرارة المياه وبضع قشور البرتقال منتشرة عل سطحه لتعبق الغرفة برائحته اللّذيذة المحترقة.

أضع رأسي على فخذ نجمة وأدفن أنفي أشتم رائحة عرقها وأختبئ تحت غطاء الصّوف مستمعا في شغف لها وهي تسرد يومها بطريقتها اللّطيفة والغريبة فكلّ شيء تجعله بسيطا للغاية، متوقعا وعاديا أيّا كانت المصيبة فهي تستنتج من كلّ حدث

عرضيّ حكمة مهمة، تداعب بأطراف أصابعها شعري وتستمرّ بالدعك حتّى تبلغ فروة رأسي فتمرر إبهامها في شكل دائري فأسترخي وأستسلم للنّوم في حضنها متناسيا مصائب الحياة.

أنا لا حاجة لي بأراضي تستور ولا بقصر منامة بقدر حاجتي لنجمة.

هناك مشاعر تنفجر في قلبك مرّة واحدة في العمر مع امرأة واحدة وتأتيك زائرة وإن رحلت فهي ترحل إلى الأبد.

أشتاق في أوقات البرد ووحدتي لرائحة قهوتها، أرى عينيها تنظران لي في قاع فنجان القهوة، أتجرّع مرارتها وأتذوّق سوادها في حلقي ويظلّ بصري هناك مخطوفا بما بقي في القاع من عينيها.

أنا أتخبّط في ذكراك كالغريق لكنّك لست هنا!

يصيبني الحنين لك وأنخرط في بكاء شديد، اللّعاب يسيل من فمي، يتناثر على ياقة قميصي، المخاط أبتلع نصفه وأمسح بكمّي ما بقي خارجا وأنتحب مثل يتيم، أتكوّر في ركن الغرفة كحبّة يقطين نتنة وأبكي من جوف بطني بحرقة وأتنهّد من أعماق صدري بقهر وأقضم أصابعي كأنّي مخلوق قبيح مدبب الأنف.

جلست أخفي نفسي عن المرضى هاربا بانهياري عن جميع العيون.

شعرت بيد تتحسّسني وتمسح على شعري بإصرار وتفان، التفت بنصف رقبة منحنية وفتحت عينين متورمتين من البكاء وصرخت: ماذا تريد ؟

كان المجنون يستمرّ في تمريغ شعري بأظافره الطويلة المتسخة ويقول لي بحب: اسكت يا بني !

كان يظنّ أنّي ولده الصّغير، أبعدت يده عن رأسي بتوتر وأمرته أن يغرب عن وجهي بعيدا فأصرّ وبشدّة على المسح بيديه على كتفي قائلا بانفعال: الرّجال لا يبكون ! أنت رجل يا صغيري!

كوّرت قبضتي ودفعتها بكلّ طاقتي نحو أنفه واستدرت مثل قنفذ قبيح مفزوع وطفقت أضرب الرّجل بلكمات سريعة وخاطفة حول فمه، عينيه وأنفه.

سالت دماؤه وشعرت بلزوجتها تداعب أصابعي، توقّفت فجأة، وثب إلي عقلي، مسحت دموعي بقميصي وأبعدت حشد المجانين من أمامي وأخذت أركض في كلّ الاتجاهات وأصرخ لأتوقّف فجأة أمام الحديقة أراقب عمود النور يلقي ببقعة ضوء ضعيفة ومرتعشة.

رأيت شبح نجمة ينظر لي بتركيز وقسوة فهدأت، خفت أن تغادر عقلي وردهات المشفى وأظلّ بدونها فبعد رحيلها ظلّ الفراغ يملأ قلبي.

أحسست العالم كبير جدا ومخيفا.

كان النّظر في عينيها يريحني ويشعرني أنّ الأرض مسطّحة وصغيرة، أشعر بأنّ العالم عظيم وأنّ لا وجود لقوانين الجاذبية إلاّ بعينيها، شعور الفقد ينزع من قلبي صمّام الأمان فيصيبني الهلع وهو شعور مخيف جدّا.

تربعت هناك على حاشية التّراب وفتحت عيني كحفرة عميقة وبقيت أتابعك.

كانت العاصفة حاضرة بقوّة في وسط الحديقة وبدأ المطر يهطل في باحة المشفى، دام نصف يوم بدون توقّف.

امتزجت التّربة بما فيها من غبار، بقايا أوساخ وأنقاض حجارة وحيوانات ثمّ تشكّل طين في هيئة كرات مفزعة ولزجة واستمريت أراقب تفرّعات الطين الأسود ويتكتّل التّراب مندفعا نحو ركن السور.

تهيّأ لي أنّي أرى جسد نجمة بصدرها ومؤخرتها فتوجّهت نحوها وقد ارتسمت الصورة كاملة في عقلي واضحة مثل خطوط يدي وجثوت هناك تحت المطر بين تشكلات الطين الّتي بدت حقيقية جدا.

وضعت باطن خدّي على الأرض، بدأت أشتمّ رائحة التّراب وأتحسّس لزوجته وكثافته بأطراف أصابعي، رحل بي خيالي بين شقيّ صدرها ورائحة جسدها، دفنت أنفي عميقا بين أحضانها وانفجرت بالبكاء.

بكيت قهرا وشوقا لأنّي لن أراها مجددا.

كانت رائحة التّراب تضرب حواسي وتذكّرني بالهنشير وطفولتنا وشبابنا وتتلاعب بما بقي في العقل من صبر، وأظلّ مثل خنزير صغير أتمرّغ وأتخبّط في الطّين الّذي استحال وحلا من شدّة شوقي لها حتّى شعرت بيدين أمسكتاني بقوّة وسحبتاني إلى الدّاخل وأنا أبكي بانهيار.

كنت على مشارف الجنون وأنا أصرخ في وجه الرّجل قائلا: كيف تباغتني في غرفة نومي مع زوجتي ! أتريد أن يراك أحدهم وأنت تضاجع زوجتك !

فيصرخ بي محذرا: يا مجنون أصمت أتنكح الطّين يا أبله ! ثم يجرّني نحو الحمام المهجور ويتابع بغضب: أنت أشبه بخنزير أضاع عقله ! فأباغته من رقبته ممسكا إيّاه بعنف وأقول له: قلها مرّة ثانية وسوف ترى أمعاءك في حلقك !

يدفعني بقوّة نحو الأرض ويفتح صنبور الماء فتنسكب المياه الباردة على أجزاء من جسدي المنهك، أتوقف عن الصراخ وأبكي.

حاولت مرارا ولآلاف المرّات أن أتجاوزك...

أنساك...

لم يكن حبا كان عشقا !

أنا أشتاق لك !

تعدّدت زيارة شبحك لي كلّ ليلة فاستسلمت له.

ما جدوى أن أنزعك من قلبي ولا أحد يستحق مكانه غيرك.

أنت لا تغادرين مثل لعنة وأنا أضع بين يديك ما ظلّ من العمر والعقل.

سأكون في الحياة أحد الّذين قتلهم عشقهم وذاكرتهم لا أكثر.

سأجدّد عهودي لك وأخبرك أن تقتلي ما ظلّ من عمري بكلّ إرادتي فلا شيء ذو أهميّة بعد رحيل من أحبّهم القلب.

كم مرّ من الوقت ؟

حقيقة لا أعلم.

كم أمضيت في المشفى ؟

لا أعلم أيضا !

الأدوية قتلت في عقلي كلّ حساب منطقي للزّمن.

أنا وحيد، منبوذ، منسي وعقلي يدفعني نحو المقاومة مثل سجين حرب منفي.

السّاعة الثّالثة صباحا تحلّ على عقلي كلعنة فأستفيق مختنقا ضجرا وأحاول أن أنام فلا أقدر.

وقت رهيب تزورني فيه الذّكريات، ساعة وضيعة ولئيمة لا هي مع الظّهيرة حتّى أستفيق وأتجوّل في الحديقة وأهرب من الجميع ولا هي عصرا حتّى أختفي بنفسي في إحدى الغرف.

إنّها ساعة لقيطة لا معنى لها غير أنّها مضجرة.

ما الّذي سأفعله الآن ؟

أنا قلق ومشتّت الأفكار بين النوم واليقظة.

أكره اللّيل الطّويل وخاصّة ليالي الشّتاء ببردها ووحدتها وأتصلّب في توتر أستمع لشخير وأنفاس المرضى في الغرف المجاورة وصنبور الماء المهجور تفرّ قطراته الماجنة نحو الأرضيّة فتحدث صوتا يخنقني.

أحاول مرارا أن أغمض عيني ولكن الجزع يمنعني من الغوص في النّوم.

أحاول أن أستحضر خيالات أو أشباح بعض الذّكريات لكن تخونني الذاكرة فأظلّ محملقا بالسقف كمعتوه في حالة ما بين الإعياء والتفكير.

ألم أقل من قبل إنّها ساعة استفاقة لعينة !!

أنتظر أن يمضي الوقت سريعا لعلّ عيني تسترخيان وحدهما فأنام، عقلي فارغ كنفق وعيني مغمضتين بتكاسل وأشعر أنّي جثّة هامدة ممددة بلا حراك حتّى باغتني حنّا المجنون ليضع وسادة على وجهي ويجلس برجليه فوقي ويمنعني من الحراك كعجل صغير جثا فوق صدري، فقدت القدرة على التنفّس تدريجيّا وخدّرت جميع أعضائي الحيويّة وخيّل إليّ أنّي أهدأ.

أجزم أنّها قد مرّت خمس دقائق وأنا أتجهّز للموت، تحرّر عقلي، كانت اللّحظة حادّة كسكين وسريعة.

أخالني في تلك الثّواني شطرت لنصفين أو كأنّي عبرت مجالين رهيبين شيء شبيه بانفصال نتروجين كان صغيرا ولكن عميقا.

وجع الانفصال بين برزخين مزّق الواقع في عقلي وساعده استرخاء جسدي في شبه صدمة أن أستسلم للموت، مددت ذراعي ورجلي وانهرت.

كنت أستجمع أنفاسي بصعوبة، أحدق في الظلام الذي غمرني، أشعر أني أعبر نفقا أو مجالا كونيا، من بعيد رأيت خيالات لكثير من الناس وسمعت بعض الهمهمات وشعرت بأنهم ينتظرون أن أعبر نحوهم.

كنت هادئا لا أشعر بالخوف، أندفع في ثوان نحوهم وأغادر الظّلام، وأعتقد أنّ ما كنت أتجاوزه هو جسدي والعالم المحسوس وفجأة تراءى لي خيال نجمة واضحا وحزينا، تلك اللّحظات كانت كفيلة بأن أتقبّل فكرة الموت وأموت بسلام.

وقفت نجمة في آخر النفق وبدا كما لو أنّني أرى شبحا، وجهها شاحب ومخيف، أثارت في نفسي الرعب والهلع، دفعت حنّا أرضا على بعد متر منّي واستفقت أتنفّس بصعوبة وأبكي.

كنت مهزوما وضعيفا.

لقد اجتزت للحظتي بوّابة الموت وعدت في شبه صدمة نفسية.

كان الموت مجرّد انفصال شرس للجسد عن العقل، كانت روحي هشّة ومنساقة في إذعان لمغادرة جسدي نحو السّماء.

كنت كتلة متصلّبة من الاضطراب والخوف.

هكذا تمضي أيامي بالكثير من الحذر والملل.

كم أمضيت في المشفى ؟

أعتقد أنّي بلغت السنتين ولم يزرن بهما أيّ أحد كأنّني ما عدت أنتمي لعائلة أو وطن.

كنت رجلا مهزوما ومتروكا، يقضي يومه في الحديقة، يستمع لأصوات العالم الخارجيّ من خلف السور الشاهق ثمّ حدث أن توقّف الزّمن في عقلي ومع حلول يناير تغيّر يوسف إلى الأبد.

كنت جالسا مثل عادتي في الحديقة أسترق بحواسي ما يحدث خارجا، ولوهلة أحسست بيد متردّدة تربّت على كتفي وتحاول كتم أسوأ الأخبار الّتي فضحتها أصابعه المضطربة، رفعت رأسي نحو الممرّض الضّخم وأوشكت أن أقفز عليه لأقول له أصمت، أخرس، ابتلع لسانك ولا تقلها!

فضحته عيناه وشردت منه الكلمات قبل أن ينطقها لتنغرس في قلبي كخنجر، التفت بكامل جسمي نحوه وعلمت أنّ هذا الحنان الفجائي يحمل بين طياته فاجعة قد تنزل على قلبي فتحطّمه.

تردّدت قبل أن أتوجّه بالسؤال: "ماذا" ؟ نظر لي في تردّد وقال لي: هناك زائر مهمّ بانتظارك في مكتب الطّبيب.

كنت أشعر بحزن عميق ومرارة بحلقي، لم أستطع أن أجر قدميّ إلى الأمام، استقبلني الطّبيب عند الباب، وبدأ في التعامل بحذر معي محاولا أن لا ينظر لي خوفا من ردة فعلي العنيفة، شدّوا وثاقي جيّدا وغادروا ليعمّ السّكون المكان وتتّسع حدقة عيني استعدادا لاستقبال خطر ما.

بين ظلال الغرفة بدا وكأن ظلا مرتعشا يقترب مني، رفعت عيني أتفصحه، كان وجهه غريبا، ملابسه رثة، جسده نحيل ويبدو عليه التعب والاحتضار.

ذلك الظل كان أبي !

قال لي بانكسار: لقد ماتت أمك منذ اسبوع ! وعدتها أن أخبرك وأعطيك وشاحها لتشتم رائحتها ما تبقى لك من العمر.

الصدمة هوت بي عميقا وابتلعت لساني وحواسي.

استمر أبي في كلامه المثقل بالانكسار والندّم: أنت خطير جدا يوسف !

أنت مريض نفسي وقاتل، كان يجب أن تتعالج منذ سنوات، كنت أعلم أنّك عبثت بسرج إسماعيل وقتلته ورأيتك تقتل نوة وعلى ثقة بأنّك قادر على قتل الجميع من أجل نجمة، يوسف ذلك لم يكن حبا، من المستحيل أن يتزوّج سيّد الأرض، ابن أنبل العائلات من خادمته، أنت مجرد مهووس ومريض، كان يجب أن نعالجك منذ أوّل سنوات المراهقة لكن تركيّة كانت تؤكد لي أنّها تمسك بزمام الأمور، أتمنى أن لا تعود تلك السوداء ابدا لتونس وأتمنى أن تشفى من تعلقك المرضيّ بها.

تركية كانت تصلي من اجلك كل يوم حتى موتها كمدا وغما عليك.

أنا اليوم جد مقهور عليك ،اتمنّى ان تمضي السنوات سريعا وتشفى.

أصلّي لرب السموات بأن يمسح من ذاكرتك اسم نجمة، مسح بكفه على رأسي وغادر، انهمرت دموعي بقهر، تهوى بي الأرض عميقا، ينفجر قلبي وتنفقع مرّارتي، أسقط أرضا، أحاول أن أزحف قليلا إلى الأمام، أشعر أنّي غارق في الظّلام مثل خفّاش قبيح، بدأت أعوي كذئب، أعتقد أنّه صوت أنين الوحش بداخلي عندما يحزن، ابتعد الممرّض الضخم في الردهة مختفيا، تركني تائها في الظّلام، سمعته من بعيد يقول: مجنون ! اتركوه سيهدأ.

جلست أبكي وحيدا، لا تكفّ الدّموع عن الانهمار ولا يكفّ الظّلام عن ابتلاعي ثمّ سقطت أرضا مغشيّا عليّ !

بعد يومين من القهر وجدت نفسي نائما على فراشي وقد علقوا مصلا على ذراعي، فتحت عيني بتوجّس، كان كلّ شيء يتراقص أمامي، أبصر النّور شاحبا والسّقف متآكلا والسرير رثّا وكل الألوان باهتة.

أنتظر مرور أحدهم لأسأله في أيّ يوم نحن ؟ وكم مضى من عمر على حزني ؟ لكن لم يأت أحد حتى حلّ الظّلام ليقترب منّي حنّا زاحفا كدودة قزّ ويقول لي بشيء من الهدوء لقد نمت يومين، يقولون أن ضغطك ارتفع وفجّر رأسك !

هل ستموت ؟

رمقت حنّا بعيون تائهة وغبت عن الوعي بضعة أيام أخرى !

كنت أهرب من كلّ شيء وبلغ بي هروبي أن أنفصل عن نفسي وقدرتي وخارت قواي.

كان قاسيا أن أراقب قدوم المجانين كلّ ليلة ليعبثوا بأذني وعيني وجسدي.

استجمعت قواي، واستفقت في اليوم السّادس، وبدأت أزحف في اتجاه المطبخ بقدمين مسترخيتين لأتناول القليل من الطعام حتّى تعود طاقتي.

كان إلزاما عليّ أن أعيش !

مرّت الكثير من الأشهر، تورّمت فيهما عيني من شدّة البكاء لفراق تركيّة.

أمسك وشاحها بكل قوّتي فهو كلّ ظلّ لي من ذكراها.

كنت أربطه بإحكام حول رقبتي لأشتمّ عطرها، رائحتها وأحيا بذكرياتنا وأستمدّ منها شجاعتي من أجل البقاء والاستمرار لأتحرّر يوما ما وأزور قبرها وأبكي كطفل صغير وأصرخ بها أن تستيقظ: تركيّة ! تركيّة !

كيف رحلت من دون أن تزوريني ؟ كيف انتهيت وأصبحت في عالم آخر من دون أن تفتحي ذراعيك وتخفيني هناك لتهربي بي من نفسي والعالم وشيطاني ؟

كانت السّنوات تمضي سريعة وأيقنت من أجل أن أحتفظ بصحّتي العقليّة يجب أن أظلّ وحيدا وأصلّي.

أجل الصلاة هي خلاص العقلاء، وحده الله سيثبت لي أنّي بخير وأنّي لست مجنونا، فالمجانين لا يصلّون !

خلال السّنوات الأخيرة التي قضيّتها في المشفى أصبحت أكثر هدوءا واختبرت كيف أتحكّم في شبحك ما إن يزرني، كان يقف قبالتي ذاهلا صامتا لساعات ثمّ يتبدّد، لم يكن يختفي أو يذهب فقط ينزلق كدخان ويختفي.

كان يصيبني الشّوق والألم ولكن بعد العديد من السّنوات بات شبحك رفيقا لوحدتي وصرت أكثر اتزانا واستقرارا.

كنت أعدّ أيام حرّيتي وأنتظر اليوم الّذي سأتجاوز فيه سور المشفى نحو الحياة، ما زلت أجلس قبالة العمود، أراقب ذات الشّجرة لسنوات كثيرة أين يسكن شبحك بين أغصانها.

يحلّ الخريف رهيبا، يبدأ في نفض وريقات الشّجرة بعنف واقتلاع الهشّ منها بسرعة وإلقائه أرضا عند طرفي أصابعي ثمّ تأتي رياح ما قبل الشّتاء لتحمل في عنف كل من أبى أن يسقط بهدوء فتجتثّ ما ظلّ من شدائد الورقات المعلّقة بالأغصان بعناد فتحملها بعيدا خلف سور المشفى أو بداية طريق السيّارات حيث يبلغني صخب الشّارع ويتناهى إلى مسمعي صوت عبورها الطّريق ومع مرور السّنوات بدأت أعرف أن عددها يزداد من ضجيجها فما كان مجرّد وشوشة أصبح اليوم صخبا قاتلا.

أنا سجين المكان أنتبه بكلّ حواسي لكلّ تغيّرات الزّمن فالمساجين وحدهم يطوّرون من حواسهم ليجدوا سبيلا ما للحياة والمقاومة، أظل أصغي لكلّ الضّجيج خارجا وأراقب الشّجرة فمن خلالها أحسب كم من العمر مضى وكم سنة غادرتني ويحلّ الرّبيع جميلا لتبدأ براعم الورود تتفتح وتستقبل أوّل شهر مارس بنشاط.

يزحف الدود محتفلا يريد أن يقضم كلّ ما هو نديّ وطازج وتخرج الحلزونات رأسها وتنطلق في الحديقة تستعمرها.

يختفي غضب الطّبيعة وتهدأ أغصان الأشجار وتركز على أوراقها القادمة وزوارها من النّحل والنّمل والطّيور وقلبي.

مع حلول الرّبيع تتبدّد وحدتي فالشّمس والهواء يشقّان رئتي ويمنحانني طاقة بأن أنفض عن روحي كآبة وبرد الشّتاء الطّويل، وترحل بي خيالاتي نحو باريس وأتيه في ذكراك يا نجمة.

أتخيّل طفلي ووجهك كلّ صباح وحبيبك الفرنسيّ الجديد وأعلم أنّك ستختبرين لأوّل مرة الحياة وأنت حرّة، الحياة وأنت سيّدة قراراتك !

ستتحرّرين من كلّ ما آلمك وستنسينني وقد تصادفين نظراتي في طفلنا فتتذكرين يوسف لثواني وتتابعين حياتك بكل برود وهدوء.

المؤلم أنّي كنت كلّ صباح أعيش بذكراك، وخيالك يتراءى لي واضحا بين ردهات المشفى، وأرى شبحك يراقبني من خلف سور سجني وبين المهاجع وفي طبق أكلي وعند نومي.

أتساءل أحقا كان الحبّ هكذا أم أنّه عقاب لكلّ ما فعلت من أجلك حتّى أعدمت برحيلك وجميع تلك الأيّام الّتي عشت كانت مجرّد ثأر.

أنتظر بكلّ صبر مغادرة المشفى لأتحرّر من لعنة عتيق نجمة.

صعب جدّا أن نكون عبيدا وبالأخصّ عبيد أهوائنا وقلبنا.

وتمر الكثير من السنوات يا نجمة.

فما الّذي تريدين أن تعرفيه عن المشفى ؟

فضولك يا نجمة سيجعلك تودّين أن تقرئي الكثير من التفاصيل.

لكن ما حدّثتك عنه كان مؤلما وكلّ ما مررت به كان شاقّا على ذاكرتي.

أمضيت خمسة عشر عاما وحيدا، تائها وعابدا.

ساعدني الصّمت حتّى لا أفقد عقلي، والصّلاة وهبتني الصّبر وأكّدت لي أنّه في كلّ سجدة كنت أسجدها أعي أنّي عاقل فكلما كنت أقول مستغيثا يا الله، كنت أهدأ.

لا يمكن أن أتذكر الكثير عمّا عشته من قسوة وتنكيل بالمجانين، لا أريد أن أرى الأشياء البشعة من الحياة وأتوقّف عندها فقد آمنت أن الأمل وحده يكفي بأن يشفى المجنون ويتحرّر السّجين من سجنه، العقل يتوق للسّعادة والحريّة.

يخيّل للجميع أنّهم يعاقبوننا ولكنّنا كنّا نتحرّر من سخطنا وضعفنا نحو قوتنا.

هناك مكان سحيق في الرّوح ما إن تنهار تستفيق قويّا كعملاق لا تقدر على ردعك جميع أصفاد السّجون ولا يقدر الحرّاس على إسكات تمرّدك المتوهّج بداخلك.

توقّفت سيّارة الطّبيب في مدخل المشفى، سيّارة فارهة تدلّ على ثراء الطّبيب خلال السّنوات الأخيرة، إلّا أنّي أجزم أنّه اشتراها من خلال أموال الحاجّ الّتي قدمها له حتّى يخدر عقلي ويجعلني عاجزا متصلبا كحجر الطاحونة.

كنت أراقبه يعبر الرّدهة ليتوجّه نحوي، يقف قبالتي بكلّ ثقة ويقول لي: اسمع يوسف لقد توفي والدك البارحة وأعتقد أنّهم سيدفنونه اليوم.

ابتسمت بسخرية وأجبته بحدّة: وما المطلوب أن نحتفل أم ماذا ؟

ابتعد الطّبيب خطوتين إلى الخلف وقال لي: بعد أسبوع ستغادر المشفى، لا سبب لبقائك أكثر هنا، أجد أنّك خلال السّنوات الأخيرة شفيت، أنا واثق أنّ المجانين لا يصلون أمّا أنت فأصبحت كثير التعبّد.

لم أنبس بكلمة، فمع حريّتي ابتلعت الكلمات الصّاخبة الّتي من شأنها أن تفسد عليّ سعادتي فبموت بعض النّاس نبلغ حرّيتنا الكاملة، وبرحيلهم نتحرّر من كلّ خوف عشناه بسببهم، ونعي جدا أنّ حياتهم كانت تمثّل حجر عثرة كبير لنا، وذهابهم يحرّرنا من الأصفاد التي وضعوها بيدينا ليسلبوا بها حقّنا في اختيار ماذا نحبّ ومن نحبّ وما سنفعل؟

منذ موت والدي هدأ عقلي عن كلّ خيالاته وجنونه.

عندما توقّفت عن أخذ اَلْأَدْوِيَة انتهيت من حالة الجنون اَلَّتِي كنت أعاني منها وفتحت عيني حول جميع الحقائق.

توقّفت عن رؤية الأشجار تتحدّث، وذباب الخريف يثرثر معي عن جميع أسرار المرضى وما يفعلون بخلواتهم، أتحدّث بطريقة هشّة وسخيفة مع بعض الحلزون أسأله في غباء عن طعم ورق الشجر، وأمضي الصيف أحتفل مع الصراصير، كانوا يصفّرون فكنت لا أستثني نفسي من حفلتهم وأصفّر مثلهم.

اليوم بعد سنوات من سجني أتذكّر بوعي كامل كيف لشاب جميل ويافع مثلي أن يتحوّل إلى مجرم على الرغم من هدوئي وتحضّري وثقافتي.

سيبدو الأمر غريبا أن تعرف أنّ القصّة تبدأ بتمتمات عنيفة في رأسي كأنّ أحدهم يدفعني لأقتل وانتقم، شيء مثل تعويذة يعيده عقلي في الدقيقة آلاف المرّات وتقتنع به جميع خلايا مخّي ويتحوّل من همس متواصل إلى حاجة ملحّة للتنفيذ السّريع فأنام وأستيقظ بذات الفكرة وهي إيجاد طريقة ما لأتخلّص من الجميع، حيث يبدو الأمر في ما بعد مجرّد صدفة قدريّة وكلّما اقتربت من جريمتي أغيب عن رشدي ويصيبني نوع من الدّوار الشديد.

عندما أبدأ في الولوج نحو عالم الجريمة، أنفصل عن الندم، أصبح إنسانا آخر وأشعر بفوار يصعد لرأسي كضباب يشوّش تفكيري نحو التراجع وأتيه في تفاصيل الموت، ما إن أبلغ نفسيا لتلك المرحلة يسقط يوسف المثقّف والهادئ ويزحف نحو عقلي شيطان شرّير يشجّعني على القتل، وتندفع هرمونات خفيّة مثل الأفيون تجعل جسدي مسترخيا، ويتوقف خفقان قلبي ويركّز نظري المشوّش حول الهدف ويتلاشى الدين بداخلي، يبلغني صوت رهيب ثان بداخلي يشجعني ويخبرني أن أتقدّم بكل شجاعة نحو تنفيذ جريمتي فأسترخي براحة وتشتعل عيني بساكنها الجديد وهو الموت.

واثق بأنّ أعماق النفس البشريّة كعمق كهف لا تعرف في أيّ وقت تنتابك الأفكار الشيطانية لتدفعك لزاوية الإجرام المطلق لأنّي كنت أستمع باستمرار لشخص ما داخل عقلي يحثّني على فعل كلّ شيء وذلك الشّخص كان أنا أو كان نسخة الشرّ مني وأمّا ذلك الصّوت فقد كان صوتي من الجهة الثّانية لروحي، كنت مرتاحا جدّا وأنا

أستحضر أفكار القتل التّي كانت تجعلني أكثر فخرا وقوّة بأني لا أسمح لأحدهم أن يأخذ ما أملك.

وحده المجرم يعرف أنّ بداخله صوتين، روحين، قرينين، يملك الإنسان روحا واحدة ولكن بداخل روحه يوجد آلاف النّسخ من طباع الخير والشّر، نحن تجسيد لما ينتصر علينا في حربنا مع مبادئنا وكل اختيار حر هو ما سنكون عليه فعلا في حقيقتنا.

كنت فخورا بما أفعل، ومع نجاتي مرارا وتكرارا ممّا أقترف من جرائم، أصبحت أشعر أنّني إله عظيم يحرّك لعبة الشّطرنج مثلما يشاء ويطيح بالملك كما يريد حتّى يفوز بمصير الناس وعمرهم وكلّما تخلّصت من أحدهم شعرت بالنّصر وأنّ الأرض ملكي كإله.

أعدّ أيّام خلاصي بشوق ولم يظل إِلّا عدّة أيّام وأغادر سجني إلى الأبد.

اليوم الاثنين بداية أسبوع الرّحيل، رفع الطّبيب صوت الراديو.

كانت الأغنية تسود المكان وتنتشر في كلّ الثقوب لتسدّ أيّ صوت مرتقب تخونه الجدران وكان المرضى منشغلين في جنونهم وهذيانهم.

بدأ الطّبيب يتفقّد العنابر حتّى بلغ الحمام أين كانت الأحواض بالية وقديمة، كنت مُتَخَفِّيًا بين ثنايا الأبواب أراقب تحركاته، الموسيقى التهمت بقيّة الأصوات وارتفعت حنجرة المغنّية تصرخ بكلّ طاقتها معبّرة عن حيرتها وضياعها وهنا دفعته بكلّ طاقتي.

وجعي، دموعي وجميع سنوات عمري اَلَّتِي انقضت، كلّها تَكَوَّرَتْ مثل تنين هائل بين أطراف أصابعي ووجّهت كفي نحو ظهره بقوة لينزلق مفزوعا ويصطدم رأسه بإسمنت الحوض المكسور وتهشّم جمجمته في طرطقة خفيفة.

حرّرت قلبي برؤية دمائه تسيل نحو قدمي زاحفة كثعبان مختنق، تراءت لي كلّ خياناته وغطرسته، تجسدت لي قسوته وهو يحقنني ويدسّ لي الأدوية حتّى في الماء ليحولني إلى مجنون، تلاعب برشدي وإرادتي ومصيري.

تخلّصت من وجعي وغادرت نحو الحديقة أراقب ظلّ نجمة فلم أره.

سئمت الحزن.

غدا ما إن أتجاوز السور اللّعين سوف أتغيّر.

كانت الحياة جد قيّمة وما ظلّ من العمر سوف أعيشه بكلّ طاقتي كأنّه آخر يوم لي في الحياة.

أشعر أنّي انتقمت لكلّ تلك السّنوات ولا أعلم لماذا تأخّرت لأفعلها، قد يكون لثقتي بأنّ الحاجّ سيجد بدهائه جَلّادًا آخر يسلّطه عليّ ليفقدني ما تبقّى من شبح نجمة، فكان الخيار الأمثل أن أحتفظ بسجّاني لسنوات طويلة ففي النهاية بدأت أعرف طريقته في منع عقلي وروحي عن الهدوء والتّفكير.

بدأت أبكي بحرقة، كانت دموعي سببا لينطفئ وجعي، فالأشياء ما أن ننالها في حياتنا متأخّرا ستوجعنا بشدّة لأنّها لا تسمّى عدالة اَللَّه أو مفاجآت القدر إنّما مجرّد صفعات عنيفة تسلّط علينا لعدم تصديقنا أنّ الأرض تدور وأنّه سنتواجه يوما ما.

أنهيت بقيّة أيامي قابعا بالحديقة مشوّش الرأس، منتظرا في شوق رحيلي.

كنت أودّع الحديقة، فالطّبيعة وحدها آنستني خلال رحلة جنوني، وسنوات وحدتي جعلتني أعي بأنّه لحفيف الشّجر كلمات عميقة تهزّ قلبي ما أن يداعب الرّيح أغصانها، وللقصب همهمة مبهمة إن عبر اَلرِّيح في تجويفه، وإن داعبت الرّيح الأعشاب والحشائش المنتشرة في أرجاء المكان، أعلنت زفزفة ووعيدا، وإذا جاءت رياح الشّتاء ضربت الأرض بقوّة فصار لصوتها زمجرة وضجيجا يشبه الأنين، وإذا حلّ الصّيف تعالى خشيش اليابس من أوراق الشّجر يعلن نهايته وانكساره.

كان للرّيح صوت يتغيّر مع كلّ فصل ووقت، توقف عمري وبقيت أتحسّس بقلبي كل تغيّرات المكان وهذا ما جعلني أستمر طويلا ولا أفقد عقلي، وأعي بأنّي لست مجنونا من خلال تعاقب الفصول وصوت الرّيح اَلَّذِي يخبرني بوضوح أنّهم افتعلوا ذلك في رأسي.

كنت أعبر مدخل المشفى بتوتر وأنظر نحو الباب أين توقّفت سيّارة سوداء قديمة ووقف أمامها شابّ عشريني، ما إن رآني من بعيد حتّى تقدّم نحوي وحضنني وقال لي: مرحبا بك خالي لقد حدّثتنا عنك أمّي كثيرا !

رفعت ذراعي بتوجّس وقلق وبادلته عناقه بأكثر حرارة، ورحت أتمتم في خجل بنيّ أنا جدّ آسف، لسنوات لم أختبر العناق، آسف لتوتّري واضطرابي، لقد كبرت هاشم وصرت رجلا رائعا !

ابتسم لي الشّاب بامتنان وقال : إلى أين نذهب ؟ وبكلّ ثقة قلت له: أريد زيارة دار منامة، لنتجه أولا نحو حلق الوادي.

صارت المدينة فوضويّة، الكثير من السيّارات والبشر، أشعر أنّي في مملكة النّمل، تغيّرت ملابس النّساء فصارت أكثر تقدّما، ضاقت الشّوارع بالنّاس والباعة.

بدأت السيّارة تتخطّى كلّ شيء وتنساب نحو طريق فارغ متّجهة إلى قصري، تلتهم غشاوة الخوف عيني، نجتاز المسافات وكأنّنا نمتطي السّحاب أو ماردا عملاقا يحملنا بين ذراعيه ويخترق بنا كلّ الأراضي والسّهول نحو البحر.

اجتازني الزمن وجعلت منّي الخمس عشرة سنة رجلا منسيّا وكئيبا.

أرفع عيني نحو الشّمس فتتّسع حدقتي كأنّها تشتاق إلى النّور.

كلّما نتجاوز المسافات يتمزّق جسدي وأتيه بذاكرتي، وتتصلّب الأسماء في رأسي فلم أعد أتذكر أيّ شيء، ويلوّح لي البحر من بعيد متألّقا، منفجّرا زرقة، بدا لي عريضا لا نهاية له كأنّه ابتلع كلّ اليابسة، لم أتخيّل أنّه بهذا الجمال، أنساني السّجن الكثير

من الروعة بهذا العالم وعدت مثل الأعمى الّذي أبصر لتوّه ماهية الألوان من جديد وصدم لصفاء البحر وامتداد السّماء.

كلّ ما يحوم حولي لا يشبه ما ظلّ عالقا في ذاكرتي، لقد تغيّرت الحياة!

تتوقّف السيّارة أمام القصر.

أرفع عيني نحو دار منامة المكوّنة من ثلاثة طوابق وأراقب الشبابيك المغلقة الّتي ما فتحت أبدا أمام أعين المتطفّلين، أصبحت بالية وساد السكون المكان.

دفعت الباب المفتوح لجميع عابري السّبيل وبعض الكلاب الضالّة، بيت هجره سكّانه ولا عائلة تضمّ أبوابه وتدفع عنه من أراد به خرابا.

أندفع نحو المدخل الأوّل الّذي كان منفصلا عن السّقيفة ونافورة الماء، مدخل نستقبل فيه المارّين والسائلين وبدا لي مظلما كقبر.

تجاوزته نحو البهو وكان محيطا بغرفة الضّيوف وغرفة الأكل والمطبخ وغرفة نوم تركيّة، كلّ ما بقي لازمه الشّحوب والنسيان، رائحة الرّطوبة والبول منتشرة في الأرجاء، ذبلت الورود وتلاشت رائحة عطرها وساد المكان رائحة نتنة، وبقيت مفزوعا كيف لخمس عشرة سنة أن تتلاعب بحيطان البيت وتدمّر سقفه وتلوّنه باللّون الأخضر العفن.

صعدت الدّرج متّجها لغرفتي وفتحت الباب، كانت كلّ أغراضي مكسورة ومهشّمة بحقد، اندفعت نظراتي نحو المرآة واقتربت منها أتفحّص هذا الغريب الواقف قبالتي!

ذاك الكهل كان أنا !!

لقد سقطت أسناني وفقدت شعري من الألم والأدوية.

خمس عشرة سنة محتني من الحياة وخطفت جمالي وأفقدتني كلّ ما أملك.

مسحت بيدي الغبار ووضعت أنفي الدّقيق قبالة نفسي، لم أعد أشبهني، أصبحت نحيلا وقبيحا، مسكت المزهريّة من على الأرضيّة وألقيتها على المرآة لتتهشّم وأشاهد وجهي يتساقط بين قدمي كشظايا قلبي الحزين.

أتوجّه نحو غرفة نجمة فأجدها خاوية من كل أثاثها.

امتدّت يدي نحو مخبئها السريّ لأجد فستان نومها الأسود، رفعته ببطء، قرّبته من أنفي لأشتم رائحتها، إلّا أنّ رائحة النسيان والرّطوبة غلبت رائحة عرقها وعطر جسدها.

سرقت منّي دار منامة كلّ ذكرياتي، لا حاجة لي بالحيطان أو الأغراض فالّذين أحببناهم قد أخذهم الموت بعيدا عن ذاكرتنا وشوقنا لهم.

أشاهد قصرا كبيرا وغرفا كثيرة مهجورة كمدن الخراب، ما قيمة أغراضنا وحيطاننا في غياب أنفاس أحبائنا الّتي تبعث الدفء في كلّ الأشياء الجامدة والماديّة، لا قيمة للحياة بما نكسب من إرث وبيوت وأموال فكلّ شيء باق سيأكله الغبار والنّسيان ونحن سنرحل تاركين وراءنا غطرستنا وتكبّرنا واعتقادنا بأنّنا أفضل وأرقى من الجميع.

أشعر بالاختناق، ولا رغبة لي بالبقاء في تونس.

خرجت متوتّرا، قابلت هاشم وطلبت منه أن نرحل إلى تستور.

شقّت السيّارة الطّريق نحو الأراضي الممتدّة وبدأت أهدأ.

كنت قد غفوت في الطّريق وتركت الشّمس تعبث بوجهي بشراهة، كنت أطير بين المسافات والهواء يداعبني ويدغدغ أذني كتجويف هائل ليبلغ عقلي صوت صخب الرّياح.

توقّفت السيّارة أمام بيت أختي ووجدتهم في انتظاري، ما إن رأتني أغادر السيّارة حتّى لفّتني بذراعيها وانخرطت في بكاء طويل، وكنت أراقب بناتها وقد كبرن وتناثرت دموعي وشعرت بأنّ الزّمن خذلني وأنّي أضعت فرصة رؤيتهنّ وهنّ يكبرن.

أمسكت أختي يدي وقالت لي بكل حب وشوق: لقد طبخت لك أكلتك المفضّلة.

كنت أقف مشدوها، فقدت القدرة على الكلام، لقد تغيّر كلّ ما تركت سابقا، أحسست بخوف البدايات، الشّمس تلقي بآخر أشعّتها وبدأ الغروب يلتهم السّماء، نظرت إلى أختي وقلت لها: لي رغبة في زيارة قبر أمّي حتّى يهدأ قلبي، أريد البقاء وحدي ثمّ سأعود لنأكل ونتحدّث.

وقفت بين القبرين حيث قبر امرأة أحببتها جدّا لأنها ما انفكت تدعمني وتقف بجواري في أخطائي وصوابي ورجل ألقى بي لخمس عشرة سنة في المشفى خائفا من أن أقتله.

للحبّ معنى أكثر وضوحا ولن يكون ضمن الخيارات الأربعة للعبة الحظّ، ما أودّ قوله إن من يحبك سيقبلك بكل أخطائك، حماقاتك وتهوّرك وفي بعض الأحيان جنونك وخطورتك، ولن تجد هذا الحب العبقري إِلّا في قلب أمّك فهي قادرة أن تغفر لك مثل الإله.

لا أعلم كيف سأعيش بقيّة أيّامي من دونها.

مسحت بيدي على قبر تركيّة فبرحيلها غادرتني السّعادة والحب غير المشروط.

كان موتها غير عادل فكلّ من أحببتهم رحلوا.

تركيّة لم تكن أمّا عادية كانت امرأة مزيجا بين النّبل والتواضع، ملامحها نبيلة وتواضع جم ومزج غريب بين الرقّة والصّلابة، شيء فيها كحدود البحار عميقة ومظلمة، كانت تتقبّل كل هفواتي بفخر وتخبئني بين أحضانها بشوق، وتنهر كلّ لسان يتهمني بالإجرام وأنّني غير مستقر نفسيّا، هي واثقة بشدّة أنّهم يغارون منّي وأنّي فؤاد قلبها كنت دائما على حق.

أيقنت أنّ الجميع تخلّوا عنّي برحيلها والتفتّ نحو قبر أبي الرخاميّ والمحاط بأصيص الورود جلت ببصري بسرعة في المقبرة وعندما تأكّدت أن لا أحد هناك أخرجت بهدوء آيري ومسحت عليه بلطف وقلت له: لنحتفل يا صاح ؟

تبوّلت على قبر أبي وأنا أصفّر منتصرا، بقيت واقفا أفرّغ كل ما بقي بمثانتي من حقد وأستمع لسيل الماء يقرع حجر قبره وما إن انتهيت مسحت مجدّدا عليه وقلت له أحسنت رفيقي !

أخفيته هناك بهدوء تحت سروالي وبزقت على قبره وقلت له: أتمنّى ان تخلد في الجحيم لا رغبة لي بأن ألقاك يوما ما حتّى في غياهب جهنّم.

ابتعدت أدندن بعض الألحان التراثيّة وقد حرّرت كلّ ما في قلبي من كره وحقد له.

لا الجمال يدوم ولا المال، لا نسب سينفعني بشيء ويعيد لي ما أضعت من عمر.

أشعر بالخذلان والفراغ.

أنا كدخان الحرائق مفتعل وكبدي يشتعل نارا وتائه في الكون.

لماذا خلقت ؟

ما سبب وجودي في الأرض ؟

بدأت أشعر بالأسى على نفسي وألج دوّامة الاكتئاب.

صدّقني لا قيمة للحياة دون سبب مهمّ يدفعني أن أستمر.

كان يجب أن أحيي شيئا ما بداخلي لأعيش.

أيّ كان أملا أو شغفا أو هدفا.

لأستمر يجب أن أخلق في روحي دافعا قويّا يدفعني كلّ صباح لأستفيق وأستمر.

الجحيم هو عندما أغمض عيني وأرى حجم الظّلام في عقلي وافتح عيني بلا هدف محدّد وأجد طريقا طويلا وقاحلا هناك يتجسّد خوفي من الموت.

عندما نتوقّف عن الحلم يموت كلّ شيء بداخلنا.

كم هي بائسة الحياة دون أهداف لذلك لَابُدّ أن تستمر في الرّكض حتّى تسقط في حفرة قبرك وعندها تتخلّص من كلّ الألم الّذي تشعر به وكلّ الضوضاء بعقلك.

هذا الألم هو سؤالك المتكرّر لماذا ولدت؟ وبحثك الدائم عن المغزى من وجودك على هذه الأرض.

أنا بكلّ تواضع لا أملك الإجابة الشّافية لهذا السراب الذي حيّرني وحيّر العالم لذلك بدأت بالركض.!

يأخذني قلبي إلى أرضي، كنت أشعر بندائها الخافت يطرق نبضه وتمتمات الرّيح وهو ينفض بسخاء حبّات الزّيتون وينثرها أرضا.

كلّ من أحببت رحلوا وانتشلتهم قدرة الله، لم تبق رائحة من أحببت عالقة في ملابسي ولكن رائحة التّراب تعبث بذاكرتي وتتغلغل بعروق رأسي ليهدأ قلقي.

الأرض التي ورثت هي كلّ ما أملك وهي سبب عميق لأستمر وأحيا.

أتمنّى اليوم أن تغفر لي تستور اندفاعي وجرائمي. كانت الأرض قاتمة وتحتاج سيّدها حتّى يبتسم السّنبل ملأ ثغره وتزغرد النّساء فرحا بقدوم الحصاد وينغمس الرّجال في الأرض يقلّبونها حتّى يستحيل ترابها ذهبا، ولكنّي اليوم بعد خمس عشرة سنة من الوحدة، البرد، الازدراء والجنون أقف مثل شبح على مشارف تستور حيث الأرض الحزينة تلوح لي من بعيد متعبة وباهتة.

تعاتبني السنابل بشقاء وتعلم أنّي تخلّيت عنها من أجل غطرستي.

في النّهاية أجلس على الأرض متعبا، أمدّ ساقي تحت الشّمس، أنزع حذائي وجواربي وأتمدّد هناك وحيدا يغمرني الشقاء.

لا عمال لا ضجّة لا حياة!

الكلّ رحل من الأرض وبقيت مثل الملك المهزوم، تواسيني الشّمس الدافئة الّتي لم تتغيّر منذ أمد فكلّ تلك الأشياء الّتي لا روح لها تظلّ مثلما هي.

اليوم تحرّرت من الخوف والحب.

كان العشق اختبارا صعبا، ومعه فقدت إنسانيّتي، بعد كلّ ما مررت به أنا أصبحت شبه واثق أنّ لا أحد يستحق حبّنا وتضحيتنا من أجله، لا توجد تضحيات عظيمة يجب أن نقدّمها، كان من الأجدر أن نعطي الكّثير لأنفسنا متّى شبعنا من حبّنا لذواتنا قفزنا خارجا نحو الآخرين لنهبهم حبّنا.

لأوّل مرّة بعد أربعين سنة يغمرني النّدم وبدا لي كأنّه شعور جديد يسكنني.

النّدم ليس نهاية الخطيئة، إنّه فقط بداية تجدّد الرّبيع في ما اجتثّته سيول الحياة العنيفة بطباعنا.

النّدم يصحّح أخطاءنا ويغفر لنا بطريقة ما ذنوبنا ويحدّد لنا الطّريق نحو السّماء، وهذا ما فعلته بي الأرض ما إن رأيتها منكسرة بدوني، لقد أصابني ندم قاتل.

مصيبتي العظمى أنّي أحبّ بكامل طاقتي وأكره إلى حدّ استنزاف إنسانيتي.

كنت أبلغ تلك الهشاشة النفسيّة التّي تجعلني أبكي كطفل مهزوم في مباراة كرة قدم مصنوعة من أسمال القماش وأقتل كسفّاح بدون رحمة.

كنت أتماوج بين براءتي ووحشيّتي، وأضيع في تفاصيل شخصيتي فلا أستوعب شيئا.

أحببت بعضهم بكلّ ما أملك من قوة حتى استبدّت بي مشاعر العشق وسلبت منّي توازني النفسي.

قدّمت كلّ ما أملك حتّى ولو كانت الطريقة خاطئة وانتهيت إلى فقداني الشغف وموت كلّ مشاعري مع رحيلهم.

أحببتهم أكثر مما أحبّوني وتجاوزت المنطق في وفائي لهم وأمضيت سنوات أنتحب كقنفد صغير في زاوية المشفى وأقاوم كي أظل حيّا.

قد أكون كريها، حقيرا ولا أرغب من أحدهم أن يشفق عليّ ويقول متشفيا : لقد أصاب النّدم روح يوسف؟

قد أكون ندمت لقتلهم بتلك الطّريقة وإنهاء حياتهم ولكن في الحقيقة قد كان حظّهم السيّئ الّذي أنهى كلّ شيء في لحظات.

كنت أحبّ بطريقتي، وأثأر بطريقتي، لا أشبه أحدا وأعتقد أنّ من سيستمع لروايتي سيعرف أنّ الحياة أفضل من السّجن، وترك ما ليس لك أفضل من أن تفنى من أجله فتذبل أنت ويرحل هو، السّلام الداخلي هو كلّ السّعادة، أن تعمل يومك وتعود لبيتك فتجده دافئا، وتقدم لك زوجتك حساء ساخنا، وطفلك يناديك بأبي، بالنسبة لي تلك هي الحياة الكاملة.

لا يجب أن تعتقد أنّ كلّ ما يجول بذهنك صحيح فحتّى الشيّاطين اعتقدت وهي توسوس لك بأنّها أقوى من قدر الله فخاب إبليس وخابت معه أمنيتي بأن أمتلك نجمة ذات يوم.

لا قدرة لدي في أن أغيّر الماضي غير أن تستور الحبيبة تحتاج قلب يوسف لتعود لحاصديها.

تستور !

سأمسح الحزن عن أرضك وأفتح ذراعي لحدود شهيق السماء فجرا وسأسرق الشهب العابرة وأجعلها مصابيح ليلتك هذه.

تستور !

فلتنفضي ألمك فسيّدك جاء عابرا للسنوات الّتي التهمت عمره وتركت قلبه يخفق بعشقك.

لا تحزني ومدي أرضك بين أحضاني ولتتثاءبي بدلال بين يديّ.

اليّوم سنحرث أرضك ونشيّد أرض السّنبل من جديد وسيندفع الماء ملتهبا يغزو أعماق أرضك ويبلغ منها الصّخر لتعودي مشرقة وتهتزّين محاصيل غدا سيحرثها الرّجال، وتندفع النّسوة بأقدامهن يجلبنك عروسا لي وليلتك ستكون غبارا ستشرق به حلق السماء وتتنفّسه الوديان المجاورة.

اليوم يا تستور عاد لك يوسف !

اليوم عيدك وستزفّين لسيّدك الّذي سينفض هجر سنواته العشرين عنك.

تستور !

فلتعلمي أنّ الوجع يزورنا ولكنّه لا يظلّ بيننا لأنّ صدري وعرقي سيمسحان عن أرضك كلّ شقاء.

تستور !

انتفضي وثوري وتمرّدي، ولنبدأ من جديد قصّتنا.

وبدأت أحيي أرضي بعرقي وجهدي، ومسحت عنها هجر المحراث، وانطلقت أستعدّ لموسم الحصاد والصّيف.

جمعت النّسوة من جديد والتف حولي الرّجال من أرجاء تستور العظيمة.

أقف فوق هضبة تستور أراقب الأرض والورود وهي تتفتّح لترفع بتلاتها نحو وجهي الشّاحب وستظلّ هذه الملامح الّتي تراها عالقة في رحيقها.

نحن نشتاق كلّ من قابلنا منذ كان القلب نديّا ومفعما بالحياة ومتّى قدمناه لتجارب إلاّ وبدأ يشيخ ويكره القادمين الجدد.

نحن سجناء أحبّاء طفولتنا وأهلنا وحينا وأناسنا، أمّا هؤلاء الّذين يحلّون جديدا على عمرنا هم أشبه بغزاة ومستحدثين لا نعرف كيف سيكون القلب والرّوح معهم، سنحذرهم بكلّ ما في العمر من شكّ وننتمي لمن كانوا فعلا ذاكرتنا وجاءوا بعد سنوات لينقذوا أرضي وقلبي.

أنا لا أملك غير الأرض وجذورها هي تاريخي.

محزن أنّه لا عائلة لي، لم أحظ ببيت أعود إليه بعد تعب يومي في حرث أرضي، لا امرأة تنتظرني عند الباب لترتمي في حضني تمسح بذراعيها تعب السنين، لم أحظ بأطفال ينتظرون قدومي ليتسلّقوا حذائي الثّقيل وهم يضجّون ضحكا وكلمة أبي تمحي قسوة سنوات الحرمان والبرد.

لم أكن محظوظا حتّى أعيش دورة الحياة الكاملة، أدرس، أتزوّج وأنجب أطفالا وأشيخ معهم سعيدا.

أنا أحيا في وحدة معتمة وعنيفة، تمضي السّنوات سريعا ولكنّها في قلبي مجرّد ليال أخرى سوداء تعبر عمري المظلم.

أغرس رجل الكرسيّ فوق الهضبة العالية الّتي تطلّ على أرضي وأجلس تحت شجرة الزّيتون، أتظلّل بها صيفا وأختفي بين جذعها المهيب في الشّتاء وأواظب على زيارة مشارف أرضي كل فجر حتّى الغروب.

أريد أن تتحرّر روحي برائحة التّراب المبتل وأغسل وجهي بعاصفة الغبار صيفا في حرّ الظهيرة.

أنا أرفض أن أتزوّج فتلك الّتي أحببتها منذ سنوات أصابتني بالجنون فبتّ أخاف النّساء، وحاجتي كرجل لامرأة انعدمت مع شكّي في قدرتي على حبّ واحدة أخرى بعد القهر الّذي أصاب روحي.

أنا موجوع ومنكسر ولا أقوى على الاقتراب من أحد.

ليس مقرّرا أن يحظى كلّ من في الأرض بعائلة وحبّ.

أنا من أولئك الّذين تجاوزهم كرم القدر في هذا الجمال ولأستمر بالعيش كان يجب أن أحبّ أرضي وأشعر أنّي مهمّ بالنسبة لشخص ما في هذه الحياة.

خلال الأشهر الأولى كنت أعيش ببيت أختي بيّة، كنت أخاف أن أظلّ وحيدا، سجينا لذكريات التّي تنهش عقلي وتصيبه بالتلف.

سألتها مرارا عن سبب عدم زيارتهم لي وكان ذلك مؤلما لروحي.

لم تقدّم سببا مهما فقط أخبرتني بأنّ أبي أعلمهم بأنّهم منعوا عني الزيارات وأنّي بحالة انهيار تام.

خلال سنوات كثيرة كانت ترسل لي الأكل والملابس النّظيفة والأغطية الجديدة القطنيّة لكنّها لم تصلني أبدا، فالحاجّ كان يتخلّص منهم بتقديمهم لأوّل عابر سبيل.

جميعهم كانوا يعتقدون أنّي مصاب بانهيار نفسي وتركيّة ظلّت تعتقد حتّى يوم موتها أنّ عينا أصابتني أو سحرا أسود افتعلته الزنجيّة.

لم يخبرهم أبي عن جرائمي أو سبب مكوثي بسجني لخمس عشرة سنة.

لقد حاول جاهدا أن يجعلني أنهار حتى أبلغ قاع النّسيان ويسقط عقلي في مصيدة الجنون ويومها أنسى نجمة وأنسى كل ما يتعلّق بحياتي كيوسف لكنّه فشل في ذلك فقد أنقذتني الصلاة والندم.

سيحلّ الرّبيع قريبا وهذه الأسابيع الأخيرة الّتي أقضيها متلهفا لانقضاء الشّتاء وانقشاع السّحاب.

الهدوء مستمرّ في الهنشير وقلبي متشوّق لصيف وأيّام الحصاد غير أن هذا اليوم كان مغايرا ومختلفا عن سائر الأيام قضيتها مستسلما للخمول والضجر حتى قطع سلامنا الداخلي صراخ في الحديقة لرجل يعربد ويشتم: أين أنت يا ابنة العاهرة !أريد ابني !

حسنا! الأمر مثل الآتي، حسناء تبكي كدودة تم دعسها وسحقها، عينها لا تكفّ عن ضخ الدموع بلا رحمة، زوجها يعربد ويصرخ في الحديقة: يجب أن تعودي يا ابنة العاهرة !

أتابع المشهد الملعون بقهر ووجوم وأتساءل كأحمق لم الجميع غارقون في صمتهم المقيت وكأنّ الثعلب التهم ألسنتهم.

يقف والد حسناء صامتا، أختي واقفة بهدوء وكأنّها اعتادت هذا المشهد، وجلس هاشم على كرسيه يصغي بإمعان وبرود لزوجها العربيد.

مرّت عدّة دقائق لم يتوقّف بها عن شتمهم وسب الربّ والأرض وحسناء، لم يترك حجرا، حيوانا أو إلها إلاّ ولعنه حتّى اخترقت كلماته أذني وهو يقول لها ساخرا: وخالك المجنون لعنة الله عليه ! أنت ورثت الجنون منه !

سحقا يا هذا ما دخلي أنا ! صرخت غاضبا ثم تابعت مهددا: من قال لك أنّي سأصمت مثلهم وأتجاوز ذلك ؟

توجّهت نحوه وهو يقفز كقرد ويشيح بيده في الفراغ، ويتطاير لعابه خارجا، وتشع عيناه وميضا من الغضب، أعتقد أنّه غير واع ولا يعرف ما يرى ! أو ما يقول !

أمسكته من رقبته وضغطت على شريانه السباتي بقوّة، اخترق إبهامي جدار رقبته، توقّف الأبله للحظات، أراقب جحوظ عينيه، كان يتخبّط كدجاجة ذبحت لتوّها، وبدأ يحاول لثانيتين أن يتخلّص منّي لكني اندفعت بغضب أضغط عليه بقوة حتّى توقّف فجأة عن المقاومة، الأمر لم يتجاوز بضع ثوان وسقط فاقدا الوعي.

طلبت من حسناء أن تجلب حبلا، وربطته ثمّ جلست قبالته حتّى استفاق.

اندفع يشتم لدقائق متواصلة دون توقّف، تركته هكذا واختفيت داخلا لبضع دقائق، جلبت السّوط وبدأت أضربه في أماكن متفرّقة ضربا خفيفا ثمّ قلت لحسناء فلترفعي قدمه فوق واندفعت أستمع لصوت السياط على راحة ساقه حتّى انقطعت شتائمه وبدأ بالبكاء ككلب منسيّ.

كان يبكي كمهزوم، يبكي بوجع، ما إن بدأ ينتحب كامرأة حتّى أرخيت السوط عنه وتوقّفت لأراقبه حتّى يصمت.

جلست واجما حتّى آخر صلاة العشاء، ما إن هدأ الرّجل، وقفت أمامه آمر: غدا تتّجه للمحكمة وتطلّقها وهي ستنتقل للعيش معي في الهنشير، وإن تعرّضت لها تأكّد أنّي سأدفنك في أرض السنابل وستأكل عائلتك من قمح قلبك الّذي سيتعفّن ويصبح سماد طبيعي لأرضي، وربّ السّماوات افعلها فقط وستصبح منسيّا.

فككت وثاقه لينطلق هاربا يجر قدميه المتورّمتين بصعوبة.

حضنتني حسناء وبدأت تبكي لتغسل دموعها صدري وعوّضني الله بها كابنة.

بعدها انتقلت لبيتنا القديم في الهنشير وقرّرت أن أعيش هناك مع ابنتي حسناء وطفلها وأيقنت حينها أنّ يوسف يجب أن يعود ملكا على عروش تستور.

بعد انتقالي لبيتنا شعرت براحة كبيرة وكأنّي تخلّيت عن جميع القيود وأصبح المكان ملكي، أنتظر بصبر حلول الرّبيع وأودّع بمقت شديد حزن الشّتاء ولياليه المعتمة.

اليوم الأمطار لا تكفّ عن الهطول ويتشكّل سيل هائل في الوادي ينبئ بفيضان جارف مثل ضباب سينتشر في كلّ أراضي تستور.

أبيت أن أتوارى عن أرضي وخفت إن التهمها الماء ألاّ أودّعها، وأمام إلحاح حسناء بالدخول والاحتماء بسقف البيت ورفضي الرّجوع وترك الأرض وحيدة، ظلّت حسناء واقفة في أعلى الهضبة وأنا جالس على كرسيّ أتابع تكوّن السّيل الطيني ولفظ الوادي للمياه الجارفة نحو جميع الأراضي الفلاحيّة الممتدّة على أطرافه.

كانت المياه تنطلق في ثورة نحو الأرض مثقلة بالكثير من الطّين والتربة وبقايا ما لفظت الأرض والطبيعة، واندفعت في شبه هجوم شرس على أرض السنابل لتغرقها، وكانت عيناي جامدتين لا أعرف في أيّ اتجاه أنظر.

كنت واعيا بأنّ الكون ينفجر صاخبا متعبا ويحاول أن يجد متنفّسا هنا بين ثنايا الأرض، استحال المكان إلى كارثة هائلة وتحوّل كلّ ذلك الهدوء إلى زوبعة.

وحده الإيمان بأنّ رحمة الله تسبق غضبه تركني ثابتا في مكاني وهادئا.

كنت مستعدّا للغرق في سبيل أرضي مثلما يغرق ربّان السّفينة إن هوت باخرته في شعاب المحيط.

كنت واثقا أنّنا نظلّ صامدين مع أحبّائنا متّى انهاروا انهرنا معهم، لم يكن جديرا بي أن أدير ظهري وأرحل دون أن أبالي بما يحدث.

"الوادي حمل" ولن يتوقف أبدا عن ضخّ المياه وتقيئ الفائض منها نحونا.

أمام إلحاح حسناء أن نغادر وصوت هدير السيل يدوي في السّماء، التفت إليها بغتة وقلت لها "يوسف يموت راجل مع أرضه".

هذه الكلمات كانت كفيلة أن تغفر لي خطاياي.

مع زمجرة الوادي وهطول المطر الشرس وأنين أرضي أولد من جديد.

كنت جالسا على ذلك الكرسيّ في حالة مخاض رهيبة، أشعر بأنّ كل جسمي يرتعش وأنّ الأرض من تحت قدمي تعوي مثل ذئب.

لا أتوقّف عن الصّلاة وبداخلي إيمان أنّ كلّ شيء سينقضي.

صدحت السماء بالآذان ،إنّه العصر وجلست هناك أذكر اسم الله، لم أتوقف عن التسبيح حتّى هدأ قلبي، وثقتي بأن الله سيحدث بعد هذا أمرا جللا تركتني أغمض عيني وأغيب لدقائق تائها في أعماقي.

كنت هناك وحيدا.

رجلا منهزما حاول أن يتجاوز ماضيه وانتصر لنفسه والتهم ذاكرته.

اليوم أعلم بكلّ يقين الدنيا أنّ هذا الغضب الجارف والمنظر المخيف هو إحدى تجلّيات الله وغدا يأتي الرّبيع وتزهر الأرض وينقضي كلّ شديد.

أنا أتحرّر من كلّ تعاسة الحياة، والمطر تغسلني والرضا ينبعث في شراييني.

أتنبّأ أنّه بعد ساعة سيهدأ كل شيء.

حسناء الطيبة مبتلة كقطّة، وعيناها مرتعشتين، وأشعر بقلبها يقفز في حجري ويديها مشبوكتين بحزم وهي تصلّي.

لم أستطع أن أبرح مكاني وأحضنها لقد كنت أحطّم يوسف القديم وأتخلّى عن جلدي وذكرياتي.

كنت أبعث من جديد، وأؤمن أنّ لا حزن يدوم ولا شرّ ينتصر ولا خوف باق ولا ظلم سيسود الأرض، كلّ ما في الأمر أنّها عقبات الرّحلة قبل أن نبلغ الواحة ونتوضّأ لصلاة الشّكر.

الحياة ليست كريمة لتلك الدّرجة أن تمرّ منها ولا تتأذّى أو يؤذونك، يجب أن تتقبّل الخسارة وأن لا يصيبك اليأس.

يغفر الله غدا كلّ خطايانا وبهذه الرّحمة والإيمان توقّفت الأمطار بعد ساعة من نزولها.

وقفت هناك ألقي بآخر نظراتي نحو الأرض وقد استحالت وحلا.

توجّهت نحو حسناء ضممتها إلى صدري فانفجرت بالبكاء وقلت لها بكلّ صبر الدنيا "اليوم أنا راجل جديد" وتوجّهت نحو البيت وهي تتبعني واجمة ولم تمرّ ساعتين حتّى انقشع السّحاب وبدأ غضب الوادي يهدأ وغدا تشرق شمس تستور من جديد.

هذه هي الحياة لا شيء يظلّ مثلما هو.

كلّ مقدر بها سيمضي بشراهة نحو المستقبل.

كان إلزاما أن أنسى الماضي حتّى أقاوم، أستمر وأنتصر لنفسي.

ما إن أطمئن قلبي حتى توجّهت إلى غرفة الجلوس فوجدتها دافئة.

ارتميت على الكرسي الهزاز وجلبت لي حسناء الشاي الأخضر مع العسل.

بدأت أَتَشَرَّف القطرات الأولى ومع استرخاء عضلاتي استسلمت لنوم وهنا بدأت أؤمن أنّي صرت شيخا.

مع حلول الصّيف واقتراب موسم الحصاد كنت أعمل في أرضي بتفان مطلق.

أستيقظ أوائل الفجر وأنام مع آخر المغادرين للحقل.

كنت في حالة تبجيل مطلق للتّراب ولا أغفر لنفسي أيّ تقصير محتمل.

كان عملي مرهقا، ومع ذلك كان قلبي ليّنا تجاه الأرض فيتركني يقظا تجاهها فمن الواجب أن نتعلق بمن هو أضعف منا ويحتاجنا فعلا حتّى تعالج إنسانيتنا.

أيقنت أنّ حاجة الضّعفاء لنا تزيد في عمرنا إشراقا كأن تربّي قطّة، كلبا أو تتعلّق بالأرض مثلي فأتماثل للشفاء من شرّي وجرائمي.

وهبني اللّه فرصة أن أذهب إليه وغدا عند موتي قد يغفر لي جلّ ما اقترفت من جرائم.

بدأت أطوي ذكرياتهم واضمحلت أسماؤهم وصورهم من رأسي، واختفى جميع من قتلت فجأة من أعماقي واقتربت أكثر من محصولي واللّه.

بدأت أصلّي تحت شجرة الزّيتون وشيّدت هناك أرجوحة فوق الهضبة المطلّة على تستور.

كنت أنطلق فجرا متخفّيا تحت برنسي لأمتطي الأرجوحة وأدفع بقدمي رويدا للخلف ثمّ بقوّة أدفع نفسي للأمام وأظلّ منزلقا في الهواء وقدمي لا تلامس الأرض لبضع دقائق.

نسيم الفجر يملأ أنفاسي وأشعر وكأنّي أحلّق ثمّ أنغمس في ضحك شبه طفوليّ وأشعر أنّي ملك على عروش تستور.

يحلّ الصّباح رويدا فأنزلق بلطف من على الأرجوحة قبل أن يراني أحدهم وأجلس منتظرا أوّل أشعّة الشّمس الفضوليّة الّتي تنبعث دفعة واحدة مع تمزّق الظّلام من السّماء فتنزل كصاعقة ضوئيّة على وجهي مدجّجة بنورها ويبدأ العمّال في الاقتراب من الحقل كقطيع نمل ينتشرون في أرجائه ويرفعون يدهم بالتحيّة نحوي.

أرتمي على الكرسيّ منهكا وأراقب حسناء تقترب بسلّة الفطور وتفرش لحافا على الأرضيّة وترصّف الأواني وكؤوس الحليب والعصير فأضغط على التّراب بيدي وأستند على كتفها وأسقط بخفّة على الأرض لألتهم حبّات التّمر وأتلاعب بنواتها في فمي لبضع ثوان وأرميه خارجا وأنا غارق في صمتي أستمع لصوت المنجل يقطع السنبل.

يتوقّف الصّخب في رأسي مع بداية ثرثرة حسناء الّتي أجزم أنّها لن تنتهي حتّى بلوغ الليل.

عند الانتهاء تجمع كلّ أغراضها وتخبرني أنّها ستعدّ فطور للعمال ومن ثمّ ترحل.

أتابع العمّال بانتباه حتّى حلول الظّهيرة حيث يشتدّ الحرّ ويتوقّف الجميع ليأكلوا ثمّ يبدؤون تباعا في الاختفاء داخل منازلهم، ومع رحيل آخرهم والتهام الشّمس للسماء وقيظها الشرس أشعر بحالة خمول تجتاحني ورغبة منّي في أن أرقص.

بدا كأنّ قلبي يحلّق بعيدا وأدور حول نفسي مثل فراشة.

أنا ألتف حولها في شكل دائري بطريقة تائهة وأضرب التّراب بطرف كعبي وأنفض بقاياه حولي فيجتاحني الغبار وأرفع يدي كأنّي نسر وأحلق.

أحاول أن أطير وفعلا ينجح ذلك في عقلي وأتحرّر من خجلي ومن ذلك الرّجل الّذي سكنني لأربعين سنة.

رجل بائس وحزين.

أنا يسكنني شيء جديد، أتعرف ما هو ؟؟

أعتقد أنّها الحياة.

بدأت أدور وأدور، أتنفّس، أعيش، يديا فوق تترنحان في الفضاء، قلبي مستسلم في حالة نشوة أبديّة، أشعر أنّ الرقص يمحي انكسار قلبي، يمسح سنوات البرد عن عظامي.

تلك السّنوات الّتي سجنت فيها دفعت من خلالها ثمن كلّ جرائمي واليوم أعيش ما تبقّى من العمر راقصا، رافضا الحزن وبدأت أضحك، أقهقه عاليا وتهتزّ شجرة الزّيتون لحركاتي المتوحّشة وكأنّي دبّ يتمرّغ على لحافها.

أنا رجل بقلب جديد.

أعرف اليوم معنى أن تكون جد سعيد، لم أتوقّف عن الرّقص لدقائق كثيرة فالموسيقى كانت تنبعث من رأسي أو بالأحرى من روحي ولأوّل مرة أشعر بالحياة تسري في جسدي وقد كان شعورا جميلا !

تطلب منّي جمع الحطام بداخلي شجاعة كبرى، غفرت لنفسي جرائمي حتّى أستمر بالعطاء والحبّ.

كنت مشتتا، التقط شظايا توازني النّفسي بحذر وأجمع ما تفرّق من أحلامي ببطء.

كنت بحاجة ماسّة للوقت فهو وحده من يداوي أوجاعنا عل مهل ويمسح الزّمن كلّ الغبار المتراكم على أهدابنا حتّى نبصر جيّدا حقيقة الطُّريق.

كان البشر يطلبون منّا دائما المزيد بأن نعمل، نتزوج، ننجب، نجمع المال، كنّا في زاوية ما غير مكتفين وقرّرت أن أجمع نفسي.

أنا بحاجة لمعرفة يوسف، معرفة قد تمتدّ لسنوات طويلة، أريد أن أسمع صوت عقلي والحكمة بداخلي، أن يتبدّد الضّباب الّذي يلفّ رأسي ومن ثمّ سأستسلم للحب والسلام.

بيد أنّ ابنتي حسناء تشعر بغرابتي وانزوائي المقيت تجاه نفسي وأرضي. كانت تحاول أن تجد لي امرأة تواسي ضجري وتبدّد صمتي. كنت محاطا بصديقاتها الفضوليّات والحالمات ومع مغادرة حسناء لبضعة أيّام وجدت نفسي محشورا في زاوية اهتمام إحداهن وكان اسمها مريم.

أعدّت لي كأسا من اللّيمون بالنّعناع وقدّمته لي بلطف، قالت لي بخجل الصبايا: لقد وعدت حسناء أن أعتني بك وقت غيابها ثمّ أنّي وجدت البيت في فوضى عارمة وكأنّما التّتار مرّ من هنا، قضيت وقتا طويلا لتنظيمه، ابتسمت لها بامتنان وقلت لها أشكر لطفك.

انتظرت أن تغادر ولكنّها أشارت إلى الطّاولة وطلبت مني الجلوس قائلة: اجلس هنا يا سيّدي سأحضر لك شيئا تأكله قبل مغادرتي.

كانت تثبت عينيها بعيني جيّدا وتحاول أن تغوص في أعماق وحدتي ورغبتي، إنّها تحاول ان تهزّ كياني والحرمان الذي يعيشه جسدي، استرخيت للحظات بين تلك النّظرات الثّاقبة وقلت لها حسنا لنرى قدرتك في فنّ الطّبخ!

قالت لي بحماس فلتتبعني للمطبخ لنرى ما يوجد هناك، كنت أتبعها وقد بدأت تمشي بتموّج وتتعثّر أحيانا في فستانها فترفعه إلى الأعلى قليلا وتلصقه بجسدها جيّدا وتتمايل أمامي بطريقة ساحرة وخبيثة.

كانت كلماتها تنبعث من منحنيات جسدها وتفاصيل فستانها الشفّاف وعندما شارفنا المطبخ تسارعت خطواتها لتبدأ التفتيش في أرجائه على شيء مهمّ لتعدّه، بدا عليها التوتّر، واكتشفت لوهلة أنّه لا يوجد أيّ شيء هناك يصلح أن يكون عشاءا جيّدا تثبت لي به مهارتها في الطّبخ، فقلت لها بضجر: حسنا ! بعض البطاطس المقليّة تفي بالغرض وعدت إلى الصالون أنتظر عودتها.

كنت أحتاج أن أختلي بنفسي بعض الوقت وأردت مع غياب حسناء أن أعيش قليلا مع ذكرياتي لكن رفيقتها لا تنفكّ عن زيارتي بين الفينة والأخرى.

مع عودتي أواخر العصر، أحسست بهدوء البيت والسّكينة بدا وكأن المرأة لم تأت اليوم.

دفعت الباب بحذر فوجدتها في وسط الغرفة قد أسدلت جميع الستائر وبدت وسط الظلال كحوريّة بحر، شبيهة بلحن، أنشودة أو موشّح لقصيدة عشق.

كانت فائقة الجمال، شعرها كان غجريّا شرسا مبعثرا بوحشيّة حول عنقها، جسدها كان عار وفتيّا، لا أعتقد أنّي رأيت جمالا مثل هذا من قبل.

كانت الصبيّة في الخامسة والعشرين، مندفعة ومشرقة.

ابتسمت لي بثقة وقالت بدلال مفتعل: لقد عدت مبكّرا على غير عادتك !

كانت نظراتها متشبّثة بعيني، شعرت بارتباك وخجل مما يحدث، وثبت لرشدي وتمتمت بحزم: حسنا، أطلب منك بكلّ لطف أن ترتدي ملابسك، وانتظري هنا، سوف أعود إليك بعد دقيقتين !

لم أتأخر كثيرا، وعندما توجّهت نحوها وجدت أنّها ارتدت ملابسها وجلست تنتظرني، دسست بين يديها كيسا، ما إن فتحته حتّى شهقت وقالت لي: هذا مال كثير، فاستدركت الأمر قائلا بثقة: لا حاجة لك بفعل ذلك من أجل أن تتزوجيني أو تظلّي معي، يجب أن تتأكّدي أنّ مساعيك في إغوائي لا تنفع أبدا، فأنت بعمر ابنتي، فاقتك وفقرك يدفعانك نحوي، وتهيأ لك أنّ وحدتي نقطة ضعفي.

أربكها سخائي وصراحتي فجثت محاولة تقبيل يدي لكنّي ابتعدت عنها بسرعة وقلت لها : ارحلي يا ابنتي ! فلا شيء يعني لقلبي غير إيجاد طفلي لأبكي بين أحضانه، فأتحرّر يومها من عزلتي ووحدتي لأبدأ مع امرأة أخرى بحماس وشغف.

عادت حسناء بعد يومين للبيت فانزويت بها في الغرفة حتى أجيبها عن كلّ حيرتها المرتسّمة في عينيها حول نجاح خطّتها في أن أتزوّج صديقتها.

سألتها بوضوح هل أتعبتك يا ابنتي ؟ هل تريدين التخلّص منّي !

اغرورقت عينيها بفيض من الدموع التي انهمرت على خدّها بغزارة وأجابتني بكثير من الأسى والانكسار: أبدا، أنت روحي يا خالي !

لمست كتفها بكثير من الحبّ وتابعت معاتبا: فلماذا تدفعين صديقاتك نحوي ؟

احمرت وجنتاها خجلا، وأصابها الحياء، وانفجرت بالبكاء وهي تردّد: أنت رجل ! وفي النّهاية ستحتاج لامرأة !

رمقتها بشيء من الأسى وقلت لها: يجب أن نغادر دائرة الحياة المتوارثة وهي أن نكبر، نعمل، نتزوّج ثمّ نموت، يجب أن نكسر النّمط السّائد في بعض الأحيان، فمنذ ميلاد آدم لا شيء مهمّ سوى مسألة الزّواج وإنجاب الأطفال ليعمّروا هذا العالم البائس.

ماذا لو توقفنا وبدأنا في إصلاح تعاستنا وخسارتنا في الحياة قبل أن ننجب تعساء آخرين يتوارثون عنّا فقرنا وغباءنا وعبوديّتنا.

لماذا لا نكسر الموروث فنبدأ في محو المتعارف عليه منذ القدم ونركّز على سعادتنا نحن.

أن ننزوي مع أنفسنا ونبدأ في إصلاح ما حطمته الأحزان والخذلان.

أنا يا ابنتي لا أريد أن أتزوّج !

أرجوك توقّفي عن جلب صديقاتك لبيتنا !

عندما سأشعر بانبعاث السّعادة من أعماق قلبي يومها سأتقبّل وجود الآخرين.

أريد أن أجد طفلي قبل موتي، أريد أن أهدأ به وأثأر لوحدتي بحضوره.

حضنت حسناء وبكينا بحرقة، كنت كمن نجا من الموت شنقا واستدرك الحياة بسرعة، أنا سعيد جدّا بما حقّقته من نصر وهزمت نفسي الأمارة بالسوء.

أعتقد أنّي غفرت لروحي جميع جرائمها، ويظلّ الغفران العظيم بيد الله.

تمضي السّنوات رتيبة ولا يزعجني تشابه الأيّام فكلّ ذلك يوحي بأنّي أعيش في سلام.

تصالحت مع نفسي وتماسكت، بدأت أتناسى ما أصابني من أذى، إنّي أستفيق من كلّ الصّفعات الّتي تلقيتها خلال السّنوات المنقضية.

ما إن عزمت على تحرير أرضي من حزنها تمكّنت من بلوغ هدفي وذلك بالكثير من العمل والإصرار.

أريد اليّوم أن أجد طفلي ويقيني بمفاجآت الحياة جعلني لا أتوقّف عن البحث.

اليّوم آخر أيام الحصاد، سنقوم بوليمة ونحتفل جميعا بعودة أرض السنابل.

اجتمعت النّسوة وبدأن في الطّبخ لتفوح كلّ روائح الذّاكرة وتعيدني إلى مرحلة المراهقة حيث كنت أطارد نجمة في الهنشير.

الرائحة سجن لكلّ الذّكريات ما إن انبعثت حتّى هجمت على كلّ الزّوايا الّتي أخفيت فيها شوقي والتهمتني أحزاني.

توقّفت بعيدا أراقب السّعادة المرتسمة على وجوه الجميع، العمّال، النّسوة وعائلتي.

كنت فخورا بهم جميعا واختفيت في الظّلام حتى لا يرى أيّ منهم خيبتي وانكساري.

اقترب منّي ابن عمي محمّد وقال: يوسف أنت فخر لتستور، ولكن كيف لي أن أراك دون هذا الوجع العنيف في عينيك.

تنهّدت بعمق وقلت له: أشتاق لابني، أتمنّى لو أضمّه وأموت.

توقّفت كالمقتول أراقب ظلال العصر تمضي مختفية رويدا حتّى حلّ الظّلام، ربت محمد على كتفي وقال أنسى ما مررت به، وأعرب عن أسفه وأخبرني بثقة بأنّه سوف يساعدني كي أجد ابني وتابع بأسى: لم أعرف من قبل أنّ قلبك محترق عليه

لهذه الدرجة، اعتقدت أنّك نسيت الماضي، تهيأ لي أنّ السّنوات مسحت عن قلبك جميع ذكرياتك المؤلمة.

رفعت عيني نحوه كطفل مكسور سرقوا منه كلّ سكاكره وهشموا قطاره البخاري وتمتمت مرتبكا: كيف ؟

قال لي: أتعلم أنّ ابن خالي مراد يعمل في السلك الديبلوماسي بسفارة تونس بباريس ؟ سوف أكتب له وأرسل كلّ أوراقك الثبوتيّة وأحدّثه عن قصّتك مع نجمة ونحاول أن نجدها، لا أعدك بسهولة حدوث ذلك، فباريس كبيرة، فقط لتصلي يا يوسف، وحده الله قادر على صنع معجزة، لتصلي بصدق !

ظلّت كلمات محمّد راسخة في عقلي كأمنية أتمسّك بها أو كحلم أرجو أن يصبح حقيقة، لم يصبني اَلْيَأْس وما انقطعت أبدا عن الصّلاة والدّعاء حتّى دعاني مراد لزيارتهم بباريس.

كان الزّمن يمضي بطيئا، انتهيت من الحصاد، استجمعت طاقتي ورحلت وكلي إيمان برحمة الله وحدوث المعجزات بقدرته.

كنت أتوق لمطاردة شبح نجمة في طرقات باريس وأتّبع قلبي حيث ما رحلت لعلّي أجدها صدفة تنتظرني في إحدى المقاهي، لربما أعثر عليها وهي تتصفح كتابها وتبتسم كلّ ما مرّت على البطل وهو يعانق حبيبته بعنف وشوق.

توجّهت نحو باريس في محاولة يائسة للبحث عنها، الباخرة تشقّ البّحر الّذي عبرته منذ سنوات في رحلة فرارها من ظلم أبي، البحر هادئ، الأمواج تداعب السّفينة وتجعلها ترقص مترنّحة وهي تتّجه بسرعة وعزم نحو مرسيليا، تنساب الذّكريات كحلم وأنتظر بفارغ الصبر متّى أبلغ الضّفة الأخرى لأثبت لطفلي ونجمة أنّني لم أتخلّ عنهما أبدا، سأجلس منهكا بين أحضانهما وأبكي كلّ السّنوات الّتي فرّقونا فيها.

أبلغ مرسيليا وأتّجه بكلّ شوق نحو باريس، سأرتاح ليومين قبل موعدي مع السيّد مراد في القنصليّة التونسيّة، كلّ ما استطعت تذكره هو وجه صونيا، لقد علق في ذاكرتي رغم الأحداث المشوّشة، عبثا حاولت لآلاف المرات الفوز بمعلومات عنها، لا أحد يعرفها، الفندق تعود ملكيّته لامرأة اسمها نثالي برنارد، ولكن إيماني بإيجادها سيساعدني على أن أنال مرادي.

باريس مدينة الأضواء والعشق، بها سحر هادئ، تشعر برقيّ الشّعب الباريسيّ، إلاّ أنّ الملل قد أصابني من صخب المدينة وأحيائها المتشعّبة والمسافات الطّويلة الّتي أقطعها، لأجد نجمة سأحتاج لسنوات عديدة من البحث المضني حتّى أظفر بها، كأني أبحث عن إبرة في كومة قشّ إلاّ أنّ إيماني سيمنحني معجزة لرؤيتها مجدّدا.

توجّهت إلى القنصليّة، وقابلت السيّد مراد، تحدّثنا لساعة حول الموضوع، أعطيته القليل من التّفاصيل الّتي أعرفها، أكّد لي بأنّ إيجادها سهل إذا عثرنا على السيّدة برنارد الّتي ستوصلنا إلى صونيا ونجمة، وعدته بأنّي لن أبخل في التّعاون وتقديم الدّعم في سبيل العثور عليهما، أقنعني بأنّ الظّفر بشخص غائب لسنوات وتائه في باريس يتطلّب الكثير من الصّبر والإيمان بحدوث المعجزات.

حدّثته بصدق عن حبّي لنجمة، قلت له: علاقتي بالقدر علاقة غريبة، فوجود نجمة بحياتي، عشقي لها، زواجي بها، جنوني، كلّ هذا حدث بسبب القدر وأنا اَلْيَوْم مجرّد كهل متعب من العشق، أبحث عن طفلي لأضمّه إلى صدري قبل موتي.

غادرت المكان وقلبي مؤمن أنّه لا مستحيل في هذه الأرض، أعلم أنّ دورانها حول نفسها ليس عبثيّا، إنّه ينظّم الأقدار من جديد لنلتقي ونصادف من أحببنا مجدّدا وسأجدهما.

كان يجب أن أهبك اَلْكَثِيرِ من وقتي، أمنحك اهتمامي وأطارد أمل العثور عليك، كنت أمشي على طول نهر السّين، لعقود من الزّمن، افترش بائعو الكتب الرّصيف ليبيعوا سلعهم من الكتب للسيّاح، يقدّم كلّ كاتب مجموعة مذهلة وقيّمة من الكتب القديمة والّتي تعود لسنوات كثيرة انقضت وغيرها من الأعمال الفنيّة.

توجّهت نحو شارع ريفولي الّذي كان على بعد خطوات من متحف اللوفر، حيث عثرت على مكتبة عموميّة للكتب، في باريس الكتب والرّوايات والفنّ تعتبر روح المدينة، تشرق سماؤها بالكلمات والشّعر وتتّقد أنوار المعرفة ليلا، الجميع يضمّ الكتب لصدره أو يمسك به بين كفّيه كشيء قيّم، باريس تقرأ ويزهر عقلك وأنت تجوب شوارعها، وتثق أنّ هذا الجمال ما هو إلّا من عبق الشّعر وعمق الكتابة الروحيّة اللّطيفة لجميع الكتّاب الإنكليز والفرنسيين.

تحتوي بعض المكتبات على مقاعد مبطّنة وما تزال الآلات الكاتبة متاحة لبعض عشّاق السّرد القصصي.

هؤلاء الكتّاب لا أعلم كيف يصيغون الكلمات وتصيبني الدّهشة للطّريقة الرّهيبة الّتي يسردون بها الأحداث المسترسلة، لطالما عشقت القراءة وتمنّيت من قلبي أن أخلّد قصّتي في كتاب يقرؤه بعض الباحثين عن الحبّ والحظّ لعلّهم يجدون ضالّتهم في تجاربي القاسية في الحياة.

نعم! الكاتب يكتب تجربته، يحيك أفكاره، يسرد وجهة نظره، ينبهك لهفواته ويدعوك لتجنّبها، يخبرك عن قسوة الطّريق ومخاطره ويفتح عينيك على وجهات أخرى، الكاتب يحثّك على تجنب الأخطاء الّتي وقع فيها.

قرّرت أن أمضي في باريس بعض الوقت، اقتنيت آلة كتابة وبدأت أكتب قصّة حياتي وما حدث لي فعلا في دار منامة وأعترف كرجل شريف وشجاع بكلّ جرائمي، قرّرت أن أقدّم كلّ ذلك لطفلي وأطلب منه أن يغفر لي ويعلم كم أحببته.

تمرّ الأيّام هادئة ولطيفة مثل جمال باريس، أقضي اللّيل في الكتابة وفي النّهار أجوب طرقات باريس الكثيرة بحثا عن مكتبات لعلي أصادف نجمة في إحداها، هي تحب القراءة، كانت تقول لي أنّ الكتب تجعلها تنسى شقاءها، أعتقد أنّه بإمكاني أن أجدها إن لزمت زيارة المكتبات.

أظلّ هائما في شوارع باريس الكثيرة، أعبر شارع الشانزيليزيه أشاهد واجهات المحلاّت الفخمة والمقاهي الكثيرة، أتفحّص وجوه جميع النّساء ذواتي البشرة السوداء، أدقّق النّظر بهن، أتمنّى أن أصادف وجه نجمة بينهنّ، واثق أنّ الزّمن لن ينال من جمالها شيئا، نجمة لن ينطفأ تألّقها لأنّ جمالها نابع من روحها السخيّة، أمضي العديد من الدّقائق محملقا بوجوه النّساء دون أيّ اكتراث منّي ولجسارتي.

إذا كانت لديّ فرصة لأجدها فلن أضيّعها و ستجول عيني بجميع نساء السمراوات الرائعات، إنهن نسوة دافئات ولديهنّ سحر رهيب، سوادهم يذكّرني بلون القهوة، الشكولاتة، كلّ ما هو دافئ ولذيذ، هؤلاء النّسوة في كفّة أخرى لا تضاهيهنّ باقي نساء الأرض حلاوة، أستمرّ في البحث مطوّلا ثمّ أمرّ على ساحة الكونكورد في نهاية شارع الشانزيليزيه، أتوقف عند نافورة المياه الضّخمة مشدوها بجمال المعمار والفنّ.

لا تنتهي جولتي إلاّ بزيارة ساحة الباستيل حيث تواجد بها سجن الباستيل الشّهير ومع اندلاع ثورة يوليو 1830 تغيّر المكان ولم يعد يتبقّى منه سوى بعض الأطلال الّتي تذكّرك بوحشيّة السّجون وقسوتها، مؤمن جدّا بأنّ هروب نجمة نحو باريس كان أشجع عمل أقدمت عليه، السّجون لا تعاقب المجرمين فقط وإنمّا قادرة على التهام عمر الأبرياء، لا أحد على هذه الأرض يمتلك الحقيقة الكاملة.

أزور في كثير من الأحيان حيّ مونمارتر، أقضي يومي كاملا بالمقهى، أكتب روايتي، أغيب عن واقعي وأحلم.

أعلم أنّ نجمة تحب الجمال، الفنّ، فنون الرّسم، أعتقد أحيانا أنّه بإمكانها زيارة مثل هذه الأحياء العتيقة يوم الأحد، نجمة تعشق كل ما هو جميل وقديم، هي تحبّ تستور أكثر من تونس، تعشق البساطة والحريّة، واثق أنّها تمرّ من جميع هذه الأزقّة الضيّقة وتزور كلّ ما أعتقد أنّها تهواه، المشكل أنّه يجب أن أتحلّى بكثير من الصّبر والصّلاة حتّى أعثر عليها.

الرّائع في الأمر أنّي بدأت أتعمّق في روايتي، لست كاتبا مخضرما أو أديبا عالميّا ولكن كل ما أكتبه صادق، يكفيني أن تمسّ مشاعر من سيقرؤها، لم أكن قادرا على خطّ كلمات لا مثيل لها لأصبح عبقريا، كنت أكتفي ببعض الجمل السّهلة والّتي أزخرفها بالكثير من الحبّ والبساطة، يجب أن أنتهي من الكتابة قبل عودتي إلى تستور، سينقضي الشّتاء ويجب أن أعود لتونس، فأرضي تنتظرني ولا أقدر أن أخونها بعد هجري لها قسرا لسنوات عديدة.

كنت أقضي السّاعات هائما في شوارع باريس، ينقضي اليّوم بسرعة، أعود أدراجي إلى الفندق وأختلي بنفسي بقيّة اللّيل، أواجه مخاوفي، فأنا خاف أن أجد نجمة زوجة لشخص آخر وأما لأطفال آخرين، ماذا كنت سأفعل وقتها ؟

أخمّن في ذلك كثيرا، وأنتهي أن أسلّم قدري إلى الله وأدعو أن تكون بصحّة جيّدة هي وطفلي، تستمرّ ساعات الكتابة لغاية الفجر، أستلقي في فراشي مهزوما ومكسورا وأغرق في نوم عميق.

كنت أمضي الكثير من الوقت وحيدا، هائما بين المقاهي والمكتبات، كل ما اعترضتني امرأة سوداء إلا استوقفتني وشدّت انتباهي.

ذلك اليّوم في المكتبة كنت أراقب إحداهنّ وهي تتحوّل بين رفوف الكتب مثل نحلة كادحة، تحمل العديد من المجلّدات والأوراق، تضعها على الطّاولة قبالتي، تعود للرفوف لتختفي لدقائق عديدة بين عناوين الكتب، كان شعرها قصير مثل صبيّ، عيونها واسعة وشديدة السواد، صبيّة في أواخر العشرينيات، لا تبالي بنظراتي لها،

كنت مسحورا بنشاطها وحزينا لأحلام نجمة، لقد أمضت المسكينة سنوات تبحث عن حريّتها الكاملة، تحلم بأن تقف موضع هذه الفتاة وتجوب جميع المكتبات وبين الرّفوف لتختار كتبها بعناية لتنغمس بكلّ طاقتها في أحداثها.

كلّ ما رغبت به نجمة تمتلكها هذه المرأة أنّها من نفس لونها، عرقها، عرق النّجوم، حيث تقنعني نجمة أنّها تنتمي لدرب كونيّ به نجمة سوداء انحدرت منها كلّ سلالة السّود على الأرض، لهم ولاء رهيب لأبناء جلدتهم، نجمة ترتاح لذوي البشرة السّمراء، تخبرني أنّها تشعر بالأمان والانتماء مع رجل أسود !

لم أكن لأبالي بروايتها الخياليّة حول النّجوم ما دمت أشعلت حربا لأفوز بها في النهاية.

أظلّ أراقب الفتاة وهي تقرأ بشغف المجلّدات العظيمة ثمّ تمسك قلمها وتظلّ تخطّ الكثير من الجمل دون توقّف.

صادفتها عدّة مرّات في المكتبة، رفعت يوما نظرها نحوي لتجدني شاردا، حالما معها بذلك العمر الّذي مضى، ابتسمت بودّ وقالت لي: سيّدي هل أذكرك بأحدهم ؟

شعرت بالارتباك وتفاديت إخافتها أو إزعاج خصوصيّتها وقلت لها: كلى ابنتي، أنت تذكرينني بزوجتي وتسمحين لذكرياتي بالهجوم على مخيّلتي !

ابتسمت الفتاة بحماس وسألتني في فضول بريء: وأين هي الآن ؟

قلت لها: جئت أبحث عنها في باريس، لقد غادرت إلى هنا منذ سنوات كثيرة، ورحلت مع طفلي.

كانت تستمع لي باهتمام وبدا عليها الذّهول والسّعادة وكأنّها ظفرت بشيء مهمّ، أغلقت الكتب واقتربت منّي لتجلس قربي وقالت لي: اسمي جوردان، أنا من أصول إيفوارية، قدمت لفرنسا منذ سنوات مع أسرتي هربا من التميز والفقر، لن أدّعي أنّنا هنا نعيش أفضل حياة ولكننا ننعم بالهدوء، العنصريّة متفشّية في جميع البلدان

مهما بلغت من التقدّم، هم يوهموننا بذلك، أنا اَلْيَوْم أكسب لقمة عيشي بالكتابة في إحدى الجرائد الفرنسيّة اليوميّة، أكتب باسم مستعار ولكن هذا مكّنني من أن أجني بعض المال الزائد.

استغرقت الفتاة في رواية تفاصيل شيّقة عن عملها ثمّ طلبت منّي أن أحدّثها عنّي.

مع بلوغ المساء، كنّا نتسكع في شوارع باريس الضيّقة ونثرثر لساعة متأخّرة من اللّيل ومع اقتراب موعد رحيلنا، اقترحت عليّ شيئا بدا لي وكأنّه جد منطقيّ أو كأنّها معجزة من السّماء تتحقّق، قالت لي ونحن نتصافح: ما رأيك لو كتبت قصّة حبّك لنجمة وما حدث بينكما في تونس وكيف جئت بحثا عنها في باريس لعلّها تقرأ كلّ ذلك يوما ما.

لم أرفض الفكرة مطلقا، ورحّبت بهدايا السّماء لقلب يوسف المكسور.

بدأت في سرد بعض الأحداث الجميلة عن تونس ونجمة وحبّي لها، حدّثتها عن رفض أبي لزواجنا وكيف غادرت نجمة نحو مرسيليا، أخبرتها أنّني مرضت بعدها وزجّ بي في المشفى لعدّة سنوات حتّى أشفى، أخفيت الكثير من الحقائق، أنا واثق أن الله غفر لي ذنوبي كلّها وأنّه قادر أن يهبني رحمته، لم أرغب أن يعرف أحدهم أيّ الوحوش كنت، الهدف من روايتي إيجاد نجمة بطريقة سريعة وذكيّة وليس تحذير النّاس من الاعتقادات الخاطئة بالنّاس وتوسمهم الكثير من الخير في الأثرياء والمثقّفين، كلّ منا يخفي جحيما بينه وبين نفسه.

لم أرغب أن يعرف ظلماتي غيرك يا نجمة، أنت من يجب أن تغفر لي وليس الجميع!

بدأت الفتاة تكتب بطريقة احترافية كلّ ما حدث في قصّة عشقي لنجمة، استمرينا في ذلك لمدّة شهرين، نتقابل ونثرثر دون توقف.

أيقنت حينها أن فرصة ثمينة فاتت نجمة، وآمنت بجمال روح هذه الفتاة وعفويّتها وثقافتها، كانت نجمة محقّة عندما حاربت لسنوات من أجل أن تتخلّص من لقب عتيق وتنجح في الفرار من جناة سيرسمون أقدارها دائما.

أنا ممتن جدّا لكلّ من ساعدني في نجاتها من الحياة الكريهة اَلَّتِي كانت ستحياها.

اقترب موعد سفري لتونس، انقضى الرّبيع وسيحلّ الصّيف ويأتي موعد الحصاد، أصابني الأرق فتستور تحتاجني أيضا، تلك الأرض تنتظرني.

كنت منهمكا في غرفتي أجمع حقيبتي، وأتفحّص أوراقي، أشعر بالفخر حيال ما كتبت، الكتابة تبلغ بك أحيانا مرحلة الشّفاء، الاعتراف بكلّ الحماقات، أو الأخطاء تسمح لنا بالتخلّص من كلّ القلق الّذي كان يلازمنا، لا أعلم أكتفي بهذا القدر ممّا كتبت أو أواصل الكتابة حتى ينتهي رصيدي من الوجع، الكتابة اختصار لكلّ الحيرة الّتي تجول في فكري، ما إن تتحول مخاوفي إلى كلمات وجرائمي لحقائق شبيهة بالاعتراف الأخير تهدأ نفسي وَتَكُفّ عن تأنيبي، أعيد قراءة ما كتبت، واثقا جدا أنّه رغم بشاعة بعض الأحداث إلا أنّني لست نادما على حبّي لنجمة، لو عشت ذات الأحداث لآلاف المرّات سأحبّها بعدد ما سأعيش كلّ مرة، أخذت الآلة الكاتبة وتوجّهت نحو الحيّ اللاتيني، قمت ببيعها وإعطاء النقود لإحدى المتسولات.

أردت أن أزور باريس لآخر مرّة، فقد لا يتسنى لي العودة مجدّدا. توجّهت أتفحّص الحانات، المطاعم، واجهات الفنادق، كنت كمن يبحث عن خلاصه الأخير، أبحث عن آخر فرصة لي في العثور على نجمة.

يحلّ الظلام، وأتوجّه للمقهى لأنتظر جوردان، وداعها عسير على قلبي، يذكّرني طموحها بنجمة، امرأة تقرأ ولا تملّ، لا تعيش نفس الفكرة والوقائع ذاتها، هي قادرة أن تغوص في المعرفة عميقا ومع كل الزّاد المعرفي الّذي ستحظى به ستشعر أنّك في حضرة ألف امرأة وحضارة وفكرة.

النّساء الذكيّات يبهرنني، أشعر أنّي ضعيف معهن، قلبي لا يتحمّل أن يحب امرأة تشبه أمّي وأخواتي، أرغب بتلك المتمرّدة، المجادلة، العميقة وصاحبة الحجّة القوية والحكمة الثاقبة.

أحمل بين يدي هديّة قيّمة لجوردان، وأتمنّى أن تنجح فعلا في نشر روايتي، فقبل سفري بيومين أبلغتني أنّه تم رفض نشرها في الجريدة لما تحمله من مشاعر حقيّقة وصادقة يكنّها رجل أبيض لامرأة سوداء، وجدوا أنّه من العار أن تنشر في مثل هذا الوقت قصص من هذا النّوع، أصابني الحزن وشعرت أنّ البحث عنك سيطول جدّا.

أيقنت السبب الّذي جعل جوردان تكتب لسنوات تحت اسم مستعار وتخفي هويّتها، الأسود لا يحقّ له أن يكون الأفضل لأنه حسب تصوّر الجميع الأبيض يمتلك الموهبة والقوّة الكافيين لغزو العالم واستغلال الشّعوب الأخرى لخدمتهم، هؤلاء القوم لا يهتمون بسيادة السّكان الأصليين لتلك الأراضي ويرغبون في التحكّم وتوجيه الآخرين، كلّهم في مكان ما يشبهون أبي!

وعدتني جوردان بمحاولتها نشر القصّة مهما كلّفها الأمر، سيتطلب ذلك الكثير من البحث والانتظار ولكنّها وعدتني أنّ كلماتي ستقرأ في كامل فرنسا.

ودّعتها ورحلت إلى تونس متمنّيا لنفسي الكثير من الصّبر والحظّ.

كنت دؤوبا في عملي بالهنشير ولم ينقطع صمتي وإيماني بأنّي غدا سأجد ابني.

أشعر بالسّعادة كلّما وهبتني الأرض من خيرها، ممتن لها بمكافأتها لي عن كلّ تعبي وجهدي.

كبر ابن حسناء وصار شابّا يافعا، كان يشبهني لحدّ كبير وشغفه بالأرض والحصاد جعلني أثق أنّه سيكون السيّد القادم لكلّ ما أملك، كان ينقصه شيء واحد وهو امرأة مثل نجمة ليحبّها ولكنّها لن تتكرّر في الحياة مرّة أخرى.

تمضي السّنوات وأنا صابر أتوق لمعجزة تجعلني أراها يوما ما قبل موتي.

مرّت الكثير من السّنوات، لم أفقد معها أمل العثور على نجمة حتّى تلقيت مغلّفا من طرف جوردان.

كان عامل الحصاد يشقّ أرض السنابل ويتوجّه نحوي ملوّحا بيديه بالمغلّف، كانت حسناء تنظر نحوي وتنتظر خبرا يثلج قلبها، مزّقت المغلف بتوتّر وأمسكت جريدة فرنسيّة بين يدي، لم أحتج لأحد كي يخبرني عن محتواها، كانت حسناء تتمتم: غريب ! جريدة! ننتظر خبرا مهمّا فتأتينا جرائد أوروبيّة، من يأبه بفرنسا حقّا !

كنت أتفحّص صفحاتها بنهم وشوق حتّى وصلت لمنتصفها وقرأت بصوت منخفض: كنت أعلم أنّه يهتم بي، أشعر أنّه يتفحّصني وينتظر مجيئي لعدّة أيّام، حدسي يخبرني إن توجّهت نحو سيشي بكلّ ما في قلبه من أسرار، أعتقد أنّه هو من وجدني، كنت مندسّة بين الكتب، ضائعة في كتب الأساطير والحروب، أريد أن أكتب شيئا مهمّا يثبت موهبتي الأدبيّة، لكنّي أشعر بأنّي أستنسخ كلّ الكلمات وأعتصر الكتب حتّى تمنحني القليل من حقائقها، ذلك الرّجل لديه رواية مهمّة لي، سيسرد عليّ قصّته وتلك ستكون أوّل عالمي في الكتابة.

كنت أبحث عن فرصة أقفز بها نحو عالم الأدب، منعت نفسي أن أنظر ناحيته وبقيت أستمتع بخيالاتي حول قصّته الحقيقيّة، كنت أستمتع بالغوص في أحداث وهميّة حتّى أرى إن تطابقت تخميناتي مع قصّته، رفعت عيني لأواجهه وأنهي لعبة القلق الّتي بدأتها وتوجّهت نحوه، أرغب أن يفضي بكلّ أسراره وهنا جاءت أول رواية لي وهي بنت عتيق.

قصّة حبّ تونسية سينتهي قدرها بين أحياء باريس الشاسعة. نحن كلنا نبحث عنك سيّدة نجمة يوسف.

تناثرت دموعي، جلست أرضا وأجهشت بالبكاء، لقد فعلتها جوردان وأنا واثق أني سأعثر على عائلتي.

انقضت السّنوات العشرة كأنّها حلم وزارني محمد يوم الاثنين مع منتصف اللّيل، كان ذلك الوقت شتاء وسمعت طرقاته على الباب وهو يصرخ: يوسف !

توجّهت نحوه مرتعشا، قلبي يكاد يقفز من القلق، كنت أشعر أنّ الزّمن أنصفني، هناك خبر ما سعيد سيثلج روحي بعد سنوات انتظاري.

رأيت مغلّفا بين يديه، لم نثرثر كثيرا، دسّ الخطاب بين يدي وقال بحزم: إنّه من طفلك، إنّها إجابة لحيرتك من باريس.

خفق قلبي كثيرا وتمسّكت يدي بالرّسالة في شوق، نظرت له وقد دمعت عيني، ارتجفت كلمات الشّكر بين شفتي، كان مرعبا أن ألتقي طفلي بين الكلمات.

لا أعلم كيف سيكون ؟

ماذا سيكتب ؟ ماذا سيقول ؟

قد تباغتني دموعه على حبر الورق أو يرسل لي صورة فأتفاجأ بأنّه يشبهني كثيرا.

اليوم سأعرف كم له من أخ وكيف أمضى حياته، هل حدّثته نجمة عنّي ؟ هل سيكتب لي أبي ؟

ذهبت إلى غرفتي، أغلقت الباب، الخوف منعني من فضّ المغلف، عقلي يرفض المواجهة، أنا خائف !

صدقني أخاف من الكلمات !

أخاف من صدق أحدهم، من الحقيقة !

أخاف أن لا يتحمل قلبي عتابه أو جميع أخباره الّتي ستؤلمني.

الخطاب اللّعين يتلاعب بدقّات قلبي ويسحب العرق من جبيني فيبرد رأسي، أشعر أنّي جبان أمام الكلمات.

تمضي السّاعات ثقيلة وسامّة، كل ساعة تمر أشيخ فيها، أنا اليوم عمري ألف سنة بحجم المسافة التي تفصلني عن قراءة كلمات ابني.

سيحلّ الفجر قريبا، أشعر بوجع!

أنا لست بخير !

أعتقد كأنّ اليوم آخر أيّامي، أشتمّ رائحة الموت والخذلان.

لست واثقا من حدسي ولكنني شبه متيقّن أنّي اليّوم سأرحل.

لبست برنسي وتوجّهت خارجا نحو شجرة الزّيتون أمام أرضي، وشردت بعيني بعيدا، وهربت بهما من المواجهة.

اليّوم أوّل يوم في شهر ديسمبر، أقف على هضاب تستور يقتلني الشوق لمعرفة ما كتبه لي، ستنتهي حيرتي فمع انقشاع أوّل ضباب الفجر الكثيف سأقرأ خطاب طفلي الّذي بلغني بعد سنوات من البحث والصّبر.

البرد شديد ولا أستطيع رؤية الأشياء فرذاذ الجليد يملأ عيني وأنا غارق في دخان انشقاق أول الفجر الجليدي.

بقيت واقفا متجمّدا أستمع لخفقان قلبي وأحسست أنّ اليّوم سينقضي بموتي.

لا أعلم ولكن شعرت بمرارة في حلقي وداعبت أنفي رائحة الرّحيل.

تجمّدت في مكاني!

لا شيء مهمّ في قصّة حياتي وأنا فخور بأرضي فاليّوم تستور عادت لجمالها، وأصبحت الأرض ترقص فرحا بالحصاد والزغاريد كل صيف.

لقد أيقنت أنّ الندم يخلّف بساتين الفرح وأنه سبب لأتقدّم وأصلح ما قد أفسدته من قبل بطيشي.

تعلّمت الكثير وكان الثّمن باهظا جدّا !

كان الثمن عمري اَلَّذِي أضعته في اكتشاف عمق مشاعري وإخلاصي لمن أحببت، وصرت رجلا قويّا وحكيما، اليوم قادر على تقديم تنازلات كثيرة حتّى أرى نجمة وأضمّها لي، يجب أن أعوّض سنوات شوقي لها.

بدأ الفجر ينقضي واختفى الضّباب كأنّه بخار الينابيع الحارّة تفجّر عاليا ثمّ تبدّد، وتنبري الأرض أمامي هادئة مستلقية في سلام.

أفتح المغلف وأبصر جملتين مكتوبتين بحبر أزرق باللّغة الفرنسيّة:

هذه الرّسالة خاصّة جدّا، تسلّم فقط إلى السيّد يوسف.

توقّفت أنفاسي وأنا أرى جمال الخطّ المتقن، أعلم أنّه ليس خطّ يديك وأنّ من كتب هذا هو ابننا.

أتعلمين شيئا يا نجمة، منذ رحيلك توقّفت عن حساب الزّمن والوقت، لا أعرف التّواريخ ولا أهتم لسنوات تمضي، اعترفت لك بأحاسيسي نحوك، نحو الحياة، تجربتي، ندمي وقلّة حيلتي ثمّ توبتي وعودتي إلى الله ولإنسانيتي يوم هدأت كان ذلك موافقا للأوّل يناير من سنة 1983.

لم أكن أريد أن أخطّ ذاكرتي بتواريخ معلنة ومفضوحة لأنّي كنت أخفي خيبتي بين السّنوات وكنت أخاف التّاريخ لأنّه لا يرحم.

يوم تغيّرت وأصبحت رجلا حقيقيّا كان الأجدر بي أن أحتفل بذلك معك ومع طفلنا.

توقّفت عن التّفكير، استجمعت شجاعتي لأواجه خطابك.

الفضول حطم كلّ طاقتي !

كنت كلما حاولت أن أقرأ الكلمات أشيح بنظري بعيدا.

كنت رجلا جبانا لسنوات كثيرة ولكن اليّوم أفقد كلّ شجاعتي أمامكما.

دفعت الورقة أمام عيني وبدأت أقرأ، أشعر أن قلبي قد توقف، جلست أرضا، أستجمع أنفاسي واختنق بعباراتي، مؤلم كل ما كتبت يا طفلي !

باريس من سنة 1983

أنا ولدت لامرأة سوداء اسمها نجمة وعشت كامل عمري مع عائلة فرنسيّة هم اليوم أسرتي.

عند ولادتي كان اسمي أحلام نجمة لكن اليوم اسمي أماندين برنارد وهذه أنا، سيّدي أريد أن أخبرك أنّ نجمة توفيت يوم ولادتي، لم أعرفها قطّ ولم أحظ بشرف حبّها وما كتبت عنها أبهجني جدّا.

لقد تبنّتني العائلة التي استقبلت نجمة.

حدّثتني أمّي ناتلي عنكما كثيرا، وأعتقد أنّي ورثت عنها الكثير من الذّكاء والفطنة، أنا اليوم طبيبة، امرأة حرّة، تربيت في كنف أمّ شجاعة آمنت بي، ودعمتني حتّى بلغت ما أنا عليه اليّوم.

لا تعتقد أبدا أنّه من السّهولة أن أدير ظهري لجميع تضحياتها وأعود لتونس أو أراك، يكفي جميع الأذى الّذي تسبّبتم به لقلب نجمة، يجب أن تتركني في سلام وتكفّ عن محاولة استجداء عطف الجميع، أمّي أرغمتني أن أكتب إليك ولم تمنعني من رؤيتك، أمّي ملاك، قالت لي: الأمر يعود لك يا ابنتي !

سعيدة بالتحدّث إليك وقراءة قصتك ولكن لا تعتقد أنّك عائلتي الوحيدة، أرجوك لا تبحث عنّي أبدا فحيث ما أنا موجودة أشعر بالأمان والحريّة.

وداعا

الكلمات كانت حزينة وقاسية على قلبي، شعرت بضربات متفاوتة هزّت عروش قلبي وكانت كفيلة بإعلان نهايتي فبعض الكلمات كفيلة بقتلنا.

رميت الورقة أرضا لعلّ الأرض تبلعها وتدفن قهري معها وعدت إلى البيت أجرّ قدمي مثل المغدور وكأنّي بقايا مملكة هالكة أحاول جمع ما تشتّت من وجعي وأكابد لأبلغ فراشي.

ارتميت على الفراش وقد تسارعت ضربات قلبي، وجدتني حسناء ملقى على فراشي أعالج وجعي فارتمت بين قدمي تحاول فهم ما حدث لي.

طلبت منها أن تجلب لي الماء فهو كلّ ما أحتاج إليه، وتمدّدت مثل المقتول غدرا أرتجف وأصابني الذّهول والشرود.

بقيت حتّى الظّهيرة هكذا وحسناء تضع الكثير من الأغطية فوقي لعلّني أهدأ من هلعي.

توقّف قلبي عن الخفقان وشحب وجهي وأعتقد أنّها اللّحظات الأخيرة.

كنت مستلقيا أشاهد شريط حياتي، وآمنت أنّ شبح نجمة كان حقيقيّا، كانت ميّتة وكانت تزورني لسنوات، وجهها الحزين كان إعلانا منها لجميع جرائمي الّتي ارتكبتها في حقّ أحبّائها، كانت تعاتبني وتعاقبني بأن سكنت عقلي ومخيّلتي.

لقد دفعت سنوات كثيرة من عمري وأضعت الكثير من الجمال في هذه الحياة.

سألت حسناء في خوف متّى صلاة المغرب؟ فأجابتني بعد عدة ساعات !

أخبرتها أن تقترب وقلت لها أنت كلّ عائلتي، أنت ابنتي واليّوم أنا راحل فأرجوك أن لا تبكي أو تحزني فقط عديني بأن تحتفظي وتخدمي جميع أراضي تستور لأنّك سترثين

قلبي وسلامي وأريد أن أدفن في أعلى الهضبة حيث يكون بمقدوري أن أشاهد حقول السّنبل يوم الحصاد وليرث أطفالك حبّ الأرض.

كانت الأرض يا ابنتي سببا في شفائي وتجدّد الأمل في روحي وحاجتها لي مسحت عن قلبي كلّ وجعه.

يشيخ الجسد يا حسناء لكن القلب لا يكبر.

اقترب العصر، سمعت صوت الآذان، أفقت من غيبوبتي، طلبت من حسناء مساعدتي لأتوضّأ، جلبت لي كرسيّا، جلست أصلّي وأناجي الله، أنّها ساعاتي الأخيرة على هذه الأرض.

أخبرت حسناء أن تجلب مغلّفا أين دسست به كلّ ما اعترفت به حول جرائمي ونفسي، طلبت منها أن تحرقهم، استندت على كتفها وعدت إلى الفراش، طلبت منها أن تقرأ لي سورة يوسف.

كنت مؤمنا بشدّة أنّ كلّ ما حدث معي هو قدر محتوم، فقصّة يوسف تقنعني بأنّه لا مجال للشكّ في أمر الله النافذ، نحن لسنا أشرارا أو ملائكة، نحن مجرّد بشر ضعفاء نكتب بسخاء تاريخ الأرض البسيط ونبحث عن حقيقة وجودنا.

أتمنّى أن يغفر لي ربّي كلّ ما فعلت، أعتقد أني بدأت ألج غيبوبة الموت وأشعر بوجع في مفاصلي، صدري يؤلمني، انفجرت ابنتي حسناء باكية وبقيت واجما أهذي بأسماء كلّ من أحببت.

لا أعرف ما الّذي أصابني ولكن آخر ما سمعته هي صرخات حسناء تمزّق أرض تستور وكان وقتها أذان المغرب لحظة رحيلي عن أرضي.